التجار الكارمية

وتجارة مصر فى العصور الوسطى

يعتبر التاريخ الاقتصادى والاجتماعى فى الآونة الحاضرة دون غيره من فروع التاريخ موضع اهتمام الجمهور والباحثين بعد أن أصبحت الشئون الاقتصادية فى مقدمة الصوالح الإنسانية . والتجارة وهى تؤدى مهمتها الاقتصادية الجليلة فى تبادل السلع وتداولها ؛ إنما تعتبر أداة من أدوات العمران الرئيسية . وقد تكون فى ظاهرها « شراء السلع بالرخص وبيعها بالغلاء » على حد قول ابن خلدون [1] ، لكنها تطوى فى ثناياها فرصاً للاتصال بين أجزاء العالم المختلفة . فالتجار فى العصور الوسطى — والكارمية من أهمهم — قد أسهموا فى بناء ذلك العصر بما نقلوا من الأفكار والآراء والعادات والأذواق فضلاعن السلع والمنتجات بين الشرق والغرب . وليس يخفى أثر ذلك فى خلق أسباب التفاهم والتقارب والوحدة بين حضارات العالم الوسيط رغم ما كانت تغفل بها الحروب والسياسات واختلاف الأديان والتقاليد والثقافة .

وقد أتيح لمصر أن تحتل مركز الزعامة فى العالم الإسلامى فى عصرى الأيوبيين والمماليك . وغنى عن البيان أن جوانب تلك الزعامة السياسية والحربية قد نالت قسطاً واضحاً من عناية المؤرخين وإنتاجهم وحان الوقت للكشف عن مكانتها الاقتصادية التى ساندت وظاهرت مكانتها السياسية والحربية . ولا جدال فى أن التجار الكارمية كانوا دعامة من الدعامات الكبرى فى بنائها الاقتصادى وفى توطيد مركزها وتوكيد زعامتها بين الشرق والغرب فى ذلك الوقت .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٢٩٧ .

وربما كان من الصواب أن نبدأ بمناقشة الأصل فى تسميتهم بالكارمية قبل تفصيل الكلام فى تاريخهم . نقل كترمير ما قاله القلقشندى من أن هذا الاسم مأخوذ عن الكانم وهى منطقة من السودان الغربى تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد ثم انتشر هذا الاسم بين من اشتغلوا بتجارة البهار بعد أن وقع فيه تصحيف واصبح كارم (١) . وقد أيد كترسير فيما نقل كثيرون . أما الأستاذ ليتمان فيفترض أن هذا الاسم قد أخذ عن متاجرهم نفسها ؛ إذ وجد أن كلمة Kuararima ، وهى لفظة أمهرية ، تفيد معنى الحبهان وهو تابل من التوابل التى اشتغلوا بالاتجار فيها ثم صحفت هذه الكلمة واصبحت كارم وأطلقت على هؤلاء التجار (٢) . والواقع أن الأستاذ ليتمان محق إلى حد كبير فى الشك فى نسبة هؤلاء التجار إلى الكانم ! فالقلقشندى نفسه يثير الشك فيما رواه . فهو يقول إن لفظة الكارمى أو الكارمية وجدت فى الدواوين هكذا ، ولا معنى لها فى اللغة العربية . ومع ذلك فينبغى ألا ننسى أن صلة مصر بالكانم فى العصر الوسيط ترجع إلى العصر الفاطمى على الأقل ، فقد جلب الشب آنذاك من بحيرة تشاد الى مصر كما سجل الإدريسى (٣) . وفى الوقت نفسه أرانى مضطر إلى عدم التقليل من أهمية رأى كترمير بعد أن عثرت فى كتاب لابن ماجد الملاح العربى المشهور ، أن طريق التجار لاستجلاب الفلفل «قديماً» هو بلاد الكانم (٤) ؛ إلا أن الكارمية كما نعرفهم هم تجار التوابل وغيرها من سلع الشرق بين المحيط الهندى من البحر الأحمر ومصر . ولكن مهما يكن من شىء ، فليس لدينا ما يدل على أن تجار

---

(١) القلقشندى – ضوء الصبح المسفر ص ٢٥٣ و كارمى . Dozy : Supp. Dict. Ar.
راجع أيضاً حاشية محمد مصطفى زياده رقم ٢ فى الجزء الأول من كتاب السلوك ص ٨٩٩ و
Wiet : Les Mosquées du Caire vol. I p. 89.

(٢) راجع W.J. Fischel : Ueber die Gruppe der Karimi-Kanflente. Ein Beitrage Z. Geschichte des Orient-Handels unter den Orientalia VIII, 1936. Mamluken وتعليق ليتمان على هذه المقالة فى مجلة . Orientalia VIII. 1936

(٣) الإدريسى – صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس ص ٣٢ و ٣٩ – ٤٠ .

(٤) G. Ferrand : Instructions Nautiques et Routiers arabes et Portugais des XVe. et XVIe. Siècles p. 76 B.

الكانم قد استقروا فى مصر للاتجار فى بضائع الشرق من توابل وغيرها إلا نص القلقشندى فحسب . وإذا كان الأستاذ ليتمان يقترح أن تسميتهم ترجع إلى سلعة من سلعهم عرفوا بها وأطلق اسمها عليهم ، فينبغى أن أبرز بعض نقط قد تساعد على تكوين فكرة جديدة صائبة . لقد كان فى القاهرة سوق مشهور للعنبر أو الكارم وذلك لنفاق تجارته إذ « لا يكاد يوجد بأرض مصر امرأة وإن سفلت إلا ولها قلادة من العنبر » الأصفر أو الكارم . وإذا كان هذا الكارم إحدى السلع التى استجلبها الكارمية ضمن ما استجلبوه إلى مصر ، فمن الجائز أن ترد نسبتهم إلى هذه السلعة .

* * *

اتضح كيان الكارمية التجارى فى عصر الدولة الفاطمية . والقلقشندى يلقى الضوء على هذه الفترة الغامضة من تاريخهم . إذ يذكر أن الفواطم قد أعدوا أسطولا بعيذاب يتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن وما حولها خوفاً على مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب فيحميهم الأسطول منهم . وكان عدة هذا الأسطول خمسة مراكب ثم صارت الى ثلاث . وكان والى قوص هو المتولى لأمر هذا الأسطول وربما تولاه أمير من الباب ويحمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه » [١] . ثم كان نجاح الأيوبيين فى إقرار النفوذ المصرى فى البحر الأحمر ، وفى تنظيمهم شئون التجارة فى اليمن وفى غيرها من بلدان ذلك البحر وموانيه كفيلا باستقرار هؤلاء التجار ونموهم فى تلك المناطق الإسلامية . إلا أن عظمتهم التجارية قد تجلت وتأكدت عند ما استجابوا للاتصال التجارى الهائل بين الشرق والغرب منذ القرن الحادى عشر ، فأصبحوا التجار الرأسماليين المتوفرين على تجارة الشرق . ولكن قيام الحروب الصليبية ، وما أنتجت من صراع بين الشرق والغرب أثر تأثيراً عميقاً فى تشكيل تلك الطائفة . ففى عصر الحركة الصليبية لمعت المشاكل الاقتصادية لمعاناً شديداً وأثرت فى تاريخ مصر تأثيراً قوياً عميقاً بحيث انبثقت من مصر سياسة تجارية

---

(١) القلقشندى — صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٤ .

جديدة دقيقة واضحة المعالم جليلة الأثر فى مواجهة التوسع الأوربى . وخلاصة القول فى تلك الحروب أنها كسرت حدة الصراع بين القوتين المسيحية الغربية والإسلامية الشرقية فى مياه البحر المتوسط وركزته فى داخل الأراضى الإسلامية نفسها [١]. ولذلك كان كل ما يقال عن تلك الحركة الصليبية وعن روحها الدينية المتوقدة لا يقلل مغزاها كبداية سليمة لحركة تجارية قوية — مستمرة منتظمة — بين مصر والعالم المسيحى وموانيه على البحر المتوسط على يد التجار الأوربيين العاملين فى ذلك البحر والمسيطرين على النشاط البحرى والتجارى فيه . ولكن لما كانت تلك الحركة الصليبية عاملا تاريخياً « ديناميكياً » خطيراً فى تاريخ الشرق الأدنى فقد تمخض عنها بالنسبة لتاريخ التجارة المصرية سياسة اقتصادية واعية . فتلك الحركة أيضاً لم تقتصر على تحقيق استيلائها على الأراضى المقدسة وإنما امتدت — فيما امتدت — لتستولى على مصر ولتتغلغل فى البحر الأحمر وكانت اغراضها الاقتصادية فى ذلك واضحة جلية. فطريق البحر الأحمر ومصر — أيسر الطرق وأرخصها لاستجلاب التوابل وسلع الشرق النافعة فى الأسواق الأوربية فإذا ما تمكن التاجر الأوربى من التحكم فى ذلك الطريق تحكم فى أهم نشاط اقتصادى يعتمد على رأس مال السائل ، وتيسر للصليبيين هدفهم فى الاستقرار بالأراضى المقدسة وحقق النفوذ الأوربى أهدافه وامتداده للتحكم فى البحر

(١) يقول ابن خلدون معترفاً بسيطرة الغرب على البحر المتوسط « لما قام صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهده باسترجاع ثغور الشام من يد الأمم النصرانية ، تتابعت أساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية... فأمدوهم بالعدد والأقوات ولم تقاومهم أساطيل الإسكندرية لاستمرار الغلب لهم فى ذلك الجانب الشرقى من البحر وتعدد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمن طويل عن ممانعتهم هنالك . ولم يكن سلطان الفرنج على غرب البحر المتوسط بأقل منه على شرقه . فلقد ملكوا الجزائر التى بالجانب الغربى من البحر الرومى وقويت ريحهم فى بسيط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم . . . ثم تراجعت بعد ذلك قوة المسلمين فى الأساطيل لضعف الدول ونسيان عوائد البحر . . . . رجع الفرنج فيه إلى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الأمم فى لجه وعلى أعوانه وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلا من أهل البلاد الساحلية » . مقدمة ابن خلدون ج ٣ ص ٣٧ — ٤٠ . راجع أيضاً Pirenne : Economic and social history of Medieval Europe pp. 31-32.

الأحمر بعد أن سيطر على البحر المتوسط .

ولقد فطن صلاح الدين إلى هذه الأخطار الاقتصادية وإلى نتائجها الوخيمة فيما فطن إليه من أخطار الحروب الصليبية على مصر والشرق الإسلامى . يدل على ذلك مواقفه الحاسمة من أطماع الغرب فى مصر : فهو الذى دافع عن الموانى المصرية فى البحر المتوسط ، وقضى على آمال الصليبيين فى الاستقرار بمصر أو التغلغل منها إلى البحر الأحمر . كما طهر البحر الأحمر نفسه من سفنهم وأهدافهم وحطم فضلا عن ذلك آمال البيازنة — فبيزا من أكبر القوى التجارية الأوربية فى البحر المتوسط فى ذلك الوقت — فى الاتجار بالقاهرة بعد أن كانوا قد حصلوا على موافقة الخليفة الفاطمى ، الظافر سنة ١١٥٤ م ، مع تخصيص فندق لهم بالقاهرة حيث يستقرون ويركزون نشاطهم التجارى(١) . فلا غرابة إذاً أن يكون صلاح الدين محدد سياسة مصر التجارية وواضع أساسها وإطارها لبلوغ مصر أمالها التجارية القائمة على السيطرة والتحكم فى ذلك الطريق الحيوى المار بأرضها ومجمل تلك السياسة أنه احتفظ بالبحر الأحمر بحراً إسلامياً خالصاً فى الوقت الذى أتاح فيه كل الفرص الممكنة لتجار المستأمنين الفرنج كيما يحققوا جميع مشروعاتهم التجارية فى موانى مصر المفتوحة أمامهم على ساحل البحر المتوسط ؛ إذ كان صلاح الدين على يقين أيضاً بأن هؤلاء الغربيين ضرورة هامة من ضرورات توسع التجارة المصرية ونماء أسواقها ومكانتها ؛ وما يترتب على ذلك من رخاء لشعبه وتضخم مطرد لخزائنه هما أهم معول لتفوق مصر وتوكيد مكانتها الدولية . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى كان صلاح الدين فى موقفه هذا إنما يستجيب للتطور التاريخى والتجارى فى حوض البحر المتوسط الذى سيطرت عليه تلك القوى البحرية الأوربية الجديدة وعلى رأسها البنادقية وجنوه وبيزا ومرسيليا وبرشلونة وغيرها .

فظروف مصر إذاً وتوجيه العصر هى التى خلقت تلك السياسة التجارية التى لم تعرفها مصر فى العصر البطلمى أو الرومانى أو البيزنطى القبطى . فلم يكن

---

(١) Heyd : Histoire du commerce du Levant au Moyen Ages vol. I pp. 392-3

هناك فى تلك العصور جميعاً أى اتجاه يرمى الى الحيلولة ، دون وصول تاجر البحر المتوسط إلى البحر الأحمر . كما أن مصر الإسلامية قبل الحركة الصليبية لم تحل دون تغلغل التاجر البيزنطى أو التاجر الراذانى « اليهودى » فى أرضها والوصول إلى البحر الأحمر (١) .

ولصلاح الدين وأسرته دور خاص فى تاريخ طائفة الكارمية . فعلى الرغم من ندرة المعلومات عنهم فى تلك الفترة من تاريخهم إلا أن دولة الأيوبيين وسياسة صلاح الدين هى التى حددت مستقبلهم — ويكفى دليلا على ذلك أن تلك السياسة قد تركت لهم الميدان خالياً لينهضوا بالمشروعات التجارية الكبرى بين الشرق والغرب فى البحر الأحمر وفى مصر وفى الموانى المصرية على البحر المتوسط حيث يهبط التاجر الغربى ليشترى سلع الشرق منهم . فلا غرو إذا قامت علاقاتهم بمصر الأيوبية على الثقة والتعاون التامين فى سبيل مستقبل تجارى زاهر . وليس فى هذه الحقيقة شىء من الغرابة إذا عرفنا أن أكبر محن هؤلاء الكارمية وأهم مرحلة حاسمة فى حياتهم إنما كانت فى عهد الدولة الأيوبية بعامة وفى عهد صلاح الدين بخاصة . والكارمية كتجار كبار متمرسين أدركوا أهمية عهد صلاح الدين فى تقرير مصيرهم بعد أن أحسوا خطر الفرنج وأطماعهم التجارية فى الشرق الإسلامى بوجه خاص وفى مصر والبحر الأحمر على الأخص . ولعل أكبر محنة امتحن بها الكارمية فى عهد الدولة الأيوبية إنما كانت فى عصر صلاح الدين نفسه ؛ وهى محاولات الصليبيين وحملاتهم على البحر الأحمر والطريق المؤدى إليه . ولا شك أن أهم هذه المحاولات (٢) هى المحاولة التى قام بها البرنس أرناط صاحب الكرك (٥٧٧ هـ / ١١٨١ م — ٥٧٨ هـ/ ١١٨٢ م) (٣) ،

---

(١) ابن خرداذبه — كتاب المسالك والممالك ص ١٣٥ — ١٥٤ وابن الفقيه — مختصر كتاب البلدان ص ٢٧٠ — ٢٧١ والمقدسى — أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٩٩ وابن المقفع — تاريخ بطاركة الإسكندرية ج ٢ ص ٧٨ .

(٢) أبو شامة — كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ج ١ ص ١٩١ وابن الجوزى — مرآة الزمان ج ٩ ص ٦٠٤ وابن واصل — مفرج الكروب ج ١ ص ٣١ و ٦٢ وابن أيبك — درر التيجان ج ٤ ص ٣٦٩ وابن قاضى شهبه كتاب الدر الثمين فى سيرة نور الدين ص ١٩١ .

(٣) ابو شامه — نفس المرجع ج ٢ ص ٣٥ و ٣٦ وج ١ ص ٢٤٢ وابن واصل — نفس

وباءت بالفشل نتيجة لجهود صلاح الدين الحاسمة فى استئصال الفرنج من البحر الأحمر والقضاء على خطرهم عليه. وما أوضح ما خاطب به صلاح الدين الخليفة العباسي فى تصميمه وعزمه على إقرار النفوذ التجارى الإسلامى فى البحر الأحمر فى أيدى الكارمية حين قال إن انتصار الأسطول الصليبى « القاصد سواحل الحجاز واليمن » معناه أن « يمنع طريق الحاج عن حجه . . . ويأخذ تجار اليمن وكارم عدن، ويلم بسواحل الحجاز »[1] . ولم يقم الصليبيون بعد ذلك بمحاولة للوصول إلى البحر الأحمر عن طريق مصر والشام بعد فشلهم الذريع الذى منوا به فى تلك المحاولات وبعد أن طردهم صلاح الدين من الكرك ومن مصر من قبل وتمكن فى النهاية من حصر أهم نشاط لهم على شريط ضيق على ساحل الشام كما حدد نشاطهم التجارى على موانى مصرية معينة على البحر المتوسط .

والدولة الأيوبية كانت حريصة مخلصة فى توكيد نفوذ الكارمية فى البحر الأحمر وفى تشجيعهم على التوسع فى مشروعاتهم التجارية وتحقيق ما يصبون اليه من وراء كفاحهم الاقتصادى فيصبحون أهم طبقة تجارية فى الإمبراطورية المصرية . كما أن الكارمية من ناحيتهم يعون هذا الاتجاه من جانب الدولة ويقدرونه حق قدره ويسهمون لأجل ذلك فى الإبقاء على فتوتها وقوتها . حدث فى سنة ٥٧٧ هـ (سنة ١١٨١ م) — وهى نفس السنة التى هاجم فيها الفرنج عيذاب والتجار فى البحر الأحمر — أن وصل تجار الكارم من عدن إلى عيذاب فحصل منهم صلاح الدين « زكاة أربع سنين »[2] . وأن يطالبهم صلاح الدين بتلك الضرائب دفعة واحدة وأن يقوم هؤلاء الكارمية بالوفاء بها دون احتجاج أو تذمر إنما يدل أولا على طاقتهم المالية ، ثانياً على تقديرهم السليم لمصالحهم التجارية ، وبخاصة توطيد أقدامهم فى ميدان التجارة المصرية فى تلك

المرجع ج ١ ص ٧٥ وابن الجوزى – نفس المرجع نشر (Jewett) ص ٢٣٥ – ٢٣٦ والذهبى – دول الإسلام ص ٦٦ وابن أيبك – نفس المرجع ج ٤ ص ٣٧٤ والمقريزى – السلوك ج ١ ص ٧٩ والصفدى – الوافى بالوفيات ج ٥ ص ٦٤٨ والعينى – عقد الجمان المجلد ٥١ ص ٦٤٧ – ٦٤٨ والقلقشندى – صبح الأعشى ج ١٣ ص ٨٥ –٨٦ وج ٣ ص ٣٩٢ .

(١) أبوشامة – نفس المرجع ج ٢ ص ٣٦ و ٣٧ وابن شداد – سيرة صلاح الدين ص ٣٧ .

(٢) المقريزى – السلوك ج ١ ص ٧٣ – ٧٤ .

المرحلة . وليس غريباً أن يؤدى الكارمية زكاة أموالهم عن طيب خاطر للسلطان الذى يرعى مصالحهم ويسهر على توطيد مركزهم الاقتصادى بين الشرق والغرب بل ويذود عن هذا المركز فى نفس تلك السنة ليقضى على أكبر محاولة أقام بها الصليبيون للتوسع فى البحر الأحمر . وفى سنة ٥٧٩ هـ (سنة ١١٨٣ م) أى فى السنة التالية لانتصار صلاح الدين على حملة البرنس أرناط فى البحر الأحمر تولى تقى الدين عمر بن أخى صلاح الدين حكم مصر نيابة عنه[١] . وهذا الحاكم هو الذى بنى للكارم فندقهم العظيم فى الفسطاط على شاطئ النيل حيث ترسو مراكبهم المحملة بسلع الشرق وأهمها التوابل . وقد أوقف هذا الفندق على « سكن الكارم »[٢] . وبذلك يستقر نشاط هذه الطائفة لأول مرة فى داخل الأراضى المصرية بل وفى قلب مصر ، ومن فندق موقوف على جهودهم التجارية . وبعد ذلك كان طبيعياً أن ينتظم نشاطهم فى مصر وأن تعدلهم الفنادق أو يبنوها لاستقبالهم واستقرارهم فى قوص والإسكندرية خاصة[٣] — والفندق هو قمة ما وصلت إليه طاقة المشروعات التجارية فى مصر الأيوبية والمملوكية وذروة ما وصل إليه اجتهاد القوامين على التجارة حكومة وتجاراً .

وقد كانت هذه الطائفة القوية المتماسكة من التجار المسلمين كما تدل المصادر المعاصرة . ومن أراد أن يصبح منهم كان عليه أن يدخل الإسلام وأن يستقر فيه . ولم يوجد فى صفوفهم يهودى واحد[٤] ؛ وإن قبلوا اليهودى الذى يسلم ويظل على إسلامه . وبذلك ضم هؤلاء الكارمية إلى خبرة التاجر المسلم خبرة التاجر اليهودى الذى يسلم ويتوارث أبناؤه تجارة الكارمية صناعة والإسلام ديناً .

---

(١) أبو شامه — الروضتين فى أخبار الدولتين ج ٢ ص ٥١ .

(٢) ابن دقماق — الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٤ ص ٤٠ و ٣٥ .

(٣) راجع النويرى — نهاية الأرب مخطوط رقم ٥٥١ معارف عامة المجلد ٢٧ ص ٢١ — ٢٢ .

(٤) انظر ما قاله Strauss : History of the Jews in Egypt p. 197

وراجع أيضاً ترجمه التاجر الكارمى الذى كان يهودياً ثم أسلم فى السلوك ج ٢ ص ١٣٣ والنويرى — نهاية الأرب مخطوط رقم ٥٩٢ معارف عامة ج ٤ ص٦٢ وابن حجر — الدرر الكامنة ج ٢ ص٣٨٣ ، ٣٨٤ وابن تغرى بردى — النجوم ج ٩ ص ٢٢٩ والمنهل الصافى ج ٢ ص ٤٥٧ والعينى — نفس المرجع المجلد ٦١ ص ٢٠ — ٢١ .

هذا فضلا عن تجربة التاجر العباسى المسلم الذى استوطن مصر بعد الانحلال الذى أصاب قلب الدولة العباسية .

ولعل أول سؤال يتبادر إلى الذهن بعد ذلك يهدف إلى معرفة السبب فى تمسك هؤلاء التجار بالإسلام أساساً لوحدتهم وعصبتهم ، وأعمق تقليد لبقائهم . لقد بدأ التاجر الكارمى نشاطه فى البحر الأحمر فى العصر الفاطمى فى الوقت الذى تمتع فيه اليهود بالنفوذ التجارى الكبير فى داخل مصر ؛ ومما يجدر تفهمه من وجهة النظر الاقتصادية أن ارتباط المسلمين والقبط بالأرض والزراعة ، والإدارة المالية قد أتاح الفرصة لارتفاع أهمية اليهود فى التجارة المصرية . كما نلحظ أيضاً أن احتفاظ التاجر الكارمى أو المسلم بنشاطه الممتاز فى البحر الأحمر له أصوله الشرعية : فالذمى ، وإن لم يمنع من السفر فى البحر الأحمر أو فى بحر الحجاز إلا أنه قد حرم — قانوناً — من حق الإقامة فيه او من مناطق منه على الأقل. وسجل ابن بطوطة كذلك أن تجار نصارى الشام لم يكونوا يتعدون قرية الفلا — جنوبى تبوك— جنوباً [١] وإذا دلت المصادر على أن الذمى قد ولج البحر الأحمر فمثل ذلك الحق الشرعى من شأنه أن يذكى التنافس الاقتصادى فى الوقت الذى يرى فيه الكارمى التاجر اليهودى محتفظاً بالمكانة الأولى فى تجارة مصر الفاطمية . أضف إلى هذا كله أن الأساس الدينى للمجتمع الوسيط كان كفيلا بأن يبلور حول الدين كل مظاهر النشاط فى المجتمع الإسلامى أو المسيحى أو اليهودى ، وأن يصبغه بصبغته. وأخيراً ، وليس آخراً ، لا يخفى أثر الأحداث الخطيرة التى مرت بها مصر والعالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشرم) فى ربط هؤلاء الكارمية برباط وثيق حول دينهم وتجارتهم . لقد تآزر هؤلاء الكارمية لمواجهة أخطار القراصنة ضمن ما واجهوا من أخطار . وليس يخفى أن آمال الصليبيين كادت تطيح بمكانتهم التجارية فى البحر الأحمر — فنوايا الفرنج وأغراضهم التجارية فى البحر الأحمر قد اتضحت منذ ثبتت أقدامهم فى بلاد الشام ، فاتجهوا إلى الوصول إلى مراكز التجارة فيه وتهديد القوامين على نشاطه التجارى . فكان رد

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

الفعل الطبيعى ، هذا التكافل والتساند الطائفى تدعمه وحدة الدين التى كانت أهم مميزات الطائفة الواحدة فى كل كفاح اقتصادى فى ذلك العصر . وقد تسلحت طائفة الكارمية بهذه العناصر كلها ؛ فلم يوجد بين صفوفها يهودى واحد . ولا شك أن اهتمام اليهودى بالتجارة — اهتمامه بوجوده وبقائه — كان له أثره القوى فى الصراع وفى رد الفعل . فاهتم هؤلاء الكارمية بأمر وحدتهم ، كما اهتموا بصبغتهم الإسلامية محافظة على كيانهم وخشية انتشار النفوذ اليهودى الذى قد يؤدى إلى ذبول مكانتهم التجارية ، واليهود أوسع حيلة وأمهر صناعة فى المجال التجارى . فلكل هذه العوامل والظروف كان لا بد أن ينتج تفاعل خلاصته تحزب تجار البحر الأحمر حول دينهم وتجارتهم وثقافتهم الإسلامية كأساس لبقائهم وبدء كفاحهم واستمرار تقدمهم ونشر نفوذهم التجارى والاقتصادى من البحر الأحمر ثم فى مصر ثم فى الإمبراطورية المصرية وما وراءها .

وجدير بالملاحظة أن اضمحلال مكانة اليهود التجارية فى البحر المتوسط ، بعد أن غلب الفرنج وتجار المدن المسيحية فى لجة ، قد عاونت على ضعف أثرهم فى الدورة التجارية بين مصر والشرق والغرب . وساعد على ذلك أيضاً طبيعة جهود الكارمى نفسها . فالتاجر اليهودى فى الشرق أو التاجر الراذانى بين الشرق والغرب قد تاجر قبل العصر الكارمى فى سلع الشرق إلا أنه صب نشاطه فى سلع لا تتصل بصميم حاجات الشعوب فى الاستهلاك والمطالب المادية العامة ؛ فهم قد تاجروا فى المعادن النفيسة والجواهر والتحف [١] والطرف مما يعاون على تقدير القول بأن الفلفل كان يحل فى أوربا محل النقود فى التداول . ومعنى ذلك أنهم كانوا تجار الطبقة الأرستقراطية . أما التاجر الكارمى فهو تاجر التوابل وسلع الشرق أساساً — تلك السلع التى اصبحت أهم تجارة لمصر مع الغرب فى العصرين الأيوبى والمملوكى [٢] نتيجة لازدياد سكان أوربا ولحركة التعمير الكبيرة التى وقعت فى تلك القارة فى القرن الثانى عشر م ، ونتيجة للنشاط البحرى الفائق بين مصر والغرب وقتذاك .

---

(١) ابن خرداذبه — نفس المرجع السابق ونفس الصفحة .

(٢) Pierenne : op. cit. p. 143

فلأول مرة فى تاريخ مصر الإسلامية تسيطر على التجارة المصرية هيئة إسلامية خالصة تتحكم فى الوقت نفسه فى أهم تجارة عالمية وقتذاك وهى تجارة التوابل وسلع الشرق التى كانت مصر سوقها الكبرى والإسكندرية ودمياط مركزى تصديرها المشهورين فى العالم الوسيط كله . وجاء ذلك نتيجة للسياسة التى وضعها صلاح الدين وأخلص فى التمسك بها سلاطين الأيوبيين والمماليك من بعده : فهم لم يتزحزحوا عنها قيد انملة وبذلوا فى سبيل الكفاح عنها التضحيات الجسيمة من جهد ورجال ومال . وهكذا ينتصر توجيه العصر الدينى فى مجال خطير من مجالات الحياة المادية سواء فى مصر أم فى الغرب . فكما تكونت على يد الكارمى أهم قوة موجهة فى الطبقة الوسطى من البحر الأحمر ومصر ، تكونت على يد التاجر المسيحى الغربى الكبير أهم قوة موجهة فى الطبقة الوسطى فى البحر المتوسط والغرب

وقد ظل الكارمية فى مصروالبحر الأحمر قوياً نامياً ، ولم يبد فى الجو السياسى أو الاقتصادى ما يهددهم أو يثيرهم على الدولة وهى ترعى مصالحهم ولا تعتدى على كيانهم الاقتصادى بل وتدافع عنه وتتمسك به . ومن أهم ما يدل على ذلك أنه لم تقم لهم ثورة تنبىء عن فقدان التوازن بين الطبقة الوسطى والأقطاع فى مصر . أما فى البحر الأحمر فلم يقم الغرب بمحاولة حربية للتغلغل فيه بعد ذلك الفشل الذريع الذى منى به فى عصر صلاح الدين ويعتبر فريد ذلك النص الذى كتبه متى الباريسى ذاكراً أن العلاقات الطيبة بين مصر والإمبراطور فردريك الثانى بلغت حداً من الوثاقة مكنته من المشاركة فى نشاط السلطان الأيوبى التجارى فى الشرق — وقد كان جميع ملوكه من أصدقائه — فأرسل مندوبيه التجار إلى هذه البلاد براً وبحراً . وغنى عن البيان أن جميع القرائن التاريخية تدل على أن هذا القول غير صحيح . وربما كان أول سبب لذلك أن مصر لم تكن آنذاك من الضعف بحيث تقبل المساومة فى خطتها التجارية التقليدية الدقيقة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، ثم إن روايات متى الباريسى عن مصر والشرق لا تتسم دائماً بطابع الدقة أو الصحة ، هذا فضلا عن غموض النص الذى لا يوضح أى تجار حملوا إلى فردريك سلع الشرق واشتغلوا لحسابه . كما أن تلك الهدية العظيمة التى بعث بها الكامل إلى الامبراطور بما فيها من سلع وتحف من الهند واليمن والعراق والشام

ومصر والعجم كانت كفيلة بأن تثير خيال الكتاب نحو هدف أوربا التجارى فى الوصول إلى مراكز إنتاج سلع الشرق . فكان هذا الإسراف الذى اتسمت به رواية متى الباريسى [١] . ومعنى ذلك كله أنه مهما قامت العلاقات الودية بين مصر والغرب كما حدث فى عهد الإمبراطور فردريك الثانى ، فمصر قد ظلت مستمرة على سياستها التجارية بين الشرق والغرب فى ذلك العصر . وإذا تتبعنا العلاقات التجارية ودرسنا المعاهدات المختلفة التى أبرمت بين مصر ودول الغرب التجارية لاتضحت لنا هذه الحقيقة بكل جلاء .

وإذا انتقلنا بعد ذلك إلى دراسة موقف الحكومات المصرية المتعاقبة فى عهد المماليك من طائفة الكارمية لوضح لنا بجلاء استقرار السياسة التجارية المصرية واستمرار تقاليدها التى تهدف إلى المحافظة على مكانتهم من ناحية ومن ناحية أخرى تدل على نجاح هؤلاء الكارمية وتوفيقهم فى مهمتهم الاقتصادية فى البحر الأحمر ومصر حتى أصبحوا فى «عدة وافرة» [٢] كما أصبح عددهم كبير جداً [٣] والواقع أن البحر الأحمر لم يحظ فى تاريخه الطويل خلال القرون الوسطى من النشاط التجارى بمثل ما حظى به على يد هؤلاء التجار الكارمية . ولكن هذا الكفاح التجارى قد مر بفترة حرجة دقيقة هى فترة انتقال الملك من دولة الأيوبيين إلى مماليكهم فى مصر . فلقد سجلت سنة ٦٦٠هـ (١٢٦٢) م أكبر أزمة لسياسة مصر التجارية فى البحر الأحمر ولمكانة الكارمية فى التجارة العالمية ؛ وذلك نتيجة للظروف الدقيقة التى مرت بها مصر فى نهاية العصر الأيوبى وبداية العصر المملوكى . فاتجاه الصليبيين إلى غزو مصر وإنقاذ حملة القديس لويس إلى أراضيها ، يليها غارة المغول على الإمبراطورية المصرية فى حملة هولاكو ، وثورة العرب فى داخل مصر نفسها ، وكذلك التجاء المظفر قطز إلى العسف وإرهاق العامة بطبقاتهم من مختلف الحرف والصناعات بما جمع منهم من مال بلغ أحياناً ثلث ثرواتهم [٤] —

---

(١) Matthew Paris English history vol. II p. 427, Heyd : op. cit. vol. I pp. 408-409.

(٢) المقريزى — السلوك جـ ٢ ص ١٠٣ .

(٣) ابن حجر — الدرر الكامنة جـ ٣ ص ٢٥٨ .

(٤) المقريزى — نفس المرجع جـ ١ ص ٤٣٧ — ٤٣٨ .

كل ذلك كان لا بد أن يفرض على التجارة المصرية مخاطره . ولذلك كان طبيعياً أن يفكر الكارمية فى أمرهم ومستقبلهم فى هذه الظروف الجديدة . ورأوا أن المحافظة على مصالحهم تقضى بعدم السفر إلى مصر محتفظين بمراكزهم التجارية الكبرى فى اليمن والبحر الأحمر فحسب . وجلى أن الموقف التجارى كان فى حاجة إلى رجل فى حزم الظاهر بيبرس وثاقب رأيه لكى يدعم الأسس التى قامت عليها سياسة مصر تجاه الكارمية من توفير العدل والأمن اللازمين لبقائهم وتفوقهم . وقد أفلح فى إقرار الأمن والثقة ونشر العدالة فى إمبراطوريته . وسرعان ما وصلت إلى الكارمية وغيرهم من التجار فى البحر الأحمر أخبار عدل السلطان الجديد وإنصافه وحسن سمعته ، فتوافدوا على مصر أفواجاً بعد أفواج . لقد وقفوا موقفهم السلبى منتظرين وجلين إلى أن استبانت لهم خطة الظاهر بيبرس الذى لم يكتف بإقرار الأمن والعدل فى ربوع مصر وإبطال ما فرضه المظفر قطز من مكس [١]. بل أرسل أيضاً فى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) إلى ولاته فى قوص وعيذاب يوصى بالتجار الوافدين وبالمحافظة على مصالحهم . فلا غرو إذ قال ابن واصل إنهم كانوا قد سافروا إلى اليمن وعزموا على الإقامة وترك السفر » [٢] إلى مصر ثم رجعوا عن رأيهم بل وسافروا إلى عيذاب فى غير أوان السفر . وقاموا سنة ٦٦٠ هـ (سنة ١٢٦٢ م) برحلتين تجاريتين بدلا من واحدة — كما كانت العادة — و « هذا ما لا يسمع بمثله » [٣] . ولم يتعرض أحد لشىء من أموالهم « ولا عقال بعير » [٤] إلا بالحق .

ولم تكن تلك المواقف الحاسمة التى وقفها الظاهر بيبرس إلا دعماً واستمراراً للتقاليد التجارية الأيوبية التى استخلف عليها المماليك حين استخلفوا على حكم

(١) المقريزى — نفس المرجع ونفس الجزء ص ٤٣٧ .

(٢) ابن واصل — مفرج الكروب ج ٢ ص ٤٠٢ .

(٣) ابن واصل — نفس المرجع ونفس الجزء والصفحة

(٤) ابن واصل — نفس المرجع ونفس الجزء والصفحة . وجدير بالملاحظة أن أهمية عيذاب أخذت فى الانحدار بعد سنة ٦٦٠ هـ وبدأ ميناءى الطور من السويس يحتلان محلها وأخذت قوافل الكارمية البحرية تتجه من عدن إلى الطور أو السويس ثم تنقل قوافلهم البرية حمولات تلك السفن عبر طورسينا والشرقية إلى القاهرة ومنها بالنيل أو بالبر إلى الإسكندرية ودمياط .

مصر وإمبراطوريتها . ولم يكن امتداد نفوذ مصر التجارى فى المحيط الهندى وتنميته على يد هؤلاء الكارمية إلاتطوراً طبيعياً لاستقراره فى البحر الأحمر وللكفاح التجارى الناجح الذى حققته طائفتهم. فلقد وضعت مصر جواز مرور لتوسيع نشاطها التجارى حتى بلاد الصين. هذا الجواز الذى قال عنه نيكولو دى كونتى بعد مغامرته الفريدة فى البحر الأحمر أنه سبيل المسافر أو التاجر من تلك المنطقة التى تسيطر عليها مصر [1] . وفى الواقع بعد ذلك الجواز تقريراً خطيراً عن السياسة التجارية التى رسمتها مصر فى البحر الأحمر والمحيط الهندى للتوسع فى استجلاب سلع الشرق والرقيق ، ويلقى ضوءاً باهراً على قدرتها فى تصريف ما يرد إليها من سلع الشرق فى حوض البحر المتوسط .

واستقرار السلم والأمن بين ربوع البحر الأحمر وموانيه له أجل أثر فى انتظام جهود تجاره فيه؛ ولكن تجار البحر الأحمر – شأن غيرهم من تجار العالم فى ذلك الوقت – كانوا يواجهون خطر القراصنة الذين يسيئون إلى الحياة التجارية فيه إساءة بالغة . إن الشوانى المصرية المسلحة كانت تحمى سفن الكارمية فى البحر الأحمر من شر غارات القراصنة ، وتعمل على تطهيره منهم منذ عهد الدولة الفاطمية . كما وصلت سفن مصر إلى اليمن حاملة الجند والعتاد لإقرار الحكم الأيوبى فيها. وما أن أتم ذلك الأسطول مهمته حتى اتجهت الحكومة إلى الاستفادة منه فى حراسة السفن التجارية بين الهند واليمن « من سطوة السراق » [2] . وليس يخفى أثر ذلك فى تأمين الأرواح والأموال وتوسيع الصلات البحرية التجارية بين مراكز جلب التجارة فى الشرق ومراكز تصريفها فى مصر. وكما توفر الأمن فى البحر الأحمر توفر فى الطريق بين موانى مصر على ذلك البحر وبين النيل وواديه . ويقدم لنا ابن جبير صورة طيبة عن أمن الطريق بين عيذاب وقوص – وهى أشق مراحل الطريق فى مصر بين البحر الأحمر والإسكندرية ودمياط حتى

---

(١) راجع تفاصيل هذه المغامرة كما ذكرها بيرو كافور على لسان نيكولو نفسه فى :
Pero Tafur: Travels and Adventures pp. 84-86. pp214 A .S. Atiya: The Crusades in later middle Ages

(٢) تاريخ ابن المجاور ج ٢ ص ١١٦ .

قال إن أحمال التجار من القرفة والفلفل وغيرها من التوابل تترك ملقاة بها والقوافل صاعدة وهابطة لا يتعرض لها أحد إلى أن يأخذها صاحبها ! [١]

ولقد كان للكارمية محطاتهم التجارية الكبرى فى عدن وتعز وزبيد[٢]. وفى غلافئة شيدوا فنادقهم العظيمة التى ينظمون فيها شئونهم الاقتصادية . وكذلك كانت بئر الرباحية — مستقى أهل غلافئة — فرضة الكارم إذا ما وصلوا من الديار المصرية [٣] . ومن عيذاب والطور والسويس تبدأ رحلات قوافلهم بين البحر الأحمر وقوص والقاهرة والإسكندرية ودمياط . كما كان موسم الحج فرصة نادرة لتكتل متاجرهم فى جدة ومكة حيث تصل أفواج الحجاج والتجار من بلدان الإسلام المختلفة ، وحيث تعقد الصفقات التجارية الكبيرة . ومما يدل على ذلك أن السلطان المملوكى الأشرف شعبان ألغى جميع المكوس المفروضة على المتاجر التى يحملها الحجاج إلى مكة ولكنه استثنى منهم « تجار الكارم وتجار الهند وتجار العراق »[٤] الذين يعتبرون مكة من أهم مراكزهم للاستثمار والاتجار على أوسع نطاق . وقد ذكر ابن سعيد — الجغرافى العربى الذى عاش فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر م) — أن سواكن كان لها نشاط التجارى المرموق ، وأن ملكها من البجة المسلمين ، وأن له ضرائب على مراكب الكارمية المارة بين الحجاز واليمن وعيذاب[٥] . أما زيلغ فكانت أهم ميناء عل الطراز الإسلامى للحبشة تتجمع فيه سلع تلك المنطقة التى يحملها الكارمى إلى مصر فيما يحمل من متاجر الشرق والبحر الأحمر . كما كانت دهلك من موانى الكارمية المعروفة بين

---

(١) رحلة ابن جبير ص ٦٦ — ٦٨ . راجع أيضاً خطط المقريزى ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) أبو مخرمة — تاريخ ثغر عدن ج ١ ص ٥٤ و ٦٨ وج٢ ص ١٣٨ والبحار الجندى — كتاب السلوك فى طبقات العلماء والملوك ج ٢ ص ٣١٧ وتاريخ ابن المجاور ج ١ ص ١٠٩ وابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة (كاليفورينا) ج ٥ ص ١١٧ (ودار الكتب) ج ١٠ ص ٥٦٤ والمقريزى — السلوك ج ٢ ص ٩٣٠ .

(٣) تاريخ ابن المجاور ج ٢ ص ١٩٢ .

(٤) الفاسى — شفاء الغرام ص ٢٨٥ ودرر الفرائد ص ٣٠١ .

(٥) Y. Kamal (Ed.) : Monumenta Cartographica Africae et Aegyptie. Tome IV fasc. I p. 1084

المحيط الهندى ومصر .

وقد كان طبيعياً أن يدرك الكارمية أهمية اليمن فى رحلاتهم التجارية بين بحر الهند وبحر الروم . وكما استطاعوا أن يدعموا نفوذهم التجارى والاجتماعى ومكانتهم الرفيعة فى مصر وتمكنوا من الوصول إلى أعلى المناصب فى حكومة اليمن . فلا غرابة أن يستوزر صاحب اليمن التاجر الكارمى يحيى بن عبد الله بن محمد بن مسند الذى كانت له الحظوة عند الناصر محمد أيضاً [١] . فالكارمية لم يكن لهم أهميتهم فى العلاقات التجارية بين مصر واليمن فحسب بل عملوا على إبقاء الصلات الطيبة بين البلدين وذلك إبقاء على ازدهار تجارتهم وتدعيم مكانتهم . وكذلك كانت مصر ترعى مصالح هؤلاء الكارمية فى اليمن وفى غيرها من مراكز تجاراتهم فى البحر الأحمر . فحمتهم من شر ملوك اليمن إذا ما ارهقوهم بالضرائب والمكوس : شكا عدة من التجار الكارمية وبخاصة الوافدين منهم فى الصين إلى السلطان الناصر محمد من تصرفات الملك المؤيد صاحب اليمن إزاءهم سنة ٧٠٤ هـ (سنة ١٣٠٤م وإرهاقه إياهم بالمكوس ؛ وكان فى الوقت نفسه قد قطع الهدية التى يرسلها إلى مصر — ومبلغها ستة آلاف دينار [٢] فأرسل له السلطان رسالة يهدده ويحمله عاقبة سوء تصرفه . ولكن التهديد لم يحل الأزمة إذ أرسل ملك اليمن هديته إلى مصر وصلت سنة ٧٠٥ هـ (سنة ١٣٠٥ م) فوجدت « أقل من العادة » كما أمعن فى ظلمه للتجار المصريين فنهب أموالهم مما أساء إلى العلاقات بين البلدين . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل لقد أرسل صاحب اليمن الأموال إلى مكة ليغرى أهلها بالثورة ضد مصر وبتقديم اسمه على اسم السلطان المملوكى فى الخطبة فصمم الناصر على إرسال حملة على اليمن ، بيد أن الكارمية ابتهلوا إليه أن يلجأ إلى الحلول السلمية ، فوافق على أن يبعث الخليفة المستكفى رسالة إلى المؤيد ينذره فيها ويحذره مما أقدم على عمله [٣] ، فعدل ملك اليمن موقفه متوخياً إصلاح علاقاته

---

(١) ابن حجر — الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٤١٩ . راجع أيضاً أبو مخرمة — نفس المرجع جـ ٢ ص ١٣٧ — ١٣٨ .

(٢) المقريزى — السلوك جـ ٢ ص ٧ والعينى — عقد الجمان المجلد ٥٨ ص ٣٢٩ — ٣٤٠ .

(٣) راجع نص كتاب الخليفة كاملا فى صبح الأعشى جـ ٦ ص ٤٢٢ — ٤٢٦ .

بمصر وبالتجار الكارمية [١] .

وقد كان فى اهتمام مصر بإقرار الأمن فى الحجاز وبتوفير المساعدات اللازمة لأهله حتى لا يضطر أمراؤها إلى الإفراط فى فرض المكوس أو الإساءة إلى موسم التجارة فى فترة الحج ، أثره الطيب فى استقرار نشاط الكارمية فى الحجاز الذى تهبط إليه قوافل التجار بين مصر والمغرب وبلاد التكرور ومن الشام والعراق وخراسان وما حواليها ومن اليمن وجنوب شبه الجزيرة وأرض الحبشة والهند وغيرها .

وفضلا عن رعاية مصر لشئون الكارمية الوافدين على الحجاز ، سهرت على مصالحهم فى موانى البحر الأحمر وبلاده المختلفة : فعملت على نشر العدل فى ربوعه حتى تحفظ لكل كارمى حياته ومصالحه . وطالما حسم سلاطين مصر فى حل مشاكل الكارمية والتخلص مما يقابلهم من عراقيل لا يسهل عليهم دفعها . وطالما عرضت على دار العدل بالقاهرة مشاكل التجار الكبرى فى الإمبراطورية المصرية . ومن أهم قضايا الكارمية التى عولجت فى دار العدل شكواهم التى تقدموا بها سنة ٦٦٢ هـ و سنة ١٢٦٣ م) فى حق صاحب سواكن وصاحب دهلك وخلاصتها أنهما يتعرضان لأموال من يموت من التجار فى بلادهم ، فأوفد إليهما السلطان الظاهر بيبرس رسولا ينكر عليهما ذلك[٢] ؛ بيد أن الإنذار وحده لم يكن كافياً لردعهما ولذلك فقد أرسل تجريدة سواكن (سنة ٦٦٤ هـ ١٢٦٤ م) أعادت الأمور إلى نصابها وأخضعت سواكن لحكم مصر[٣] ، وظهرت نتيجة ذلك واضحة سنة ٦٦٥ هـ (سنة ١٢٦٦ م) حين استخرج السلطان الزكاة من جميع أنحاء إمبراطوريته وكانت سواكن من بينها [٤] . بل لقد وقعت واقعة بين

---

(١) أبو الفدا — المختصر من أخبار البشر ج ٤ ص ٥٤ والخزرجى — العقود اللؤلؤية ج ١ ص ٣٧٣ وتاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ والنويرى — نهاية الأرب مخطوط رقم ٥٩٢ معارف عامة (دار الكتب) ج ٤ ص ٢٦ المقريزى — السلوك ج ٢ ص ٣٢ — ٣٣ ، ٣٨ وابن تغرى بردى — النجوم (دار الكتب) ج ٨ ص ٢٢٦ وابن إياس — بدائع الزهور (بولاق) ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) المقريزى — نفس المرجع ج ١ ص ٥٠٦ .

(٣) المقريزى — نفس المرجع ونفس الجزء ص ٥٥٠ .

(٤) المقريزى — نفس المرجع ونفس الجزء ص ٥٥٨ .

القبائل النازلة فى صحراء عيذاب فكتب المنصور قلاوون سنة ٦٨٠ ﻫ (سنة ١٢٨١م) إلى صاحب سواكن يأمره بالعمل على التوفيق بينها « خوفاً على فساد الطريق »[١] أما صاحب دهلك فصار يرسل الهدايا إلى سلاطين مصر توطيداً للمودة ورداً لعادية الدولة الرسولية باليمن [٢] .

ومن يدرس تاريخ البحر الأحمر فى عصر المماليك ويبحث عن الجهود التى بذلتها مصر وقتذاك فى سبيل المحافظة على مكانتها التجارية فى العالم الوسيط وعلى نمو مشروعات الكارمى التجارية لا يستطيع أن يغفل تلك الحملة التى أعدها الناصر محمد لتطهير الصحراء العربية « وبرية عيذاب » من شر قطاع الطرق واعتدائهم على التجار المسافرين . فقد كانت أكبر حملة عرفها العصر الوسيط للقيام بتلك المهمة فى تلك المنطقة النائية . وكان سبب الحملة أن العربان ببرية عيذاب قطعوا الطريق على رسول اليمن القادم إلى الأبواب السلطانية وسلبوه ما كان يحمل من الهدايا ، كما نهبوا ما كان يحمل التجار الوافدون على مصر فى نفس تلك القافلة . ولما لم تفلح محاولات قائد تلك الحملة فى الاتفاق مع العربان الذين سلبوا رسول اليمن من التجار لأن والى قوص اعتقل كبيرهم رهينة لضمان استقرار الأمن فى المنطقة كلها — لرد ما أخذوه من الأموال ومراجعة الطاعة » سير الحملة إلى عيذاب ثم إلى سواكن التى خرج مستولين معلناً الولاء والانقياد إلى الأوامر السلطانية ، وقرر فى الوقت نفسه أن يحمل إلى الأبواب السلطانية ثمانين رأساً من الرقيق وثلاثمائة جمل وثلاثين قنطارا من العاج سنوياً[٣] .

وكما كان الكارمى أكبر موزع لمتاجر الشرق إلى الشام وأسواقها عن طريق تجارها الذين يعملون معه فى أسواق البحر الأحمر وبخاصة أسواق الحجاز فى

---

(١) المقريزى — نفس المرجع ونفس الجزء ص ٧٠٠ والخطط ج ٢ ص ٢٠٦ و ٢٠٨ .

(٢) راجع مادة دهلك Dahlak فى دائرة المعارف الإسلامية . راجع أيضاً ابن حجر — إنباء الغمر ج ١ ص ٣٥١ وتاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٣٤٢ والقلقشندى — نفس المرجع ج ٥ ص ٣٣٦ .

(٣) النويرى — نفس المرجع مخطوط رقم ٥٩٢ معارف عامة ج ٤ ص ٧٥ — ٨٠ والمقريزى السلوك ج ٢ ص ١٦٢ و

Zetersteen (Ed.) : Beitrage zur Geschichte der Mamluken-Sultane p. 166.

موسم الحج ، كان أيضاً أكبر تاجر لسلع الشرق فى مصر . ولذلك ينصح ابن الحاج المستهلك الصغير فى مصر بألا يلجأ إلى الكارمية للحصول على مطالبه منها[١] . أما علاقة الكارمى بالتاجر الغربى فتعتبر فى الواقع أخطر مراحل دورة السلعة الشرقية من مراكز إنتاجها وأسواقها الأسيوية والمصرية إلى المستهلك الأوربى . ومن المهم أن نلقى الضوء على هذه المرحلة الهامة من مشروعات الكارمى التجارية . لقد فرضت الطبيعة نفسها لتحديد مدى التجارة بين مصر والغرب . فالبحر المتوسط لا ينفتح إلا فى فترة معينة تمتد من أواسط أبريل إلى مايو ومن أواسط أكتوبر إلى أواسط نوفمبر تقريباً ،[٢] وفى خلال هذه المدة[٣] ينحصر موسم التجارة بين الكارمى والبندقى والجنوى وغيرهما من تجار الغرب . كما أن مصر تحكمت فى تجارة الشرق المارة بأرضها وكان على « البرجوازية » الغربية المتاجرة معها أن توسع مشروعاتها التجارية مع مصر فى نطاق تلك السياسة التى فرضتها وتمسكت بها . فوظفت رءوس أموالها فى مصر فى سبيل الحصول على متاجر الشرق وأهمها التوابل . وكافحت فى سبيل التغلب على جميع الصعاب والمشاق السياسية والدينية والاقتصادية التى صادفتها فى هذا الطريق . بل وأعلن أهلها صراحة أنهم تجار قبل أن يكونوا مسيحيين[٤] . ولكن البابوية المهيمنة على سياسة أوربا إلى حد كبير ، فى ذلك العصر الصليبى ، تؤجج نار العصبية الدينية ، والحكومات المصرية المتعاقبة وتحرص على استقلال مصر وعلى المحافظة على مقومات نفوذها

---

(١) ابن الحاج — المدخل ج ٣ ص ١٢٠ .

(٢) راجع رحلة ابن جبير ص ٢٠٨ — ٢٥٩ وأيضاً ابن مماتى — كتاب قوانين الدواوين ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٣) إن انحصار موسم التجارة الخارجية المصرية بمدة قد أدى إلى انتقال كلمة مدة نفسها إلى الغرب ((Muddah)) فأصبحت تؤدى معنى الموسم فى الإسكندرية أو غيرها من موانى الإمبراطورية المصرية فى عصرى الأيوبيين والمماليك . ولقد جرت الكلمة اصطلاحاً بين تجار إيطاليا وظهرت فى مراسلاتهم التجارية قارن هذا بما قاله F.C. Lane : Andrea Barbarigo, Merchant of Venice pp. 62-64 وراجع أيضاً ص ١٠٢ و ١٠٦ و ١٠٧ و ١٠٨ و ١١ و ١٤٥ و ١٧١ و ١٩٠ بنفس الكتاب .

(٤) أعلن هذا المبدأ البنادقة حين قالوا "Siams Veneziani, poi Christiani" وراجع : A.S. Atiya : op. cit. p. 114

الاقتصادى بعيداً عن خطر الغرب السياسى والاقتصادى لأنها توجس خيفة من هؤلاء الفرنج ، المحارب منهم والتاجر لما تدفعهم إليه أطماعهم من محاولات لغزو مصر والاستيلاء عليها . والواقع أن أخطر الخطط الأوربية لتهديد اقتصاديات مصر وللتغلب على سياستها التجارية التى فرضتها للتحكم فى تجارة الشرق خطتين : الأولى – المحاولات الحربية والحملات الصليبية التى تهدف إلى الاستيلاء على مصر بعد أن أيقن موجهو سياسة الحرب الصليبية أن نجاح الغرب فى الاستقرار بالأراضى المقدسة متوقف على تغلبهم على مصر . أما الخطة الثانية : فكانت نتيجة حتمية لذلك الفشل الحربى المتكرر – إذ فطن دعاة الحروب الصليبية وزعماؤها إلى أثر العامل الاقتصادى فى نجاح مصر فى البطش بحملاتهم على الشام ومصر . فلجأوا إلى وضع خطة جديدة فحواها ضرب الحصار الاقتصادى على السواحل المصرية وتحريم التجارة بين مصر والغرب والسعى إلى استغلال علاقة أوربا السلمية الجديدة مع المغول بين منتصف القرن الثالث عشر والرابع عشر للميلاد فى سبيل إحلال طريق الخليج الفارسى وطرق وسط آسيا المفتوحة أمام الغرب محل طريق البحر الأحمر المغلق فى وجه تجاره ؛ وفى ذلك تحطيم للضمانات التجارية المتينة التى تؤكد بها مصر تفوقها العسكرى والحربى ، وبهذه الخطة نفسها يمكن القضاء على الطبقة الكارمية . ولكن مشروعات الصليبيين ودعاتهم لم تكن فى هذه الناحية أيضاً عملية دقيقة ميسرة التنفيذ . وفى الوقت نفسه كانت طبقة التجار الأوربية فى البحر المتوسط قد تأكدت ، أو كادت ، من عجز هذه الخطط كلها وفطنت كذلك بعد فشل الصليبيين المتكرر إلى أن مصر قادرة على الدفاع عن حياضها وأن مكانة التاجر الكارمى أو كفاءته فى تأدية مهامه الاقتصادية دعامة قوية سليمة تؤكد كفاح الدولة وتدعم نجاحها . فليس غريباً بعد ذلك أن تسير العلاقات التجارية بين مصر ودول الغرب التجارية طوال عصرى الأيوبيين والمماليك على هذه الوتيرة : محاولات من الدول والمدن الأوربية المختلفة للحصول على امتيازات تجارية فى مصر ، وحرص مصر على استجابة مطالبها بقدر ما تبديه تلك الدول من حسن النية والرغبة الخالصة فى

التجارة أو كبت نزعات الغرب الحربية أو تحويلها بعيداً عن مصر [١] .

ولقد كشفت المعاهدات وكتب الحوليات والقصص النقاب عما كانت عليه العلائق التجارية بين المواطنين وعلى رأسهم الكارمية وبين الفرنج من سهولة ويسر وتسامح بقدر مفهوم معنى الحرية والتسامح فى العصر الوسيط [٢] . فلا غرابة إذا جمعتهم أسواق الموانى المصرية حيث يتحاجون ويتنافسون ويتاجرون بل من تجار الغرب المسيحى من ولد وعاش بالإسكندرية — مثلا — ومهما يكن من شيء فتلك الموانى أهم مجالات نشاطهم التجارى فى العالم الوسيط كله . وكذلك عقد التجار الشركات ، ليس فقط بين الوطنيين فحسب بل وبين الوطنيين والأجانب . وقد روى لنا المقريزى أمر شركة قراضة (أو مقارضة) بين تاجر كارمى وآخر فرنجى . وكان رأسمالها هو ما قدمه الكارمى ومبلغه عشرون ألف دينار ، أما استثمار المبلغ وتشغيله فيقوم به التاجر الفرنجى . وتدل رواية المقريزى عن تلك الشركة أن رأسمالها قد استخدم فى عملية مقاضة تمت بين الكارمى والفرنجى والسلطان الذى كان مديناً بمبلغ ستة عشر ألف دينار لذلك الفرنجى وذلك بأن دفع الأخير أربعة آلاف دينار للكارمى شريكه فى القراض وأحيل الكارمى على السلطان للحصول على باقى رأسماله فى الشركة وهو ستة عشر ألف دينار [٣]. وتدل هذه العمليات التجارية والمالية كلها على مدى ما وصلت إليه الثقة والأمانة وصلات العمل والاستثمار بين هؤلاء التجار من مختلف الأوطان والأديان . فلم تكن التجارة بين الفرنج والكارمية مجرد تبادل بسيط بل عمل بلغ مكانة مرموقة فى كيانهما الاقتصادى والخلق الضرورى له .

وجدير بالملاحظة أن التجار الكارمية لم يصلوا فى مصر فى أول أمرهم إلى المكانة المالية التى تؤهلهم لتشغيل أموالهم فى التجارة والمشروعات المالية الأخرى .

---

(١) المثال التقليدى فى هذا الصدد هو حملة سنة ١٢٠٤ التى كانت موجهة لغزو مصر ثم تمكنت البندقية من توجيهها للاستيلاء على القسطنطينية وحققت بذلك أهدافها التجارية لا أهداف الحملة الصليبية المقصد الأساسى للمشروع .

(٢) راجع قصة على نور الدين مع مريم الزنارية فى ألف ليلة وليلة

(٣) المقريزى — السلوك جـ ٢ ص ١٠٣ ، ١٠٤ وابن حجر — الدرر الكامنة جـ ١ — ص ٤٠٢ .

ولذلك لا نجد لهم جهوداً اقتصادية ضخمة فى مجال غير التجارة . وعندما تضخمت رءوس أموالهم وتوطدت مكانتهم فى مصر والبحر الأحمر وأصبح لهم مركز سياسى واجتماعى قد لا يقل أهمية وخطراً عن مكانتهم التجارية فى كنف الحكومة المملوكية — تجلى أثر ذلك كله فى تاريخ النقد والائتمان المصريين . فقاموا بدور خطير فى حركة النقد المصرى فى كل تلك المناطق التى عملوا فيها . كما قاموا بتسليف الدولة لتمكينها من القيام بما تحدد لهذه السلفيات والقروض من أوجه انتفاع . والأمثلة عديدة على قيامهم بإقراض الدولة عندما تحتاج إلى اللازم لحرب أو لمشروع داخلى أو غيره طوال تاريخهم [١] . وقع نهاية القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر للميلاد بلغت مكانة الكارمية الاقتصادية أوجها وفى تلك الفترة يتم أكبر قرض مالى بينهم وبين الدولة . فقد أقرض ثلاثة من طبقة الكارمية هم برهان الدين إبراهيم المحلى وشهاب الدين أحمد بن محمد بن مسلم ونور الدين على بن الخروج السلطان برقوق سنة ٧٩٦ هـ (سنة ١٣٩٦ م) ألف درهم فضة . وقد ضمن محمود الأستادار وفاء الدين . وأن يضم موظف من موظفى الدولة السلطان فى ذلك العقد إجراء له مغزاه — فهؤلاء الكارمية قد وصلوا إلى المكانة المالية والاجتماعية التى قد يتضاءل إلى جانبها مكانة السلطان نفسه — الذى قد يكون على عرشه مزعزع فكان وجود أكبر موظفى دولته فى العقد المبرم بينهم وبين السلطان ضامناً . وقد جاء هذا القرض فى الوقت الذى أخذت فيه مصر تستعد لملاقاة التتار وعلى رأسهم تيمورلنك ، وفى الوقت الذى غمرت فيه النقود الرديئة والزغل الأسواق المصرية واختفت فيه الدراهم الفضية حتى أخذت مصر تعتمد على العملات الفرنجية . وإذا كان برقوق قد اقترض من أجل استعداداته لمنازلة تيمورلنك فإن ذلك القرض نفسه له مزاياه فى تيسير التعامل ؛ وبذلك العمل كله أسهم هؤلاء الكارمية مساهمة كبرى فى حماية الدولة والإبقاء على استقرار الأحوال فيها . بل إنهم بذلك الموقف قد عدوا أنفسهم

(١) المقريزى — نفس المرجع (مخطوط رقم ٣٣٣٧ تاريخ) ج ٣ ص ٩٤٩ . وابن تغرى بردى — النجوم (دار الكتب) ج ١٠ ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

مسئولين إلى حد كبير عن بقائها . وغنى عن البيان أن خدمات الكارمية المالية الضخمة وجهودهم التجارية العظيمة قد خلفت بحق أضخم مصارف التسليف التى عرفتها مصر الوسيطة ، وأدت للدولة والتجارة أجل الخدمات . فلا غرو أن يقدر برقوق صنيع هؤلاء الكارمية الثلاثة فيخلع عليهم الخلع الرفيعة تشريفاً لهم وتقديراً لفضلهم .

ولم يكن سلطان مصر وحده الذى يستدين منهم بل كان صاحب اليمن يلجأ إليهم إذا ما أعودته الحال إلى المال مما يدل على مدى ما بلغوه من تفوق تجارى ومالى فى اليمن (٢) فضلا عن مصر . وإذا كان للكارمية فى بلاد التكرور أسواق طيبة ، فقد قاموا فيها أيضاً بنشاط مالى واسع النطاق . ومما تذكره المصادر المعاصرة عن هذه الناحية أن أحد ملوك بلاد التكرور – السلطان منسا موس – وبعض أمرائه قد اقترضوا من سراج الدين بن الكويك ، أحد كبار التجار الكارمية المتمولين من أهل الإسكندرية وذلك عندما مروا بمصر فى طريقهم إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج سنة ٧٢٤ هـ (سنة ١٣٢٣ م) . وقد بعث ذلك الكارمى وكيله ليقتضى المال ثم سافر بنفسه إلى بلاد التكرور للتجارة والحصول على ما أقرض ولكنه مات فى تنبكنو فاقتضى المال ولده الذى كان معه فى تلك الرحلة التجارية (٣) . ومن الطبيعى أيضاً أن يستدين من الكارمية أيضاً كبار أفراد المماليك فى مصر (٤) .

ودور الكارمية فى حركة النقد المصرى فى البحر الأحمر جدير بالذكر . فقد كان لنشاطهم التجارى أثره فى انتشاره فى بلدانه المختلفة . وعندما ضعفت الثقة بالعملة المصرية وحل محلها فى مصر والشام النقد الذهبى والفضى الفرنجى

---

(١) المقريزى – نفس المرجع (مخطوط رقم ٤٥٥) ج ٣ ص ٢٤٠ وابن حجر – إنباء الغمر ج ١ ص ٣٦٦ وابن إياس . بدائع الزهور (بولاق) ج ١ ص ٣٠٢ .

(٢) المقريزى – نفس المرجع (مخطوط رقم ٣٣٣٧) ج ٢ ص ٩١٣ – ٩١٥ وابن حجر – الدرر الكامنة ج ٣ ص ٤٩ – ٥٠ وابن تغرى بردى – نفس المرجع (كاليفورنيا) ج ٥ ص ٨٩ ، ١١٧ (ودار الكتب) ج ١ ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

(٣) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٤٣١–٤٣٢ وابن حجر – الدرر الكامنة ج ٤ ص ٤٠٥ .

(٤) ابن حجر – نفس المرجع ج ٢ ص ١٧٧ .

ذاع استعماله أيضاً فى اليمن والحجاز وغيرهما من مراكز التجارة فى البحر الأحمر على يد هؤلاء الكارمية خاصة .

وفضلا عن كل تلك المهام التجارية والمالية ، فمن الكارمية من أدى دوراً هاماً فى الذود عن ديار الإسلام بما قدمه للحكومة من الجند والمال والسلاح فى سبيل الدفاع عن مصر من العدوان الأجنبى .

وخلاصة القول أن تاريخ الكارمية فصل من الفصول الرائعة فى تاريخ مصر الاقتصادى . نفوذ مصر فى البحر الأحمر فى عصر الفواطم والأيوبيين مهد له أحسن تمهيد . ووقوع الثورة التجارية فى العصر الوسيط آتى ثماره الطيبة . وإذا كان نشاط التاجر الإيطالى مفخرة لتاريخ الحركة التجارية الوسيطة فى البحر المتوسط ، فإن نشاط الكارمى فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ليعد له فخاراً وجهاداً واجتهاداً . لقد شق التاجران طريقهما فى عصر يلهبه الحماس الدينى ويضعفه جشع الحكومات فى استخلاص الضرائب والمكوس ويهدره أخطار المواصلات البرية والبحرية وآفات الإنسان والطبيعة . جاهد التاجر الإيطالى فتغلغل فى أوربا كما وصل إلى أعماق آسيا وشق طريقه إلى الصين . وجاهد التاجر الكارمى فسيطر على البحر الأحمر ودعم نشاطه فى المحيط الهندى ووصل إلى الصين أيضاً . وربما التقى الكارمى والإيطالى هناك ، كما التقيا فى موانى مصر على البحر المتوسط – بل لقد تعمق الكارمى أيضاً فى أفريقية فوصل إلى بلاد التكرور وجعلها مجالا مفتوحاً لنشاطه الاقتصادى ؛ وإن ظلت أهم نقط الارتكاز الإيطالى فى البحر المتوسط وأهم نقط ارتكاز الكارمى فى البحر الأحمر . وكما كافح الأول فى سبيل تنظيم العلاقات التجارية فى أرجاء البحر المتوسط واستقرارها فيه ، كافح الثانى لتحقيق نفس الأهداف فى البحر الأحمر والمحيط الهندى . وكما ناضل الأول فى مواجهة الأخطار القراصنة فى البحر المتوسط عندما كون القوافل وسلح السفن ناضل النفس فى مواجهة نفس أخطار فى البحر الأحمر والمحيط الهندى . بل وزادت أهوال الملاحة فى البحر الأحمر من متاعب الكارمى ، فضلا عن مشاق الطريق فى صحراء عيذاب وهضبة سيناء . أما تلك الإجراءات التى كانت تتخذ مع التاجر الإيطالى وغيره فى الإسكندرية أو غيرها من الموانى

المصرية على البحر المتوسط فكانت تتخذ مع الكارمى فى عدن وفى مصر أيضاً ؛ من تفتيش دقيق ومن تحصيل الضرائب المتفاوتة على ما يحملونه من سلع وناس [١]

وفضلا عن ذلك كله فقد بدأت هذه الطبقة عهداً جديداً فى تاريخ العمل والثروة المصرية عامة والثروة التجارية خاصة . إن الخليفة الفاطمى يمثل طوراً هاماً من أطوار التقدم المادى فى مصر . فعندما كان التجار عاجزين عن القيام بالمشروعات العمرانية أو المساهمة فيها مساهمة مجدية ، كان عليه أن يحتل هذا المركز . فبنى العمائر العظيمة وقام بتأجيرها للأهلين [٢]. أما فى العصر الكارمى فقد استطاع الكارمى أن يبنى الفنادق والخانات وأن تنسب إليه كما تنسب إلى الخلفاء والسلاطين والأمراء حين يملكون القدرة المادية على البناء والتعمير . وإذا كان رجال الحكومة وقتذاك قد ملكوا من المال ما يتيح لهم بناء المساجد والمدارس والحوانك وغيرها فقد بنى هذا الكارمى بما ملك من ثروات وعمر كما تعمر الحكومة نفسها . ومما يستوقف النظر أن تروى بعض المصادر أن كارمياً بنى مدرسة من ربح يوم واحد من متجره [٣] . وقد يكون فى هذا شىء من الإسراف فى التقدير ولكنه ينبىء بما دفقت عليه تجارته من ربح وما أدى للمجتمع من خدمات .

والمقارنة بين مركز التاجر الكارمى فى المجتمع المصرى وبين التاجر الذى عاش واجتهد قبل العصر الأيوبى جديرة بأن تجلى لنا جانباً من التقدم التجارى فى مصر على يديه . إن التاجر فى العصر الفاطمى لم يكن بعد من طبقة الأغنياء

---

(١) راجع تاريخ ابن المجاور ج ١ ص ١١٢ – ١١٤ وج ٢ ص ١١٨ أبو مخرمه – نفس المرجع ج ١ ص ٥٦ – ٥٨ ونص سمعان السمعانى المنشور فى Y. Kamal (Ed.) : op. cit. IV, II p. 1192
Breydenbach : Les Saints, Pero Tafur : op. cit. pp. 8, 68 perégrinations de Bernard de Breydenbach (1483) ونص ميشولم منشوراً فى Jewish Travellers p. 158 p. 67
ورحلة ابن جبير ص ٣٩ – ٤٠ ورحلة العبدرى ص ٥١ ورحلة البلوى ص ٤٣ و Heyd : op. cit. II pp. 429-30 ونقولا زياده – رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى ص ٥٤ و ١٣١ .

(٢) ناصر خسرو – سفر نامه ص ٤٨ .

(٣) ابن شاهين الظاهرى – زبدة كشف الممالك ص ٤١ .

أو أصحاب النفوذ فى الدولة . إنه كان كالقروى — أو صاحب الحرفة لا قبل له بركوب الخيل بينما يركب الجند والعسكر والعلماء [١] . أما فى العصر الكارمى فهو يعد القوافل الهائلة ويحميها بجند وخيالة تشتغل لحسابه[٢] . ولم تعد الحبوب فى ذلك العصر أيضاً أهم وسيلة لاستثمار المال كما كان الحال من ذى قبل ؛ بل أصبحت التوابل أضمن السبل للكسب وتوظيف الأموال . ومن المجدى أن تعرف أن سمسار الكارمية —كسمسار القطن فى تجارة مصر الحديثة — كان يصل إلى مرتبة الأغنياء [٣] . ورأس المال مقياس طيب لتحديد طاقة التاجر وإمكانياته فى العمل ومكانته فى التاريخ التجارى . لقد بلغت ثروات بعض الكارمية ألف ألف دينار وربما أضعاف ذلك ؛ وهى على أى حال أرقام جديدة فى تاريخ رأس المال الفردى وتطور جديد فى تاريخ الثروة المستقلة فى التجارة . فى سنة ٧٧٦ هـ (سنة ١٣٧٤ م) مات التاجر المصرى الكارمى ناصر الدين محمد ابن مسلم الذى عده ابن حجر العسقلانى « أعجوبة عصره فى كثرة المال حتى كان يقال إنه لا يعلم قدر ماله . . .

ويقال إنه خاصم بدر الدين الخروبى (التاجر الكارمى المشهور) فقال له ابن مسلم : اشتر بمالك كله شكاير وأحضرها أملأها لك مالا . ويقال إنه ما مات له عبد فى الغربة ، كانوا يدورون فى التجارات ولا يتفق موت الواحد منهم إلا بمصر حتى إن واحداً منهم غاب عشرين سنة وعاد فمات عنده . وكان جده وأبوه وعمه من التجار حتى كان يقال إن لعمه نصف الدنيا ، وجده لأمه شمس الدين محمد بن يسير البالسى كان أيضاً من كبار التجار المشهورين [٤] وجدير بالملاحظة أن رأس مال ابن مسلم بلغ عشرة آلاف ألف دينار أى حوالى ستة ملايين من الجنيهات المصرية (ذهباً) . وقد فاقت شهرة هذا التاجر

---

(١) ناصر خسرو — نفس المرجع ص ٦٢ .

(٢) الأسدى — التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار ص ٢٢ .

(٣) ابن دقماق — نفس المرجع ج ٤ ص ٥٠ .

(٤) ابن حجر — الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٥٧ ابن تغرى بردى — المنهل الصافى ج ٣ ص ٣٦٣ .

ومكانته المالية والتجارية حدود الإمبراطورية المصرية المملوكية . ويتضح ذلك من ترجمة ابن تغرى بردى له . فهو يسجل أنه « كان أعظم تجار الكارم فى زمانه وأكثرهم مالا . قال العينى : ولم يعرف أحد من أهل مصر أكثر مالا منه . وكان إجماع الناس على ذلك حتى قالوا تجار الهند : ليس فى بلادنا من هو أكثر مالا منه غير تاجر كافر يقاربه فى المال[١] » . كما يذكر ابن بطوطه أن التاجر الكارمى فى مصر يعادل أضخم تجار الصين مالا وثروة . بل لقد بلغ من ثراء الكارمية وجاههم أنه عندما عوفى أحد كبار رجال الدولة فى عصر السلطان الناصر محمد من مرضه وزينت له العاصمة لاقاه الكارمية ونثروا عليه الذهب والفضة . وقلما تناولت كتب التراجم أحداً من هؤلاء الكارمية إلا ذكرت أنه كان من « ذوى الأموال الواسعة » أو أنه « ترك مالا كثيراً جداً أو ما شابه ذلك من التعابير ذات المغزى الاقتصادى الواضح .

ومن أهم البيوتات التجارية التى حفل تاريخها بالاجتهاد والرغبة فى توطيد مكانتها المالية ، فدعمت بذلك مكانة مصر والطبقة الوسطى المصرية فى التجارة والاقتصاد فى ذلك العصر ؛ آل الخروبى والكويك ويسير الذين توارث الكثيرون منهم رئاسة التجار فى مصر . وجدير بالملاحظة أن تلك البيوتات التجارية غلب عليها الطابع الأسرى ، ولذلك يرث كل جيل منها نشاط الجيل السابق ومكانته التجارية والمالية ، فضلا عن تجربته وخبرته : إذ كان الكارمى يدرب أولاده ومن يتخيرهم من عبيده ذوى الفطنة والذكاء — على مباشرة أعماله التجارية الواسعة فيرسلهم إلى الأسواق الكبرى فى مصر والحجاز واليمن والهند وبلاد التكرور وغيرها متاجرين مستثمرين مدعماً فى نفس الوقت مكانة الأسرة المتوارثة فى تلك الأسواق . كما كانوا يتخذون الوكلاء والعبيد يجلبون إليهم متاجر تلك

---

(١) ابن تغرى بردى — نفس المرجع ونفس الجزء والصفحة . راجع أيضاً ابن قاضى شهبه — والإعلام بتاريخ أهل الإسلام جـ ٥ ص ٢٢٧ .

(٢) ابن حجر — الدرر الكامنة جـ ١ ص ٢٠٤ وابن قاضى شهبه — نفس المرجع جـ ٦ ص ١٢ .

(٣) رحلة ابن بطوطة جـ ٤ ص ٢٥٩ .

البلاد التى يفدون عليها أو يستقرون بها ويروجون فى تلك البلاد أيضاً المتاجر التى يرسلونها إليهم . وكل ذلك يؤدى بنا إلى إدراك المعنى المقصود من أن الكارمية تجار رأسماليون . وعلى جهود هؤلاء التجار وأشباههم من تجار الرقيق العظام تكونت « البرجوازية » المصرية الكبيرة وعاشت ما عاشت الظروف التى قومتها .

وجدير بنا بعد ذلك أن نناقش دراسة آثارها واهتم بها المشتغلون بالتاريخ الاقتصادى والاجتماعى فى الغرب وهى تاريخ « الرأسمالية » والبحث فى أصولها ونشأتها . وإذا لم يكن مؤرخو الشرق العربى قد وجهوا عناية إلى هذه الدراسة حتى يمكن أن نتعرف على أصول « الرأسمالية » أو نشأتها فى الشرق العربى أو فى مصر فمن الحرى أن نتجه إلى الكارمية التى نبحث تاريخها لنرى فيها ما يجدى بالنسبة لتلك الدراسة .

إن فيرنر سومبارث[١] وهو مؤلف ألمانى وأحد كبار من ناقشوا تاريخ « الرأسمالية » أكد أنها تميزت بروح خاصة وهى الرغبة فى الكسب والتجارة والتوسع التجارى لم توجد فى شعوب خارج أوربا أو فى القارة الأوروبية نفسها فى العصور المتقدمة[٢] ؛ وليس هنا مجال مناقشة أفكاره التى أثارت كثيراً من الجدل والدراسات التى نقضت بعض آرائه . ولكن أهم ما يهمنا من نظريته أنه قصر ظهور الرأسمالية على أوربا وجعل ميلادها سنة ١٢٠٢ م وهى السنة التى نشر فيها ليونارد وبيزانو رسالته فى تعليم الطرق الدقيقة للحسابات التجارية باستخدام إطار الحساب[٣].

فإذا كان صحيحاً ما قاله سومبارث من أن ظهور « الرأسمالية » يرتد إلى سنة ١٢٠٢ م أو بمعنى أوضح جاء معاصراً للحركة الصليبية وعصر الثورة التجارية الوسيطة على يد كبار تجار الغرب وقتذاك . فهى قد ظهرت فى مصر كما ظهرت فى الغرب فى نفس الفترة بل إن تاريخ الأمصار والمدن التجارية

---

(١) Day : Economie development in Europe pp 62-63, 65, Pierenne : op cit. p. 125

(٢) Werner Sombart, Leonards Pisano

(٣) Counting frame Liber Abbacus

فى الامبراطورية الإسلامية يدل على مدى نشاط رأس المال السائل وأثره فى التجارة والحياة الاقتصادية قبل فترة الحركة الصليبية والحركة التجارية الكبيرة بين الشرق والغرب بوقت طويل . كما أن المقارنات السابقة بين الكارمى والإيطالى أو مكانة الكارمى المالية أو الجهود التجارية التى بذلها فى مجالات نشاطه المختلفة سواء ما كانت فى مصر أو فى بلدان البحر الأحمر أو بلاد التكرور أو بلاد المحيط الهندى – كل ذلك يدل على أنه وقف إلى جانب الإيطالى والأوربى فى إنشاء الرأسمالية فى العالم لا فى أوربا وحدها كما قال سومبارث . ولعل مما يجدر ذكره أن النشاط التجارى الذى عمر معظم العالم الوسيط فى تلك الفترة قد أنشأ « الرأسمالية » التى سعت على الدوام إلى تثمير أموالها بالتجارة والتوسع التجارى كلما سنحت الفرصة . وإذا أوضحت المقارنة بين التاجر الكارمى وبين التاجر الإيطالى أو غيره من التجار الكبار فى أوربا كيف لم يصب سومبارث فى قصر ظهور الرأسمالية على التاريخ الأوربى فجدير بنا أن نسجل ما قاله ابن بطوطه عن التاجر الصينى الكبير حتى يمكن المقارنة بينه وبين الكارمى أو بمعنى أوضح بين تجار الرأسمالية فى أنحاء العالم الوسيط . إن ذلك الرحالة الذى زار الأمصار الإسلامية وامتدت رحلاته فى البحار الجنوبية حتى وصل إلى الصين يلاحظ أن التاجر الصينى الكبير قد وصل – أو كاد يصل – إلى تلك المكانة المالية والتجارية التى وصل إليها التاجر الكارمى . قال إن : « أهل الصين أهل رفاهية وسعة عيش إلا أنهم لا يحتفلون بمطعم أو ملبس . وترى التاجر الكبير منهم الذى لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة . . . وعادتهم أن يسبك التاجر ما عنده من الذهب والفضة قطعاً تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ويجعل ذلك على باب داره . ومن كان له خمس قطع منها جعل فى أصبعه خاتماً ومن كانت له عشر جعل خاتمين ومن كان له خمس عشرة. سموه الستى وهو بمعنى الكارمى بمصر[1] » ؛ وهذا كله يدل على أن رأى سومبارث فى نشأة الرأسمالية قد يمثل وجهة نظر أوربية خالصة تعوزها النظرة العالمية الشاملة التى قد تعاون فيها دراسة ذلك الموضوع من وجهة النظر

---

(١) رحلة ابن بطوطة ج ٤ ص ٢٥٩ .

المصرية — وهى قصد هذا البحث . أما أنه حدد ظهورها برسالة ليوناردو و بيزانو التى تعتبر أولى المحاولات الأوروبية لتنظيم حسابات التجار ، فالكارمى وغيره فى مصر قد عرف نظام دفاتر الحسابات قبل الحركة الصليبية فاعتبر القضاء الإسلامى دفاتر الماليين حججاً على أصحابها من تجار وصيارفة وسماسرة وأن العرف جار بينهم بذلك [1] ؛ بل إن تاريخ حياة ليوناردو بيزانو ودراساته يوضحان بكل جلاء الأثر العربى فى إنتاجه [2] .

وقبل أن ننتقل إلى علاقة هؤلاء الكارمية الضرائبية بالدولة ينبغى أن نعالج ناحية متصلة بطبيعة كيانهم وحياتهم التجارية وهى رئاستهم ولقب رئيس الكارمية أهم طوائف التجار فى الإمبراطورية المصرية . إن أكثر الكارمية مالا وجاها ونفوذا كان يتولى رئاسة طائفتهم وتخضع له سائر التجار حتى أكابرهم ويحتفظ فى مصر وفى بلاط سلاطينها بالمركز الرفيع فضلا عن مكانته المرموقة فى البحر الأحمر واليمن والحجاز أيضاً.

وإذا لم يكن من السهل أن تكون فكرة واضحة عن اختيار رئيس التجار فقد أتاحت إحدى الحوادث السبيل إلى معرفة الأسس العامة لاختيار من يحتل هذه المكانة الكبرى بين التجار . روى ابن حجر العسقلانى فى أخباره عن سنة ٧٨٦ هـ وسنة ١٣٨٤ م أن التاجر الكارمى الكبير زكى الدين الخروبى عاد من الحجاز فى تلك السنة ، وأهدى بهذه المناسبة إلى السلطان برقوق وإلى كبار أمراء المماليك « هدايا جليلة » ، ثم حدث أن اتهمه فى ذلك الوقت أحد أعيان التجار اليمنيين فى مصر وهو شهاب الدين الفارض — أخو الأشرف وزين صاحب اليمن آنذاك — بينهم خطيرة ، فأخرج الخروبى كتاباً من قبل صاحب اليمن وقد ضمنه كتاباً من الفارض يقول فيه — « إن مصر آل أمرها إلى الفساد ، وليس بها صاحب له قيمة ، فلا نرسل بعد هذه السنة هدية ، فإن سلطانها اليوم أقل المماليك وأرذلهم . فأمر السلطان بالقبض على الفارق وقطع لسانه ومصادرة

(١) ابن عابدين — نشر العرف فيما بنى من الأحكام على العرف ص ٤١ وابن الشحنة — لسان الحكام ص ٧٦ وابن بسام — نهاية الرتبة ص ٧٢ وابن حجر — إنباء الغمر ج ٢ ص ١٨٢ .

(٢) سأعالج هذه الناحية الهامة فى العلاقات العلمية والتجارية بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى فى مقال خاص .

أملاكه . ثم شفع فيه فأطلق . . . وخلع على زكى أمين الدين خلعة معظمة واستقر كبير التجار »⁽¹⁾ ولعل هذا النص يلقى ضوءاً على لقب كبير التجار ولمن يمنح ، فالدولة تمنحه بناء على ولاء التاجر لصاحب العرش وما أسدى من خدمات سياسية ومادية باهرة . وما له من مكانة تجارية عالية .

وإذا نظرنا بعد ذلك فيما جنته الدولة من وراء نشاط الكارمية من ضرائب كان أول ما يستوقف النظر أن هؤلاء الكارمية تحملوا عبء ضخماً من أعباء الحروب فى المال والتكاليف . ويكفى لذلك أن نعرف أن الأرض الزراعية المصرية كانت تحول فلاحيها القراريين وتقطع إقطاعات لجندها المماليك . ولذلك كان على الثروة التجارية المصرية والقوامين عليها أن تعنى بأهم مصادر ميزانية الجيش المصرى ومطالبه من استعدادات حربية ومادية ومصاريف حملات متكررة يفرضها على مصر موقفها الدفاعى ضد الصين والمغول . فلا غرابة إذاً والكارمية أكثر التجار عملا وأوفرهم مالا أن يتحملوا أكبر العبء فى مواجهة تكاليف الحرب المسلطة على مصر طوال عصرى الأيوبين والمماليك بعد أن جنوا ثمار سياسة مصر التجارية لحمايتهم ونمائهم . وهذا كله يفسر لما كان كتاب الغرب المعاصرين ينظرون بعين الحسد والحسرة لهذا السيل المتدفق من الأموال التى تحصلها مصر من وراء التجارة العالمية والسياسة التى وضعتها لمواجهة الظروف التاريخية التى عاصرتها⁽²⁾

كان طبيعياً أن يرفع ثمن السلعة الشرقية عند وصولها إلى مصر نتيجة لتكاليف انتاجها ومصاريف الوصول إليها وحملها إلى مصر والرسوم المفروضة عليها فى اليمن وتعدد الوسطاء الذين تمر عليهم . كما تأثر ثمنها أيضاً تأثيراً كبيراً بالضرائب التى تفرض عليها أثناء مرورها بمصر باعتبارها فى ذلك الوقت من أهم مصادر الإيراد الحكومى . وليس غريباً بعد ذلك أن يرتفع ثمن السلعة الشرقية إلى ثلاثة أو أربعة أمثال ثمنها الأصلى . وليس غريباً إذا قيل كذلك أن

---

(١) ابن حجر – إنباء الغمر ج ١ ص ٢١١ .

(٢) راجع بعض الشواهد الهامة التى أوردها الدكتور عزيز سوريال عطيه عن هذه الناحية فى كتابه The Crusade in the Later Middle Ages pp. 40-41, 115. 174

الحكومة المصرية كانت تجبى ما يعادل شحنة سفينة عن كل أربع سفن .

كذلك كانت الحكومة المصرية تفرض رسوماً أخرى على التوابل التى تمر بالحجاز غير الرسوم التى كانت تجبيها عليها أثناء مرورها بمصر ؛ فكانت هناك رسوم تجبى فى بدر وأخرى فى حنين وبويب العقبة وجسر الحساء[1] وهى أهم مراكز التجارة الكارمية . وحينما تصل هذه التوبل إلى الموانى المصرية كانت الحكومة تحصل عليها مكوساً أخرى فى عيذاب والقصير والطور والسويس . وتلك الموانى وإن اختلفت أهمية ونشاطاً فى ظروف تاريخية معينة إلا أنها « على حد واحد فى أخذ المرتب السلطانى » . وما كتبه ابن مماتى والقلقشندى والمقريزى فى أيامهم المتتالية يدل على أن نسب الضرائب المفروضة على السلع فى تلك الموانى ظلت فى العصر المملوكى على ما كانت عليه فى العصر الأيوبى على وجه التقريب[2] . وجدير بالملاحظة أنه فى الوقت الذى نشطت فيه التجارة نشاطاً هائلا بين مصر والبحر المتوسط ، تحددت سياسة مصر الضرائبية الجديدة على أساس التوسع فى فرض الرسوم على السلع النافعة فى الغرب وأولها التوابل . ويعتقد المقريزى أن تلك السياسة ترجع إلى حكم صلاح الدين الأيوبى[3] . ومن المؤسف حقاً أن المصادر التى تحت أيدينا حتى الآن لم تقدم تفصيلا أو إحصاء عن فئات ضرائب متاجر الكارمية فى موانى مصر على البحر الأحمر ، أو مجموعها باعتبارها مصدراً من المصادر الكبرى لايرادات الدولة . كما لا نعرف تفصيلا عن ضرائب متاجرهم عند دخولها القاهرة . ومن القاهرة تحمل معظم متاجر الكارمية إلى الأسكندرية ودمياط ، وهناك أيضاً تؤخذ عنها الرسوم المحددة لدخول هذين الميناءين ، وهو ما لا نعرفه على وجه الدقة والتفصيل . ولكن قيمة تلك المكوس تتضح فى إشارات الرحالة أو كتب الحوليات بطريقة عارضة . ومن الأمثلة الهامة على

---

(١) ابن شاهين – زبدة كشف الممالك ص ١٠٨ .

(٢) ابن مماتى – كتاب قوانين الدواوين ص ٣٢٧ والقلقشندى – صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٩ – ٤٧٠ والمقريزى – الخطط ج ١ ص ١٠٣ – ١٠٩ .

(٣) المقريزى – نفس المرجع ج ١ ص ١٠٩ .

امور الدولة السرية التى لا يجوز الإفشاء بها . (نفس المرجع ص ٨٤) .

ذلك، ما ذكره ابن حجر من أن مكس ما أحضره أحد تجار الكارم إلى مصر قد بلغ فى سنة واحدة أربعين ألف دينار [١] .

وإذا كانت اليمن تعفى بعض السلع الواردة إليها عن طريق البحر الأحمر، مثل الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون وزيت الحار والزيتون المملح والنقل وعسل النحل من الضرائب مما يحمله إليها الكارمية وغيرهم من مصر [٢] ، فإنما يرجع هذا إلى حاجة اليمن إلى تلك السلع . وكان أمراً طبيعياً أن تشجع الحكومة اليمنية التجار على استيرادها بإعفائها من الضرائب المقررة على غيرها من الواردات . ومع ذلك فإن المصادر المعروفة لا تشير إشارة واضحة للدلالة على أن مصر كانت تعفى هذه السلع نفسها من الضرائب عند خروجها من مصر وموانيها وهى فى طريقها إلى اليمن . بل إن التفتيش الدقيق الذى كانت السلطات الحكومية المصرية تجريه فى بعض الموانى النيلية كقوص وأخميم والمنيا على التجار والحجاج المتاجرين المتجهين إلى البحر الأحمر قد يدل على أن تلك السلع الصادرة إلى اليمن خاصة لم تكن معفاة من الضرائب عند تصديرها من مصر . وقد شرح المقريزى الدقة المتبعة فى التفتيش عليها حين قال : « كانت أعوان متولى الزكاة تخرج إلى منية ابن خصيب (المنيا الآن) وأخميم وقوص لكشف أحوال المسافرين من التجار والحجاج وغيرهم ، فيبحثون عن جميع ما معهم ، ويدخلون أيديهم أوساط الرجال خشية أن يكون معهم مال ، ويحلفون الجميع بالأيمان الحرجة على ما بأيديهم وما عندهم غير ما وجدوا . وتقوم طائفة من مردة الأعوان وبأيديهم المسال الطوال . . . . فيصعدون إلى المراكب ويجسون بمسالهم جميع ما فيها من الأحمال والغرائر مخافة أن يكون فيها شىء من بضاعة أو مال فيبالغون فى البحث والاستقصاء بحيث يقبح ويستشنع فعلهم ويقف الحجاج بين يدى هؤلاء الأعوان مواقف الخزى والمهانة لما يصدر منهم عند تفتيش أوساطهم وغرائر أزوادهم ويحل بهم من العسف وسوء المعاملة ما لا يوصف » [٣] . ولا شك أن أهم المعنيين أساسا من ذلك التفتيش

(١) ابن حجر – الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٨٤ .

(٢) ابن المجاور – نفس المرجع ج ٢ ص ١١٦ – ١١٧ .

(٣) خطط المقريزى ج ١ ص ١٠٨ – ١٠٩ .

هم التجار والحجاج المتاجرون من الكارمية الذين تجنى الحكومة من وراء صادراتهم الضرائب الوفيرة . أما متجر الكارمى فى أى مدينة من مدن القطر فتحصل عنه الحكومة زكاة معلومة كاما حال عليه الحول[١] . ولم يحدد القلقشندى أو غيره من المصادر المعاصرة التى وصلت إلينا ، قيمة تلك الزكاة ، وإن كان القلقشندى قد اكتفى بقوله إنها تجرى مجرى سائر متحصل الإسكندرية فى المباشرة وغيرها »[٢] . ومما يثير الأسف أننا لم نعثر بعد على فئات الضرائب الخاصة بمتاجر الأسكندرية الوسيطة أو غيرها من الموانى أو المدن التجارية المصرية الكبرى .

ولكل تلك المصالح التى ربطت الكارمية بالدولة عنيت الحكومة عناية خاصة بشئونهم فى صميم بناء تنظيمها الإدارى . فأنشأت وظيفة من أجل وظائفها لرعاية مصالحهم وشئون التجارة بين البحر الأحمر ومصر — تلك هى نظر البحار والكارمى . يقول القلقشندى إن تلك الوظيفة . « وظيفة جليلة تارة تضاف إلى الوزارة وتجعل تبعاً لها وتارة تضاف إلى الخاص (أى نظر الخاص) وتجعل تبعاً لها وتارة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان[٣] » .

وإذا كان من أهم أعمال الولاة فى الأقاليم المصرية السهر على شئون الأمن ورعاية مصالح التجار بالحق من ولاياتهم ، فإن أحد مراسيم تولية والى ولاة الصعيد[٤] يسجل أن عليه أن يسهر على مصالح ذلك الجزء الكبير من الوادى لأنه باب اليمن والحجاز[٥] » الذى ظل ردحاً طويلا من الزمن الطريق التقليدى لمتاجر المحيط الهندى والبحر المتوسط . بل لقد أشار مرسوم آخر إلى نشاط الكارمية فى أرض الصعيد وواجب والى الولاة بالنسبة لهم . قال : « وأكرم قدوم

---

(١) القلقشندى — نفس المرجع ج ٣ ص ٤٦١ .

(٢) راجع القلقشندى — نفس المرجع ج ٣ ص ٤٦١ . وعن الزكاة وتطورها فى مصر راجع الحاشية رقم ٤ من كتاب السلوك ج ٢ ص ٥١٠ — ٥١١ للدكتور محمد مصطفى زياده .

(٣) القلقشندى — نفس المرجع ج ٤ ص ٣٢ .

(٤) عن هذه الوظيفة راجع القلقشندى — نفس المرجع ج ٤ ص ٦٤ — ٦٥ و ٢٤ — ٢٥ وحاشية للدكتور محمد مصطفى زيادة فى السلوك ج ١ ص ٢٣٩ رقم ١ .

(٥) القلقشندى — نفس المرجع ج ١١ ص ٤٢٨ .

من يرد عليك من الكارم وقرر بحسن تلقيك أنك أول ما قدمناه من المكارم فهم سمار كل نادى ، ورفاق كل ملاح وحادى ، ولا بد أن يتحدث السمار وتتداول بينهم الأسمار ، فاجعل شكرنا دأب ألسنتهم ، ومنناحلية أعناقهم ومنحناً سبباً لاستجلاب رفاقهم ، فهم من مواد الإرفاق وجواد ما يحمل من طرف الآفاق[1] » .

والتاجر الكارمى تاجر مسلم ، يخدم الإسلام والعالم بنشاطه التجارى والمالى ، ويبذل من ماله فى سبيل الثقافة الإسلامية ، وينهل من علوم الإسلام وثقافه وينشرها فى دروب الأرض ما وسعه الجهد . كما أن جهود هؤلاء الكارمية فى سبيل العلم والثقافة الإسلامية جديرة بالتسجيل والاعتبار إن عبد العزيز ابن منصور الكريمى التاجر الكارمى المشهور (توفى بالإسكندرية سنة ٧١٣ هـ – ١٣١٣ م) « كان متسعاً فى نفقاته . . . وكان يكثر البر والمعروف ، ويخرج زكاة ماله فيقصد من الآفاق فيعطى ، وله عدة أوقاف على مكاتب سبيل وبر[2] » وقد علم أحد رؤساء الكارمية – عبد اللطيف بن أحمد بن محمود بن أبى الفتح بن محمود بن أبى القاسم التكريتى – الحديث « وفرق على كل من سمع عليه ديناراً ديناراً[3] » . كما أنه بنى مدرسة بثغر الأسكندرية[4] وروى عنه أيضاً أنه قال الشعر . فليس غريباً بعد هذا كله أن يوصف بأنه من أحسن الناس » ديناً وعقلا وفضلا وذكاء وسؤدداً[5] » فى ذلك العصر أما عبد اللطيف بن رشيد بن محمد بن سديد الربعى التكريتى – نزيل الإسكندرية الذى توفى سنة ٧١٣ هـ (سنة ١٣١٣ م) فكان أيضاً من « رؤساء الكارم معروف المكارم ، له نظم فائق وكتابة جيدة[6] » ، وألف ديوانا

---

(١) القلقشندى – نفس المرجع ج ١١ ص ٤٣٧ .

(٢) ابن حجر – الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٨٣ – ٣٨٤ والمقريزى – السلوك ج ٢ ص ١٣٢ – ١٣٣ .

(٣) ابن حجر – نفس المرجع ونفس الجزء ص ٤٠٥ .

(٤) ابن حجر – نفس المرجع ونفس الجزء والصفحة .

(٥) ابن حجر – نفس المرجع ونفس الجزء والصفحة .

(٦) ابن حجر – نفس المرجع ونفس الجزء ص ٤٠٦ .

مشهوراً فى المدائح النبوية . كما وصف بأنه كان « رئيساً كاملا وافر المعرفة فاضلا وجيهاً بين الناس[١] » وقد خلف التاجر الكارمى المشهور عبد اللطيف بن محمد بن مسند الإسكندرانى (ت سنة ٧١٤ هـ — سنة ١٣١٤ م) مدرسة بثغر الإسكندرية وكان كذلك محدثاً وشاعراً يدبج المدائح النبوية[٢] . وقد مات الكارمى محمد بن أحمد ابن عبد اللطيف سنة ٧٣٢ هـ (سنة ١٣٣١ م وهو يؤدى فريضة الحج[٣] . كما مات الكارمى محمد بن الحسين بن محمد ابن أبى الفتح بن الكويك الربعى التكريتى ثم المصرى وهو مجاور بمكة سنة ٧٦٤ هـ (سنة ١٣٦٢ م)[٤] . ولقد شيد ذلك الكارمى مدرسة كبيرة بمصر جعلها داراً للحديث وأوقف عليها أوقافاً كثيرة[٥] .

وكذلك أوصى محمد بن مسلم بن حسين بن مسلم الكارمى (توفى ٧٧٦ هـ — ١٣٧٤ م) بتعمير مدرسة باسمه ورصد لذلك مبلغ ستة عشر ألف دينار من ماله[٦] . أما محمد بن أحمد بن محمد بن على الخروبى فمن أسرة كارمية عريقة ، وله بالقاهرة مدرسة مشهورة معروفة باسمه[٧] . ومن أفراد هذه الأسرة الكارمية من ساهم فى بناء خانقاه نسبت إليها فسميت خانقاه الخروبى[٨] .

ومن الطريف أن يروى لنا ابن تغرى بردى أن أحد الكارمية كان يشتغل

---

(١) ابن حجر — نفس المرجع ونفس الجزء والصفحة والعينى — عقد الجمان المجلد ٦١ ص ٤٦٢

(٢) ابن حجر — نفس المرجع ونفس الجزء ص ٤١٠ وابن حبيب — درة الأسلاك ج ١ ص ١٠٠ .

(٣) ابن حجر — نفس المرجع ج ٣ ص ٣٢٧ .

(٤) ابن حجر — نفس المرجع ونفس الجزء ص ٤٢٩ .

(٥) ابن حجر — نفس المرجع ونفس الجزء والصفحة وابن دقماق — الانتصار ج ٤ ص ٩٩ .

(٦) ابن تغرى بردى — المنهل الصافى ج ٣ ص ٧٦٣ .

(٧) المقريزى — الخطط ج ٢ ص ٢٦٩ — ٣٧٠ .

(٨) المقريزى — نفس المرجع رنفس الجزء ص ٤٢٦ — ٤٢٧ . راجع أيضاً ابن حجر — نفس المرجع ج ١ ص ٤٥٠ وابن تغرى بردى — نفس المرجع ج ٣ ص ٨٧٥ — ٨٧٦ والسخاوى — الضوء اللامع ج ٥ ص ٢٤٠ .

بعلم الكيمياء[١] . ولعل أهم ما قصد إليه من وراء ذلك هو تحويل المعادن إلى ذهب وهو عمل تجارى مربح فى آخر الأمر .

وقد عرف عن هؤلاء التجار روح الفتوة والعطف ، ومنهم من اشتهر بسعة البذل والكرم والإحسان للناس والإقراض بغير فائدة[٢] ، ومنهم من كان واسع العطاء للفقهاء والشعراء ، كما أن منهم من شيد القصور العظيمة ؛ روى أن قصر الكارمى برهان الدين المحلى — الذى بناه على شاطئ النيل بالقاهرة — كان أعجوبة الدهر فى إتقان البناء وكثرة الرخام والزخرفة و « المنافع » الكبيرة فى القاعات والأروقة . وخدمة للثقافة ابتنى برهان الدين إلى جانب هذا القصر مدرسة تستقبل طلبة العلم فى ذلك الوقت . وقيل إن ما أنفقه فى بناء القصر قد بلغ خمسين ألف مثقال ذهباً[٣] ، وهو الرقم الذى ورد فى المصادر عن تكاليف بعض عمائر العصر المعروفة مثل مسجد السلطان المؤيد شيخ .

والخلاصة أن من هؤلاء الكارمية من كان يملك أن يحيط نفسه بمظاهر العظمة والغنى حتى يصبح فى هيئة « كهيئة السلطان تماماً [٤]» .

وإذا كانت هذه هى حال أولئك الكارمية من النفوذ والعلم والجاه والثراء والنجاح فمن أين جاءهم الضعف والانهيار ثم الفناء ؟ إن الإجابة على هذا السؤال تتطلب استكناه الأحداث المحلية والعالمية وظروفهم التى دفعت إلى أفول نجمهم .

أساس بناء الدولة المصرية فى ذلك الوقت أنها دولة إقطاعية بيروقراطية . وإذا هدد الفساد مصر ، جاء من هذين الركنين ثم تسرب إلى كيان الدولة كلها ، وكانت مرافقها الاقتصادية أشد حساسية وأكثر من غيرها تأثيراً بالفساد .

---

(١) ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ ١ ص ٢٨١ .

(٢) ابن حجر — إنباء الغمر جـ ٢ ص ٢٩٠ ب .

(٣) ابن حجر — نفس المرجع ونفس الجزء ص ٢٩٠ (ا) والمقريزى — الخطط جـ ٢ ص ٣٦٨ — ٣٦٩ وأثر عن برهان الدين أيضاً أنه جدد اللوح الأخضر فى الجامع العتيق أو جامع عمرو . راجع القلقشندى — نفس المرجع جـ ٣ ص ٣٤٢ .

(٤) الأسدى — التيسير والاعتبار ص ٢٢ وابن تغرى بردى — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٨٧٦ .

وغنى عن البيان أن تفوق مصر فى الميادين الحربية والسياسية والاقتصادية فى العصر الوسيط الكارمى إنما كان رهين التناسق والتساند والنماء الذى كانت تقوم عليه القوى الاقتصادية أو العسكرية . ويكفى لتوضيح ذلك أن نعلم أن نظام مصر الاقتصادى فى العصر المملوكى ، الذى وقعت فى أواخره نهاية الكارمية ، كان متصلا أشد الاتصال بجيشها . فلم يكن الجيش فى ذلك الوقت أداة للمحافظة على سلامة الدولة من معتد أو عدو فحسب بل كان كياناً حربياً واقتصادياً فى الوقت . «أرض مصر — نظرياً — ملك للسلطان وهو يوزع منها على جنده إقطاعات تعظم وتتسع كلما ترقوا فى السلك العسكرى ؛ والإقطاع — والسلطان على رأسه — مجال إنتاج زراعى وصناعى وتجارى فى ذلك العصر . وأرض مصر تنتج أهم مواد الاستهلاك اللازمة للمواطن . فإذا ساءت حالها بفعل العوامل الطبيعية أو الغير الطبيعية ، تعرضت مصر لهزات اقتصادية عنيفة خطيرة هددت موارد الحكومة ورجالها المعولين على الزراعة والإقطاع ؛ ويصبح لزاماً عليها أن تبحث عن موارد أخرى للوفاء بمطالبها المتسعة وبخاصة بعد أن أصبح النظام الإقطاعى عاجزاً عن أداء المهمة التاريخية والاقتصادية التى يعيش من أجلها . ومن ذلك كان طبيعياً — بل لم يكن هناك مناص — أن تثقل الأعباء الملقاة على موارد الثروة القومية السائلة (رأس المال السائل كما يسميه أهل ذلك العصر) ، وأهمها التجارة . فأصبح على المدينة المصرية أن تتحمل أعباء جديدة فى شكل ضرائب متعددة توازن بها الدولة ضعف انتاجها الزراعى وفشل الإقطاع والقرية — تلك الأعباء التى أخذت تتزايد كلما أمعن الإقطاع ضعفاً وفساداً حتى انتهى الأمر بالسلطان إلى التوسع البالغ فى نظام الاحتكار . وكان أخطر تلك الاحتكارات تجارة الشرق وحركة الترانسيت التى يعيش عليها الكارمية . ومن الحقائق التاريخية الواضحة أن السلطان قد اشتغل بالتجارة كما اشتغل بها أمراؤه وكبار رجاله وموظفوه . وعلى الرغم من أن بعض السلاطين قد أدرك مغبة هذا العمل على المصلحة العامة للدولة ولطوائف التجار والحرفية إلا أنهم لم يتخلصوا منه لأن المتربع على أريكة السلطنة كان فى نفس الوقت التاجر الأول بين أمراء دولته . ولكن عندما بلغت الدولة مرحلة

الهرم كان هذا التوسع فى سياسة الاحتكار من مظاهره كما أصبحت عبءاً باهظاً على الطبقة المتوسطة وخطراً ملحاً يهدد مستقبلها بالضعف والانكماش .
ولا يفسر إقدام السلطان على هذه الخطوة الحاسمة فى تاريخ الكارمية إلا عاملان : الأول — أعباء الإمبراطورية المصرية ونفقات الحروب التى تتطلب يوماً بعد يوم معيناً من المال ضخماً ومضموناً . أما العامل الثانى فهو أن الإقطاع المصرى والضرائب التجارية لم تعد كافية للوفاء بأعباء الدولة ومصالح القوامين عليها بعد أن تقاعسوا عن العناية بشئون الرى أو المحافظة على التناسب بين مساحة الأراضى المنزرعة وبين الزيادة المطردة فى إعداد الجند وما يصحب ذلك من ضرورة توفير الإقطاعات لهم ، مما جعل إعلان الحكومة احتكار تجارة الشرق واستبعاد الكارمية من مجال الحياة الاقتصادية بمثابة إعلان إفلاس النظام الإقطاعى ونتيجة طبيعية لفقدان التوازن بين « البرجوازية » والإقطاع ، وعجز المماليك عن تقدير الضرورة اللازمة لبقاء هذا التوازن فى سبيل المحافظة على مكانتهم واستقرار الاقتصاد المصرى واطراد نموه . وفى نهاية الأمر زادت سياسة الاحتكار السلطانى العلاقات التجارية الأوربية مع مصر سوءاً وفتوراً . وكان من بين العوامل الخطيرة التى حملت الغرب على الاهتمام بالتخلص من أهمية مركز مصر التجارى بين الشرق والغرب .

بدأ برسباى سياسة احتكار التوابل وبدأ معه كفاح الكارمية لتقرير مصيرهم . وكانت خطة برسباى تتلخص فى أن يقوم تجار الخاص ببيع التوابل للفرنج بالسعر الذى يفرضه ثم اتجه إلى تركيز تجارة التوابل فى مصر وحدها — دون الشام — بل وجعل الإسكندرية الميناء الأوحد لتلك التجارة فى إمبراطوريته . وكان من أهم ما يسر له القيام بهذا كله فقدان عدن مركزها التجارى منذ سنة ٨٢٨ هـ (سنة ١٤٢٥ م) واحتلال جدة مكانتها نتيجة لإجحاف سلاطين عدن بمصالح التجار وعدم اهتمامهم بالسير على سياسة ضرائبية مستقرة سليمة يطمئن بها الكارمى وغيره على مصالحه ومستقبل مشروعاته واستثمار أمواله فى التجارة[1]. لقد أمر برسباى سنة ٨٢٨هـ (سنة ١٤٢٥ م) —

(١) المقريزى — السلوك (مخطوط رقم ٤٦٤) ص ٦٢ و ٦٣ . راجع أيضاً درر الفرائد ص ٢٩٢ — ٢٩٣ ، والخالدى — المقصد الرفيع المنشا ص ١٥٤ .

— وهى نفس السنة التى جهز فيها حملته لغزو قبرس — بأن ينادى فى مكة بألا يباع البهار إلا على تجار مصر وحدهم . وبذلك ينصب إلى الأسواق المصرية وحدها كل ما يرد إلى البحر الأحمر من بهار المحيط الهندى . وبذلك أيضاً يضمن الحصول بل والتحكم فى فرض الضرائب التى ترضيه . وتذكرة وتشديداً نودى فى مكة سنة ٨٣٠ هـ (سنة ١٤٢٧ م) أن « كافة من اشترى بضاعة من بضائع التجار ، وسافر بها إلى غير القاهرة حل دمه وماله للسلطان ، فسافر التجار القادمون من الأقطار مع الركب المصرى ليؤخذ منهم مكوس بضائعهم ثم إذا ساروا من القاهرة إلى بلادهم أخذ منهم المكس ببلاد الشام[١] » وقد بذل تجار الشام جهدهم فى الكفاح عن مستقبلهم وحياتهم بإغراء السلطان على السماح لهم بحمل التوابل إلى الشام مباشرة دون القدوم إلى مصر ، فوافق سنة ٨٣١ هـ (سنة ١٤٢٨ م) على ذلك بعد أن رفع قيمة المكوس المفروضة على بهارهم عن ذى قبل ؛ إذ « وقع الاتفاق على أن يؤخذ منهم بمكة عن كل حمل قل ثمنه أو كثر ثلاثة دنانير ونصف ، ويعفوا من حمل ما يتبضعونه من جدة إلى مصر . فإذا حملوا ذلك إلى دمشق أخذ منهم مكسا هناك على ما جرت به العادة[٢] » . ولكن برسباى ، بعد بضع سنين ، عاد فأبطل هذه الخطة ، وألزم التجار بعدم حمل شىء من البهار إلى الشام ومصر تصديرها من البحر الأحمر إلى مصر فحسب . فقد أغرته المكاسب وساعدته على مواجهة مطالبة المالية للنفقات والحروب ؛ فتوسع فى التجارة حتى أصبح المتجر السلطانى هو المحتكر لمتاجر الشرق الكبرى . ففى سنة ٨٣٢ هـ (سنة ١٣٢٩ م) اتخذ عدة قرارات هامة : أمر بتجهيز المال إلى جدة لشراء الفلفل ، كما حجر عليه بحيث لا يشترى أحد من التجار شيئاً منه إلا بعد أن يحصل على مبتغاه ، وفضلا عن ذلك فقد ألزم جميع التجار بأن يتوجهوا بتوابلهم إلى مصر وحدها ، وفى الوقت نفسه قصر بيعها للفرنج على ميناء واحد هو الإسكندرية . وتحقيقاً لأغراضه فى الكسب ، أمر بأن لا يبدأ أحد من الكارمية فى بيع بضاعته إلا

(١) درر الفرائد ص ٢٩٦ .

(٢) ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة (كاليفورنيا) جـ ٤ ص ٦٢٨ .

بعد أن يصرف ما استورده . ولم يكن تجار الكارمية والشام هم وحدهم الذين ذاقوا إجحاف برسباى بمصالحهم التجارية بل لقد ألزم الفرنج بشراء الفلفل بزيادة خمسين دينار عن سعر السوق فى كل حمل مما اضطرهم إلى التقليل من كمية مشترواتهم حتى أنهم رجعوا فى بعض السنين « بأكثر بضائعهم وما معهم من النقد إلى بلادهم » دون أن يؤدوا مهمتهم التجارية فى مصر . ولم يكن تبرم التجار الفرنج أو تخلفهم عن الحضور إلى الإسكندرية فى بعض المواسم باعثاً لبرسباى على التخلى عن سياسته . كما لم يكن تجاوبهم مع الكارمية فى إبداء سخطهم أو الكفاح عن مستقبلهم ، والتعاون معهم على تهريب التوابل والاتجار معهم خفية — حافزاً له على التخلى عن سياسته الاحتكارية ، بل لقد أمعن فى التمسك بها ؛ « فحصل على التجار من الغلاء ما لا يوصف . . . . وهو لا يزداد فى كل سنة إلا شدة[1] » . وفى سنة ٨٣٣ هـ (سنة ١٤٣٠ م) اختط خطة دقيقة للتخلص من مواقف « البرجوازية » الكارمية والبرجوازية » الغربية فى كفاحهما ضده ؛ إذ شدد على الكارمية فى بيع توابلهم له وإلا منعهم من ممارسة التجارة نهائياً ؛ ومعنى ذلك أنهم أصبحوا مجرد مندوبين يعملون للسلطان التاجر الأوحد فى متاجرهم . وبهذه الخطة يمكنه أن يقضى على تعنت تجار الفرنج معه حين لا يجدون الكارمية ينافسونه فى الأسواق . ولا شك أن المعركة كانت حامية عميقة . فلم يكن من السهل أن ينتصر برسباى على أولئك التجار العريقين فى نشاطهم وخبرتهم وحيلتهم ولكنه على أى حال كان يشهر عليهم سلاح القوة والعنف والطرح[2] إذا ما حاولوا إقامة العراقيل فى وجه مشروعاته الاحتكارية . ففى سنة ٨٣٥ هـ (سنة ١٤٣٢ م) اشتد حصار برسباى على الكارمية . فألزمهم بعدم بيع بضائعهم من التوابل إلا بإذنه ثم جمعهم فى رمضان من تلك السنة وطرح عليهم ما عنده من الفلفل مسعراً بثمانين دينار للحمل وكانوا قد باعوه له من قبل بخمسين دينار . وقد ذكر له بعض التجار تلك

---

(١) ابن حجر — إنباء الغمر جـ ٢ ص ٢٥٢ ا .

(٢) الطرح سياسة معروفة من مصرف العصور الوسطى يلجأ إليها السلطان عادة إذا ما كان فى حاجة إلى المال ، إذ يفرض على التجار شراء بضائع من متجره بسعر يحدده بنفسه .

الحقيقة ، ولكنه لم يلتفت إليهم فلم يجدوا بدا من الخضوع فى نهاية الأمر . كما أنه كتب المراسيم يوطد بها احتكاره لتجارة البهار وأرسلها إلى أسواقه الكبرى فى الشام والحجاز والأسكندرية معلناً فيها أن « لا يبيع البهار ولا يشتريه إلا السلطان[١] » وكلما تقدمت الأيام بسياسة برسباى الاحتكارية لتجارة الشرق كلما أمعن فى وضع الخطط الجديدة لتوطيد مركزه فيها . ففى سنة ٨٣٨ هـ (سنة ١٤٣٥ م) قصر الاتجار فى التوابل وسلع الشرق على جدة ومنع حمل التجار تلك السلع إلى مكة . كما ألزم تجار البحر الأحمر باتخاذ البحر ، لا البر ، وسيلتهم للوصول إلى الحجاز حتى لا تتسرب أى قافلة إلى مكة دون أن تؤدى فى جدة ما يجب عليها من الضرائب . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، إذ حدد فى تلك السنة أيضاً أن تكون الضريبة التى يحصلها من تجار الهند فى جدة صنفاً لا مالا ، وبقيمة العشر من ثمن البضاعة . أما بالنسبة للتجار المصريين من الكارمية أو تجار التوابل من الشاميين فقد أمر بأن تؤخذ منهم مكوساً بقدر الخمس من ثمن بضائعهم عقوبة لهم على مخالفة أمره فى الاتجار بجدة ومنافسة متجره . أما إن وجد الكارمى فى منى فقد أحل برسباى مصادرة جميع ماله . واتفق أن قرئ هذا المرسوم تجاه الحجر (بمكة) ثم راجع أمير مكة السلطان بذلك حتى أمر بالتسوية بين جميع أصناف التجار وأجناسهم فى المعاملة والضريبة ، فلا يمتاز هندى على مصرى أو شامى[٢] . واستمر برسباى على تصميمه فى تنفيذ الاحتكار المرسوم ؛ فأعلن فى السنة التالية (٨٢٩ هـ — ١٤٣٦) بكل وضوح أن تجارة الفلفل من احتكار السلطان وحده . وظلت الحكومة تكافح نشاط الكارمية بين الحجاز ومصر . فعندما وصل الحجاج إلى مصر سنة ٨٤٠ هـ (سنة ١٤٣٧ م) شكا التجار من أمير الحج كثيراً ، ولكن السلطان لم يأبه لشكواهم ؛ فما كان ذلك الأمير إلا المنفذ لسياسة موضوعة . ومن القبائح التى حكوها عن أمير الحج أنه طلب إلى التجار تأدية ضريبة خاصة فى اليوم الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٨٤٠ هـ (سنة ١٤٣٧ م) « فامتنعوا ،

(١) ابن حجر — نفس المرجع ونفس الجزء ص ٢٧٥ ب — ٢٧٦ ا .

(٢) ابن حجر — نفس المرجع ونفس الجزء ص ٣٠٧ ب ودرر الفرائد ص ٢٩٩ — ٣٠١ .

فرحل بالناس فى آخر الحادى عشر ليفوت عليهم البيع بمنى فى الثانى عشر والثالث عشر ، فكانت من أفحش الفعلات » على حد قول ابن حجر[١] .

ولقد كان إلى جانب الأشرف برسباى رجال أقوياء يصطنعون الصرامة وينشدون بها التقرب إلى السلطان ؛ فالحظوة فالرفعة . بل منهم من كان مسئولا إلى حد كبير عن نجاح سياسة الاحتكار السلطانى وصراعه مع الكارمية . فلقد روى أن جوهر القنقبای الطواشى الحبشى (توفى سنة ٨٤٤ هـ — ١٤٤٠ م) « تقرب إلى السلطان بتحصيل الأموال من وجوه أكثرها لا يحل ، فكان برسباى يقربه ، ويتبرأ منه عند الناس ، ويظهر الإنكار عليه سراً » . وجوهر هذا من العناصر المباشرة فى اطراد فقدان الكارمية مقومات كيانهم التجارى . « صار التاجر يغيب السنة فما فوقها ويحضر فلا يستطيع أن يبيع حملا واحداً من بضاعته ولا يجد من يشتريه ويستدين نفقته على نفقه ، وعنده ما يساوى عشرة آلاف دينار ؛ فبقوا على ذلك مدة الأشرف (برسباى) نحو العشر سنين ثم تمادى الحال على ذلك بعده[٢] » ومعنى هذا أن طبقة الكارمية أخذت فى الانكماش وفى فقدان مجالات استثمار ثرواتهم وأسواقهم ثم فى استهلاك رءوس أموالهم . هذا من ناحية ومن الناحية الأخرى أن سياسة الاحتكار التى ركز أسسها السلطان برسباى قد أضحت نظاماً اقتصادياً سار عليه أخلافه من سلاطين المماليك وتمكنوا بسلطانهم الواسعة من المحافظة عليه . ومن مظاهر معركة البهار بينه وبين التجار الكارمية وغيرهم من تجار البهار فى البحر الأحمر ما سجله السخاوى[٣] فى حوادث سنة ٨٥١ هـ (سنة ١٤٤٧ م) — ذلك أن شاد جدة فى تلك السنة — وهو الأمير جانبك الظاهرى — أرسل إلى نائب مكة يأمره بامساك جماعة من التجار كانوا قد تخلفوا عن النزول فى جدة واتجهوا إلى مكة مباشرة قبل أن تعشر بضائعهم . فلما سمع التجار بذلك اختفوا تلك الليلة (ليلة الجمعة ١٨ صفر) ثم اتجهوا إلى المسجد الحرام

---

(١) ابن حجر — نفس المرجع ونفس الجزء ص ٣٣٤ ا ودرر الفرائد ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

(٢) ابن حجر — نفس المرجع ونفس الجزء ص ٣٩٧ ا — ٣٩٧ ب .

(٣) السخاوى — التبر المسبوك ص ١٧٥ — ١٧٦ .

فى الصباح (صباح الجمعة) حيث اعتصموا به وأمسكوا بخطيب المسجد قائلين : « إنا لا نطلقك من أيدينا إلا بعد أن تفرج عنا » . كما أذاعوا سخطهم على حكومة السلطان جقمق وعلى شاد جده . ولما لم يصلوا إلى نتيجة ، ولما لم يعلن صاحب مكة إقلاعه عن القبض عليهم رفعوا المصاحف على رءوسهم بعد صلاة العصر وظلوا يطوفون بالبيت أسبوعاً ، حضر فى خلاله القاضى الشافعى لمقابلتهم ثم اجتمع بهم بعد ذلك بحضرة القضاة جميعاً وسألهم عن محنتهم فقالوا إنهم ممتنعون عن الذهاب إلى شاد جدة لأنه ظلمهم واستأصل جملة من أموالهم . وكان خبر هؤلاء التجار قد ذاع فى مكة فارتجت له ووصل خبرهم إلى جدة فأرسل شادها كتبه إلى القضاة وبعض الأعيان ينكر ما ذكر عنه «وحلف أنه لا غرض له عندهم » ؛ وبذلك وحده تخلص هؤلاء التجار من شر ذلك الموظف .

وليس يخفى أن كفاح الكارمية فى البحر الأحمر كان أقوى وأصلب من كفاحهم فى مصر ولكنه لم ينته إلى نجاح لأن مستقبلهم يتقرر فى مصر مركز التوزيع إلى العالم الغربى . كما أن صراعهم فى البحر الأحمر أخذ شكلا فقهيا إلى جانب شكله الاقتصادى . فقد عبر قضاة مكة عن لسان حال التجار وتبرمهم بسياسة المماليك . إذ أيدوا موقف التجار وحقهم فى الحضور إلى موسم الحج متاجرين دون أن يبذلوا ضريبة أو مكساً على تجاراتهم . كما أعلن تجار الهند والصين العاملين فى أسواق الحجاز أنهم هجروا ميناء عدن بعد أن ذاع ظلم ملوك اليمن وإرهاقهم بالضرائب ، « وأنهم رغبوا فى القدوم إلى جدة ليحتموا بالسلطان » ، فيدعم نشاطهم التجارى بسياسة ضرائبية رشيدة . وسألوا ولاة الأمور سؤالا جوهرياً يحدد علاقتهم الضرائبية الشرعية بالدولة يتلخص فى هل من حق السلطان أن يحصل العشر على متاجرهم ؟ لقد أفتى فقهاء القاهرة بسلامة موقف الدولة من الكارمية بحجة أن « السلطان يحتاج إلى صرف مال كثير فى عسكر يبعثه إلى مكة » ، وبأنه يجوز جمع تلك الضريبة وصرفها على المصالح العامة . وعندما قرئت تلك الفتوى بالحرم الشريف على رءوس الأشهاد بحضور القضاة والأعيان « انطلقت الألسنة بالوقيعة فى القضاة (قضاة القاهرة) وأنهم اعتادوا اتباع أهواء الملوك خوفاً على مناصبهم أن يعزلوا منها . . . وكل واحد

يعلم أن هذا مكس لا يحل تناوله ولا الأكل منه وأن الآكل منه فاسق لا تقبل شهادته لسقوط عدالته ، ولكن الهوى يعمى ويصم ، وما كفتهم هذه الفتاوى بمصر حتى بعثوا بها فقرئت بالحرم الشريف على رءوس الأشهاد » . والجدير بالملاحظة بعد ذلك أن يسجل الراوى ما ألمع إليه الفقهاء والتجار جميعاً بعد ذلك : كيف يحاول السلطان دعم موقفه التعسفى بفتاوى أهل العلم والشرع وهو يعلم أن شاه رخ ملك الشرق كان يبعث بالإنكار على أخذ العشور بساحل جدة[١] ! وغنى عن البيان أن شاه رخ إنما قصد من وراء ذلك تأليب الشعب وإثارة سخط التجار من الكارمية وغيرهم على سلطان المماليك .

فليس غريباً بعد ذلك كله أن إعداد الكارمية أخذت فى القلة حتى ذكر ابن تغرى بردى فى سنة ٨٥٩ هـ (سنة ١٤٥٥ م) أن الكارمى لم يظهر فى فى الأسواق المصرية فى تلك السنة[٢] ومنذ سنة ٨٨٩ هـ (سنة ١٤٨٤ م) لا تذكر عنهم المصادر شيئاً[٣] . وبعد أن كان منصب كبير التجار يكاد أن يكون مقصوراً على الكارمية لما بلغوا من مكانة اجتماعية وتجارية ومالية ، قل أن يصل واحد منهم إلى ذلك المركز منذ أواسط القرن التاسع الهجرى . كما أن مقام كبير التجار نفسه قد فقد كثيراً مما كان يحاط به من تجلة وتقدير واحترام . إذ بلغ الأمر أن أميراً من كبار أمراء المماليك أمسك فى رمضان سنة ٨٢٧ هـ (أغطسس سنة ١٤٢٥ م) نور الدين الطنبدى كبير التجار وضربه ضرباً مبرحاً « لعناد وقع منه[٤] فى حقه » . والواقع أن كبار التجار — وبخاصة الكارمية — قد أصبحوا مجرد مندوبين للسلطان فى الأسواق يكسبون عيشهم فى ركابه بعد ذلك التحكم الذى فرضه على تجارتهم ، فلا غرابة إذا

---

(١) درر الفرائد ص ٣٠٢ . راجع أيضاً ابن تغرى بردى — المنهل الصافى ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٥ و ج١ ص ٢٥١ — ٢٥٢ .

(٢) ابن تغرى بردى — منتجات من حوادث الدهور ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٣) ابن إياس — بدائع الزهور (اسطنبرل) ج ٣ ص ٢٠٢ . يلاحظ من نص ابن إياس أن الأستاذ فيشيل لم يكن مصيباً حين جعل سنة ٨٨١ هـ وسنة ١٤٧٦ م نهاية عهدنا بالكارمية .

(٤) ابن حجر — إنباء الغمر ج ٢ ص ٢٠٧ ب . راجع أيضاً ابن تغرى بردى — المنهل الصافى ج ٣ ص ٥٢٧ .

سرى عليهم ما سرى على الموظفين وقتئذاك من ضرب ومصادرة وغير ذلك . وفى الوقت الذى ضعف فيه نفوذ الكارمية ومال نجمهم إلى الزوال اتسعت طائفة تجار السلطان وعظمت أهميتهم — وكان السلطان يتخيرهم من أنشط التجار ومن أعرق الأسر التجارية وأقواها نفوذاً ومنهم من كان من الكارمية أنفسهم . ولم تعد أهم مشروعات تجار السلطان استجلاب الرقيق بل وقف إلى جانبها مشروعات تجارة الفلفل والتوابل السلطانية واستيرادها . ولذلك كله لم يكن من الغريب أن يصبح أهم تاجرين فى مصر قبيل الفتح العثمانى « تاجرا لحوم » يسعيان إلى استجلابها من جهات القطر المختلفة لتوفيرها لسكان القاهرة عامة وللمماليك خاصة[١]. ولهذا دلالته التاريخية الهامة إذ تضاءلت مكانة التاجر المصرى حتى أصبح مجرد تاجر محلى ليس له من أثر يذكر فى التجارات الدولية التى احتل فيها مكاناً مرموقاً طوال عصرى الأيوبيين والمماليك .

وهكذا يسدل الستار عن طبقة الكارمية بعد أن كان « كل تاجر منهم كالملك بين جند وأعوان ومماليك وخدام . . . . . وكان لهم مؤن كثيرة وإمكان . وآثار فنادق الكارم بمصر تنبئ عن تحقيق هذا الشأن . . . . فسبحان الباقى بعد فناء خلقه لا إله إلا هو الرحيم الرحمن[٢] »

ولعل من أهم ما يجدر معالجته بعد ذلك من تاريخ الكارمية أن نلحظ أن الطبقة الوسطى — وعلى رأسها هؤلاء التجار الكبار — مع ما بلغته من تقدم ومكانة اجتماعية واقتصادية لم تتمكن من الوصول إلى الحكم أو الدفاع عن مصالحها دفاعاً منتجاً عندما أزفت ساعة الخطر واحتكر السلطان تجارتهم . إن طبيعة أرض مصر المنبسطه السهلة قد صنعت الكثير لتقرير مستقبل البرجوازية المصرية سواء فى ازدهارها ونضارتها ما بين القرن العاشر والرابع عشر أم فى عهد اندحارها فى القرن الخامس عشر م عندما عجزت عن الوقوف فى وجه النظام الإقطاعى . فبينما استطاعت البرجوازية الغربية أن تقيم المعاقل التى تتيح لها فرص الدفاع عن نفسها لم تتمكن البرجوازية المصرية من تحقيق

(١) ابن إياس — نفس المرجع (اسطنبول) ج ٤ ص ٢٤٣ و ٣٢٠ و ٣٣٩ و ٤٨٠ .
(٢) الأسدى — التيسير والاعتبار ص ٢١ — ٢٢ .

شيء من ذلك لأن مصر الوسيطة كانت قائمة كدولة قوية متماسكة لا كدولة مفككة كما كان الحال بالنسبة لدول أوربا فى العصر الوسيط . لذلك كانت كلمة واحدة من السلطان كفيلة بالقضاء على كل ثورة تقوم بها دفاعاً عن مصالحها كما حدث بالنسبة لثورة الإسكندرية سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٦ م) وغيرها من ثورات القاهرة . هذا عامل جوهرى ، أما العامل الثانى فنستقيه من تطور مصر التجارى نفسه ويرتد إلى أن الإسلام قد رحب بنشأة المدنية وتقدمها وتقدم التجارة فى أساس تشريعه وتكوينه التاريخى من ناحية وأن مصر من ناحية أخرى لم تتعرض لغارات بربرية جارفة تكتسح المدن كما حدث بالنسبة لأوربا . ولذلك كله لم يتبلور بين البرجوازية والإقطاع فى مصر : ذلك الصراع الذى نعرفه فى تاريخ البرجوازية الغربية .

والجدير بالتقدير والتأمل أن يأتى موقف الدولة من الكارمية فى الوقت الذى بلغت فيه البرجوازية المصرية أقصى قوتها الاقتصادية والاجتماعية بينما أخذ الفساد يدب سريعاً فى النظام السياسى الإقطاعى والبيروقراطى الذى يقوم السلطان على قمته . ولذلك لم يكن من الغريب أن تصل الطبقة التجارية — وبخاصة الكارمية — إلى المكانة التى تراهم فيها ساسة العصر وحكامه الموجهين لمستقبل مصر ؛ فيكون لها من التأثير الفعال ما لا يقل عن تأثير طبقة المماليك والإقطاعيين أنفسهم لولا بناء الدولة المركز والبيروقراطى القائم على المماليك ولولا الحرب الكثيرة المتلاحقة التى فرضها على مصر مكانتها من العالم الإسلامى فى ذلك الوقت — وهو فى الواقع مكانة الدفاع عن الحضارة الإسلامية أمام الفرنج من الغرب والمغول من الشرق ، بل ربما كان يمكن أن يهدد أولئك المغول حضارة العالم الوسيط شرقاً وغرباً لولا نجاح مصر فى كبح جماحهم ورد اعتداءاتهم . ولكن هذه الاعتبارات التاريخية الكبرى لا يجب أن تنسينا حقيقة الموقف الذى وقفه المماليك حين ضحوا بهذه البرجوازية ومستقبلها — إذ أنهم لم يكونوا إلا مدافعين عن أنفسهم وحياتهم المترفة ومصالحهم الخاصة ومستقبلهم الخاص فى مصر . فبعد أن عجزوا عن إصلاح حياتها الزراعية أو بعد أن أفسدوا حياتها الزراعية — احتكروا لأنفسهم حياتها التجارية .

فمصر التى أفلتت من تخريب التتار وغاراتهم لم تفلت من تخريب اشباههم فى مصر ؛ وهم مماليك القرن الخامس عشر م . وفى الوقت نفسه لا يجب أن تنسينا هذه الظروف المحلية الظروف — العالمية الجديدة التى كانت تمر بالتجارة المصرية وتجارة الكارمية بوجه خاص . فالفصل الختامى لتاريخ تجارة التوابل وسلع الشرق والسياسة التى وضعتها مصر للتحكم فيها لا تحدد علاقات الدول التقليدية المتاجرة مع مصر بقدر ما تحدده الأحداث الحاسمة فى أوربا فى عصر النهضة — تلك النهضة التى عاصر ابن خلدون بواكيرها وتنبأ بعظمتها وعظم مكانة أوربا فى ظلها ؛ وكانت تفوقاً بحرياً فى أسبانيا والبرتغال — يكامل فى الواقع أطوار الكفاح الإنسانى فى العصر القديم وفى ظل الحضارة الإسلامية ثم فى عصر النهضة لهتك أستار بحر الظلمات والكشف عنه . وبنجاح البرتغاليين فى الكشف عن طريق رأس الرجاء الصالح بمساعدة الملاح العربى ابن ماجد — انتقل مركز الثقل فى كفاح مصر عن مستقبل سياستها التجارية إزاء الغرب إلى بحر الهند

وإذا نظرنا إلى تطور الأحداث فى البحر المتوسط تجلى لنا كل الجلاء سعى البرجوازية الغربية المتاجرة مع مصر لتوثيق صلاتها بالبرجوازية المصرية وبخاصة الكارمية — وقد قاربت بينهما محن الاحتكار السلطانى لتجارتهما حتى اشتركا فى إعلان استنكارهما لخطة سلاطين مصر واشتراكا فى عملية تهريب السلع للتخلص من تلك الخطة واشتركا فى الكفاح ضد تلك السياسة هجر تجار الغرب الموانى المصرية ومنهم من كان قد ولد بها ، كما هجر تجار الكارمية مصر لينكمشوا فى البحر الأحمر وبخاصة فى الحجاز حيث قاموا بتجارة متواضعة نسبياً فى موسم الحج .

وفى هذه الظروف المحلية والعالمية الحاسمة عرضت البندقية — موجهة التجارة الغربية فى البحر المتوسط — مشروع قناة السويس على السلطان الغورى بعد أن سعى إلى الحصول على معاونتها ضد البرتغال عدوهما المشترك [1] .

(١) Charles-Roux : L Isthme et le canal de Suez I p. 39, Wilson : The Suez Canal - its past, present and future p. 6.

ومصطفى الحفناوى — قناة السويس جـ ١ ص ٢٣ — ٢٤

واعتبرت البندقية ذلك المشروع حلا حاسما لمواجهة الموقف الجديد . ولكن السلطان الغورى تردد . وكانت الطبقة الوسطى المصرية منهكة القوى ، عاجزة عن التأثير على سياسة الدولة فى تلك الظروف العالمية الخطيرة . وكان الصراع قوياً سريعاً لامتحان سياسة مصر التجارية إزاء الغرب بعد أن أكسبها الزمن والكفاح عنها قوة ومنعة . وفى ظل ذلك الصراع كمن الزوال المحتوم ، ووقع التغير الجديد فى سير التاريخ والتجارة المصرية : انتصر البرتغاليون فى الجنوب وانتصر العثمانيون فى الشمال وانكمشت الطبقة التجارية المصرية والأوربية العاملة معها ، وجف عودهما بعد أداء دورهما التاريخى الباهر فى حدود إمكانيات المجتمع الوسيط القائمة على طريقة إنتاجه « وايديولوجيته » وتوجيهه ، ووعيه ، ومستوى الحضارة الذى حصله .

دكتور صبحى لبيب

المراجع

(١)

الأسدى (عاش فى القرن التاسع هـ — الخامس عشر م) محمد بن محمد
التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والنصيحة فى التصرف — مخطوط بدار الكتب ٥٤٨٦ تاريخ .

ابن أيبك (عاش القرن الثامن هـ — الرابع عشر م) عبد الله بن أيبك صاحب صرخد — درر التيجان وغرر تواريخ الزمان ٤ ج مخطوط بدار الكتب ٢٦٠٥ تاريخ .

ابن بسام (عاش فى القرن الثامن هـ — الرابع عشر م) محمد بن أحمد المحتسب
كتاب نهاية الرتبة فى طلب الحسبة . مخطوط بالمكتبة التيمورية ٢٥ اجتماع .

ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ — ١٤٦٦ م) أبو المحاسن يوسف .
(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٢ ج مخطوط بدار الكتب ١٣٤٣ تاريخ .
(٢) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ٦ ج مخطوط بدار الكتب ١١١٣ تاريخ .

ابن الجوزى ت ٦٥٤ هـ — ١٢٥٦ م) أبو المظفر يوسف بن غيزأوغلى المعروف بسبط بن الجوزى .
(١) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ج ٩ مخطوط بدار الكتب ٩٢٧٦ ج وج ١١ و١٢ مخطوط بدار الكتب ٥٥١ تاريخ .

ابن حبيب (ت ٧٧٩ هـ — ١٣٧٧ م) الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر
درة الأسلاك فى دولة الأتراك ٤ ج مخطوط بدار الكتب ٦١٧٠ .

ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ – ١٤٤٨ م) شهاب الدين بن على
كتاب إنباء الغمر بأنباء العمر ٢ جـ مخطوط بدار الكتب ٢٤٧٦ تاريخ .

ابن الفرات (ت ٨٠٧ هـ – ١٤٠٤ م) محمد بن عبد الرحيم بن على بن أحمد
بن محمد بن عبد العزيز ابن محمد .
تاريخ الدول والملوك (المعروف بتاريخ ابن الفرات) ١٨ جـ مخطوط بدار الكتب ٣١٩٧ تاريخ .

ابن قاضى شهبه (ت ٨٥١ هـ – ١٤٤١ م) أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر تقى الدين
(١) تاريخ ابن قاضى شبهه ٧ جـ مخطوط بدار الكتب ٣٩٢ تاريخ – تصوير شمسى عن نسخة المكتبة الأهلية بباريس .
(٢) الدر الثمين فى سيرة نور الدين مخطوط بدار الكتب ٢٣٩٤ تاريخ .

ابن المجاور (ت ٦٩٠ هـ – ١٢٩١ م) يوسف بن يعقوب بن محمد
تاريخ ابن المجاور أو كتاب المستنصر ٢ جـ مخطوط بدار الكتب ٢١٧٧ تاريخ .

ابن واصل (ت ٦٩٧ هـ – ١٢٩٧ م) جمال الدين .
مفرج الكروب فى دولة بنى أيوب ٢ جـ مخطوط بمكتبة جامعة الإسكندرية
تصوير شمس عن مخطوط المكتبة الأهلية بباريس .

البهاء الجندى (ت ٧٣٢ هـ – ١٣٣٢ م) أبو عبد الله يوسف بن يعقوب
السلوك فى طبقات العلماء والملوك ٣ جـ مخطوط بدار الكتب ٩٩٦ تاريخ

الخالدى (ت ٩٣٧ هـ – ١٥٣٠ – ١٥٣١ م) محمد بن لطف الله بن عبد الله بن عبيد الله العمرى .
كتاب المقصد الرفيع المنشا الحاوى إلى صناعة الإنشا . مخطوط بمكتبة جامعة فؤاد الأول ٢٤٠٤٥ . تصوير شمس عن المكتبة الأهلية بباريس .

درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة . مخطوط بدار الكتب ٣٧ م تاريخ .

الصفدى (ت ٧٦٤ هـ – ١٣٦٣ م) صلاح الدين خليل بن أيبك
الوافى بالوفيات ١٧ ج . مخطوط بدار الكتب ١٢١٩ تاريخ .

العبدرى (عاش فى القرن السابع هـ – الثالث عشر م) محمد بن محمد بن على
رحلة العبدرى إلى الحجاز مخطوط بالمكتبة التيمورية ٢٢١٨ تاريخ .

العينى (ت ٨٥٥ هـ – ١٤٥١م) محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسن بن يوسف بن محمود .
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ٦٩ ج مخطوط بدار الكتب – ١٥٨٤ تاريخ .

المقريزى (ت ٨٤٥ هـ – ١٤٤١ م) تقى الدين أحمد بن على .
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ٤ ج مخطوط بدار الكتب ٤٥٥ تاريخ .
تصوير شمس عن مخطوط المكتبة الأهلية بباريس .
٣ ج مخطوط آخر بالدار ٣٣٣٧ تاريخ منسوخ عن سابقه .
و٢ ج مخطوط ثالث بالدار ٤٦٤ تاريخ تصوير شمس عن نسخة مكتبة جامعة كمبردج .

النويرى (ت ٧٣٢ هـ – ١٣٣٢ م) أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدايم التيمى القرشى .
نهاية الأرب فى فنون الأدب ٤٠ ج مخطوط بدار الكتب ٥٥١ تاريخ تصوير شمس عن الأجزاء المخطوطة المحفوظة بالاستانة .
و ٤ ج مخطوط ثان بالدار ٥٩٢ معارف عامة . تصوير شمس عن مكتبة الفاتيكان .
و ٥٥ ج مخطوط ثالث بالدار ٥٤٩ معارف عامة .

(٢)

ابن إياس (ت ٩٣٠ هـ — ١٥٢٤ م) محمد بن أحمد
بدائع الزهور فى وقائع الدهور ٣ ج القاهرة سنة ١٣١١ ونفس المرجع

Ed. Paul Kahle, M. Mustafa & Moritz Sobernheim 3 vols. Istanbul, 1931-6.

ابن بطوطة (ت ٧٧٦ — ١٣٧٧ م) محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللوائى الطنجى
تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.

Ed. X Fr. Tr. Defrémery et Sanguinetti 4 vols. Paris, 1855.

ابن تغرى بردى :
(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . صدر منه ١٠ ج . القاهرة سنة ١٩٢٨ — سنة ١٩٤٩ م
ونفس المرجع

Ed. William Popper, University of California Publications. Vols. V-VIII 1909-1936.

(٢) منتخبات من حوادث الدهور.

Ed. William Popper. California, 1930.

(٣) المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى

Ed. G. Wiet, Le Caire, 1932.

ابن جبير (ت ٦١٤ هـ — ١٢١٧ م) محمد بن أحمد .
تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار

Ed. William Wright, 2nd. Ed. revised by M.J. De Goeje Leiden, 1907.

ابن الجوزى
مرآة الزمان

Ed. James Richard Jewett, Chicago, 1907.

ابن الحاج (ت ٧٣٧ هـ – ١٣٣٦ م) محمد بن العبدرى.
المدخل ٣ ج القاهرة سنة ١٢٩١ .

ابن حجر العسقلانى
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ٤ ج حيدر أباد سنة ١٣٤٨

ابن خرداذ به (٣٠٠ هـ – ٩١٢ م) عبيد الله بن عبد الله
المسالك والممالك

Ed. De Goeje. Leiden, 1889.

ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ – ١٤٠٥ م) عبد الرحمن بن محمد .
مقدمة ابن خلدون

Ed. M. Quatremère. 3 vols. Paris, 1858.

ابن دقماق (ت ٨٠٩ هـ – ١٤٠٦ م) إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى
الانتصار بواسطة عقد الأمصار ج ٤ و ٥ نشر فولرز القاهرة سنة ١٣٠٩

ابن سعيد (ت ٦٧٣ هـ – ١٢٧٥ م) على بن موسى المغربى
(١) كتاب الجغرافية فى الأقاليم السبعة .

Ed. Y. Kamal : op.

ابن شاهين الظاهرى (ت ٨٧٢ هـ – ١٤٦٧ م) غرس الدين خليل
زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك

Ed. Paul Ravaisse Paris, 1894.

ابن الشحنة (ت ٨٨٢ هـ – ١٤٧٧ م) أبو الوليد إبراهم بن محمد.
كتاب لسان الحكام فى معرفة الأحكام . الإسكندرية سنة ١٢٩٩

ابن شداد (ت ٦٣٢ هـ – ١٢٣٤ م) يوسف بن رافع بن تميم
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . القاهرة سنة ١٣١٧ .

ابن الفرات :

تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات ٢ ج . نشر الدكتور قسطنطين زريق والدكتوره ن . عز الدين . بيروت سنة ١٩٣٦

ابن الفقيه (عاش فى القرن الثالث هـ ــ التاسع م) أحمد بن محمد الهمذانى

مختصر كتاب البلدان

Ed. De Goge. Leiden, 1885.

ابن ماجد (ت حوالى ٩٠٠ هـ ــ ١٤٩٥ م) شهاب الدين أحمد .

كتاب فى علم البحار نشره فيران بعنوان :

Ferrand, Grabriel (Ed.) Instructions nautiques et routiers Arabes et Portugais des XVe. et XVIe. siècle. 2 vols. Paris, 1925.

ابن المقفع (عاش فى القرن السابع هـ ــ الثالث عشر م) ساويرس « أسقف الأشمونين » .

تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروف بسير البيعة المقدسة . نشر الدكتور عزيز سوريال عطية والدكتور اسولد برمستر والأستاذ يسى عبد المسيح ٢ ج . القاهرة سنة ١٩٤٣ ــ سنة ١٩٤٨ .

ابن مماتى (ت ٦٠٦ هـ ــ ١٢٠٩ م) الأسد .

كتاب قوانين الدواوين . نشر الدكتور عزيز سوريال عطيه . القاهرة سنة ١٩٤٣ .

ابن الوردى (ت ٧٥٠ هـ ــ ١٣٤٩ م) أبو حفص عمر .

تاريخ ابن الوردى ٢ ج . القاهرة سنة ١٢٨٥

أبو شامة (ت ٦٦٥ هـ ــ ١٢٦٧ م) عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهم بن عثمان شهاب الدين الملقب بأبى شامه .

كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ٢ ج القاهرة سنة ١٢٨٨

أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ ــ ١٣٣١ م) عماد الدين اسماعيل

كتاب المختصر فى أخبار البشر ٤ ج . القاهرة سنة ١٣٢٥

أبو مخرمة (عاش فى القرن العاشر هـ – السادس عشر م) عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد .
كتاب تاريخ ثغر عدن

Ed. Oscar Lofgran. Leiden, 1936

ألف ليلة وليلة . القاهرة سنة ١٣٢٣

النطيلى (عاش فى القرن السادس هـ – الثانى عشر م) بنيامين بن بونة .
رحلة بنيامين التطيلى نقلها إلى العربية عن الأصل العبرى عزرا حداد . بغداد سنة ١٩٤٥

الخزرجى (ت ٩٠٢ هـ – ١٤٩٦ م) على بن الحسن .
العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية . نشر الشيخ محمد العسال ٢ ج . ليدن سنة ١٩١٨ .

الذهبى (ت ٧٤٦ هـ – ١٣٤٥ م) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز .
كتاب دول الإسلام ٢ ج . حيدر أباد سنة ١٣٣٧

زترشتين (ناشر) :

Zeterstéen, K.V. (Ed.) : Beitrage zur Geschichte der Mamluken-Sultane. Leiden, 1919.

السخاوى (ت ٩٠٢ هـ – ١٤٩٧ م) محمد بن عبد الرحمن .
(١) التبر المسبوك فى ذيل السلوك . نشر أحمد زكى . القاهرة سنة ١٨٩٦
(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ١٤ ج . القاهرة سنة ١٣٥٤

الفاسى (ت ٨٣٢ هـ – ١٤٢٩ م) محمد بن أحمد.
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام . نشر فستنفلد . ليبزج سنة١٨٥٩

القلقشندى (ت ٨٢١ هـ – ١٤١٨ م) أحمد بن على .
(١) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ١٤ ج . القاهرة سنة ١٤١٣ – سنة ١٩١٩)
(٢) ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر. القاهرة سنة١٩٠٦

المقدسى (عاش فى القرن الرابع هـ – العاشر م) محمد بن أبى بكر البناء الشامى المقدس المعروف بالبشارى .
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم
Ed. De Goge. Leiden, 1906.

المقريزى :
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة .
ظهر منه جزءان من خمسة مجلدات . القاهرة سنة ١٩٣٤ – ١٩٤٣

ناصر خسرو علوى (ت ٤٥٢ – ٤٥٣ هـ – ١٠٦٠ – ١٠٦١ م) أبو معين ناصر بن خسرو بن حارث .
سفر نامه . ترجمة الدكتور يحيى الخشاب . القاهرة سنة ١٩٤٥

(٣)

Adler, Elkan Nathan : Jewish Travellers. London, 1931.

Breydenbach, Bernard de : Les Saints peregrinations de Bernard de Breydenbach (1483). Texte et traduction annotée par le pir: F. Larrivaz (Extraits relatifs à l'Egypte). Le Caire, 1904.

Matthew Paris's English History Translated from the Latin by the Rev. J.A. Giles. 2 vols. London, 1853.

Symon Semeons : Itineraire à la Terre Sainte (1322-1324), Ed. Y. Kamal : op. cit. IV, II.

Tafur, Pero : Travels and Adventures (1435-1439). London, 1920.

Youssef Kamal (Ed.) : Monumenta cartographica Africae et Aegypti 15 vols. Paris, 1926-1938.

(٤)

عبد المجيد عابدين . بين الحبشة والعرب . القاهرة (بدون تاريخ)

محمد عمر بن عبد العزيز بن عبد الرحيم بن نجم الدين بن محمد صلاح الدين
(ت ١٢٥٢ هـ — ١٨٤٦ م)

الشهير بابن عابدين: نشر العرف فى بناء بعض الأحكام على العرف (مطبعة
معارف سورية الجليلة سنة ١٣٠١)

مصطفى الحفناوى (دكتور) : قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة ٢ جـ.
القاهرة سنة ١٩٥٢ — ١٩٥٣.

نقولا زيادة : رواد الشرق العربى فى العصور الوسطى. القاهرة سنة ١٩٤٣

(٥)

Atiya, A.S. : The Crusade in the Later Middle Ages. London. 1938.

Budge, E.A. Wallis : A history of Ethiopia, Nubia and Abyssinia 2 vols. London, 1928.

Charles-Roux, J. : L'isthme et de Canal de Suez. 2 vols. Paris (S.D.).

Day, Clive : Economic development in Europe. New York, 1949.

Dozy, R.P.A. : Suppléments aux dictionnaires Arabes. 2e. Ed. 2 vols. Lyde-Paris, 1927.

Encyclopedia of Islam.

Fischel, Walter : Uber die Gruppe der Karimi-Kanfleute. Ein Beitrage Geschichte des Orient-handels unter den Mamluken (Studia Arabica I, Rome, 1937). G. by Littmann in Orientalia, 1939.

Heyd, W. : Histoire du commerce du Levant au Moyen Age. Ed. Française profondue et considérablement augmentée par l'auteur, Fr. Tr. Furcy Raynaud. 2 vols. Leipzig, 1885-6.

Lane, Frederic C. : Andrea Barbarigo, Merchant of Venice (1418-1449). Baltimore, 1944.

Pirenne, H. : Economic and social history of Medieval Europe. 2nd. Ed. London, 1937.

Strauss, E. : History of the Jews in Egypt and Syria under the Mamluke rule (in Hebrew). Jerusalem, 1944.

Wiet, Gaston et Hautecœur, L. : Les Mosquées du Caire. 2 vols. Paris, 1932.

Wilson, Arnold T. : The Suez Canal. Its Past, Present and Future. London, 1933.



مسجد الزيتونة الجامع فى تونس

بحث أثرى

١

كانت أفريقية ، وهى التى تسميها اليوم بالبلاد التونسية ، موطناً زاهراً من مواطن الفن الإسلامى ، وخاصة فى الفترة من تاريخها التى تمتد من سنة ١٨٤ (٨٠٠م) إلى ٢٩٦ (٩٠٩م) . وقد ترك الأغالبة ، أمراء هذه البلاد فى ذلك العهد ، آثاراً عظيمة من الناحيتين التاريخية والفنية ، تزداد أهميتها من أنها بقيت سليمة محتفظة بأوضاعها وعناصرها الأولى . ولا شك فى أن هذه الآثار تعد بحق أقدم مجموعة من تراث العمارة فى العالم الإسلامى .

ولن ينتهى البحث فى أصول الفن الإسلامى إلى نتائج ثابتة ، بالنسبة لكثير من عناصره الزخرفية والمعمارية ، إلا بعد أن تتم دراسة آثار إفريقية دراسة شاملة دقيقة . فهذه البلاد تدين للأغالبة بآثار منتشرة فى القيروان ، ورقادة ، والعباسية ، وسوسة ، وتونس وغيرها ؛ منها المساجد والأربطة ، ومنها الحصون والأسوار ، ومنها الأحواض والخزانات . ومعظم هذه الآثار مجهولة لا يعرف عنها إلا القليل . ومع ذلك فعصر الأغالبة لا يتعدى قرناً واحداً من تاريخها الطويل منذ الفتح الإسلامى . وقد حال دون كشف هذه الآثار ودراستها أن البلاد التونسية أوصدت أبواب أكثرها فى وجه العلماء من غير المسلمين .

ولنضرب مثلا بمدينة تونس ، فإن فيها وحدها ما يزيد عن مائتى بناء دينى ، لا يعرف العلماء عنها قليلا أو كثيراً من الناحية الأثرية . وأغلب الظن

أن قيمة كثير من هذه الآثار ضئيلة ، ولكن من بينها ما تجب دراسته دراسة دقيقة وافية .

ومسجد الزيتونة الجامع هو أشد آثار العاصمة التونسية أهمية ، وأقدمها تاريخاً ، وأروعها مظهراً . وقد اشتهر هذا المسجد بالجامعة الإسلامية التى تعد من أكثر الجامعات الإسلامية شهرة وأقدمها عهداً فى بلاد المغرب .

ولم يسجل المؤرخون عن تاريخ هذا المسجد إلا النذر اليسير ، وقال البعض منهم إن حسان بن النعمان بنى فى تونس مسجداً غداة فتحه لها سنة ٨٤ (٧٠٣م) ، وهذا النص مبهم ولا يقصد به مسجد الزيتونة نفسه[٢].

أما أول إشارة إلى مسجد الزيتونة ، فقد جاءت فى كتاب (المسالك والممالك) لأبى عبيد الله البكرى ، إذ جاء فيه أن عبيد الله بن الحجاب ، لما ولى إفريقية ، بنى فى تونس مسجد الزيتونة سنة ١١٤ (٧٣٢م) . وجاء هذا الخبر فى كتاب (المغرب) لابن عذارى ، إلا أنه حدده فى سنة ١١٦ ، ولكن التاريخ الذى أورده البكرى أولى بالثقة ، لما يعرف عن هذا المؤلف من دقة أسانيده[٣]. وذكر مؤرخ آخر أن الأمير أبا إبراهيم أحمد بنى المسجد الجامع فى تونس[٤]. وأغلب الظن أن أعمال البناء بدأت فيه سنة ٢٤٨ (٨٦٣م ،) ومات الأمير بعد ذلك فى شهر ذى القعدة من السنة التالية (يناير ٨٦٤) . ولم تكن أعمال البناء قد تمت ، فأتمها أخوه الأمير زيادة الله[٥] . ولم تطل أيام هذا الأمير وتوفى فى شهر ذى القعدة من السنة التالية ٢٥٠ (ديسمبر ٨٦٤) . ولا شك أن هذا هو السبب فى أن إسمى الأميرين لم يسجلا فى نقوش المسجد التاريخية ، ولم يظهر فيها غير اسم الخليفة العباسى فى ذلك العهد وهو المستعين بالله .

ولم يرد بعد ذلك شيء عن تاريخ المسجد فيما وصل إلى أيدينا من كتب التاريخ غير ما جاء فى (تاريخ الدولتين) وهو كتاب منسوب للزركشى ، الذى عاش فى القرن العاشر (السادس عشر الميلادى) ، وفيه أن الملك (الواثق) جدد مسجد الزيتونة وأصلح فيه وجمّله شهر شعبان من سنة ٦٧٦ (١٢٧٧ — ٧٨ م)[٦]. وجاء فى الكتاب نفسه أن السلطان (يحيى زكريا) أمر بعمل

أبواب من الخشب فى مسجد الزيتونة وإقامة أوتار عارضة فى بيت الصلاة ، وكان ذلك سنة ٧١٦ (١٣١٦ م)[٧] .

هذا هو كل ما ظفرنا به عن تاريخ مسجد الزيتونة فى كتب التاريخ ، وهى معلومات ضئيلة مبهمة . لو تركت وحدها لعلماء الآثار لتضاربت الأقوال فى بنيان المسجد ، وتشعبت فى تحديد تواريخ عناصره . غير أن هذا المسجد قد احتفظ بمراحل تطوره على ممر السنين ، فهو يسجل تاريخه بنفسه ، أو كتابه فى حجارته . فمسجد الزيتونة من هذه الناحية أثر فريد فى العالم ، وكأنه متحف للنقوش التاريخية ، فقد أنشىء وجدّد وأصلح وأضيف إليه وزيد فيه ، وجمّل وزخرف فى عصور مختلفة ، وقد سجل كل هذا بدقة فى نصوص تاريخية ، تسجل على الحجارة كل عمل تم فيه من هذه الأعمال .

بل وأكثر من هذا ، نجد النص فيه قد سجل أحياناً مرتين . فإنه ذكر فى نقش يجرى حول قاعدة القبة المربعة إنها مما أمر بعمله الإمام المستعين بالله على يدى نصير مولاه سنة خمسين ومائتين وإن الذى صنعها (فتح الله) . ويجرى هذا النص بعينه ، مرة ثانية ، على واجهة الأسكوب السابع من ناحية الصحن فى إطار يمتد فوق جدار العقود من أول بيت الصلاة إلى نهايته . ونلقى فى قبة البهو مثلا رائعاً آخر من الحرص والدقة التاريخية ، فهذه القبة تحمل أيضاً نصاً تاريخياً يجرى حول قاعدتها المربعة ذكر فيه إن العمل « تم فى سنة إحدى . . . . وثلثمائة » . وسقط الحجر الذى يحمل عدد العشرات ، وضاع نصه . وبين الواحد والثلاثمائة تقع عشرات من السنين يستحيل على عالم الآثار فى هذه القبة بالذات أن يحدد أيها أقرب إلى الصحة[٨] . وكأن بناء هذه القبة قد توقع ما كان مقدراً لتاريخها ، فسجل هذا التاريخ مفصلا على طنفة تاج من تيجان الأعمدة التى ترتكز عليها هذه القبة ، ونقرأ فيه « كان ابتداء العمل فى المجنبات والداموس والقبة فى شهر ربيع الأول من سنة ثمانين وثلثمائة وتم جميع ذلك فى شهر جماد الأول من سنة خمس وثمانين » (٩٩٥ م) . ونقرأ على طنفة أخرى من تاج مجاور إن الذين قاموا بهذا العمل جميعاً ثلاثة هم « أحمد التونسى وأبو الثنا وعبد الله القفاص » . ولست أعرف أثراً من الآثار يسجّل

مرتين ، بمثل هذه الدقة والإيضاح ، تاريخ الأعمال التى أجريت فيه .

ونعرف فوق هذا من نقوش المسجد المنحوتة على الحجارة أن باباً فتح فى بيت الصلاة سنة ٤٥٧ (١٠٦٤م) فى جداره الشرقى عند نهاية الأسكوب الرابع [٩] ، وأن باباً آخر فتح فى الجدار الشمالى للمسجد مواجهاً لبلاطة المحراب ، وتم ذلك فى سنة (٤٧٤ ١٠٨١م) ، وأن السقاية القائمة فى الطرف الشمالى الشرقى أنشئت سنة ٦٤٨ (١٢٥٠ م) ، وجدّدت سنة ٨٤١ (١٤٣٧ م) ، وأنه فى سنة ١٠٤٧ (١٦٣٧) تم إنشاء صحن الجنائز على واجهة المسجد الشرقية ، من أولها إلى آخرها وسقفها وكذلك الدرج الطالع الكبير الملاصق للسقاية والدرج الطالع الملاصق المقصورة العبدلية » . وكان البكرى قد ذكر قبل ذلك أن جامع الزيتونة كان مرتفعاً فى بنائه عن سطح البحر وأنه كان يرقى إليه « من جهة الشرق على اثنتى عشرة درجة [١٠]. وصحن الجنائز هذا بناء فسيح عرضه ستة أمتار ونصف وطوله أربعة وعشرون متراً وهو يصل بين مقصورة الإمام فى الطرف الجنوبى الشرقى من المسجد ، وهى اليوم المكتبة الحمدونية ، وبين المكتبه العبدلية فى الطرف الشمالى الشرقى ، وهى التى تعلو السقاية والداموس .

ونقش حول القبة نص هام تاريخه سنة ١٠٤٨ (١٦٣٨ م) وقد جاء فيه أنه تم فى تلك السنة إحياء هذه القبة الشريفة وتجديدها وثبات حال منشئها وتأسيسها » ، وقد نقش هذا النص على زخارف من الجص بأسلوب أندلسى متأخر . وتكسو هذه الزخارف عقود القبة وقاعدتها ومقرنصاتها من الجهات الأربعة ، وتمتد هذه الزخارف أيضاً على تجويف المحراب وعلى الجدار المحيط به أمام أسطوانته . ولا شك فى أن هذا المحراب قد جدّد تجديداً شاملا فيما جدد سنتى ١٠٤٧ و ١٠٤٨ (١٦٣٧ و ١٦٣٨ م) « على يدى الشيخ الإمام الهمام علم الأعلام والمحققين الوالى الصالح أبى الأمداد أبى عبد الله محمد تاج العارفين العثمانى القرشى ناظر هذا المسجد الجامع وإمامه وخطيبه » . ولعل هذا المحراب كان قد تناوله الإصلاح قبل ذلك ، إذ أن ساريتين من سواريه الأربعة التى يرتقى عليها العقد المحيط بقمته تنتميان إلى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) .

وبالمسجد ثريا من النحاس ، عظيمة الحجم ، بديعة الصناعة ، تنتصف بلاطة المحراب « صنعها أبو بكر بن أحمد الزبيدى » وفرغ من عملها وتعليقها فى مكانها من الجامع الأعظم جامع الزيتونة من حظيرة تونس المحروسة فى شهر رمضان المعظم من عام إحدى وعشرين وسبعمائة » (١٣٢١ م) . وعلى المنبر نص يوضح أنه جدد وكمل سنة إحدى وتسعين وتسعمائة (١٥٨١ م) وعلى بابين من أبواب بيت الصلاة ذكر أن سقفه الخشبية جددت أو أصلحت مرتين ، المرة الأولى سنة ١١٧٧ (١٧٦٣ م) ، والمرة الثانية بعد ذلك بعشرين سنة فى سنة ١١٩٧ (١٧٨٢ م) .

وتداعت مئذنة المسجد الأولى ، فهدمت كلها ، وأقيمت على أسسها مئذنة « تضم إلى بهجة النظر إتقان اصطناع » وكمل بناؤها فى شهر رمضان من سنة ١٣١٢ (٨١٩٢) ، وأقيمت على طراز مآذن بلاد المغرب والأندلس . وأخيراً سجلت تحت قاعدة قبة البهو الأعمال التى كان لى شرف الإشارة بإجرائها فى قبتى المسجد ، والتى تمت سنة ١٣٥٩ (١٩٣٩ م) ، واقتصرت على إزالة طبقات الجص التى كانت تخفى معالم هاتين القبتين من الخارج ، وعلى تدعيم بعض حجارتها .

٢

نستطيع إذن بفضل نقوش المسجد التاريخية التى ذكرناها ، وبعد أن تحققنا من مطابقتها للنتائج التى أسفرت عنها دراستنا الأثرية لعناصر بنيان المسجد وزخارفه ، نستطيع أن نستعرض مراحل تكوين هذا البناء منذ نشأته .

والناظر إلى مسجد الزيتونة من أعلى مئذنته يروعه فسحة هذا المسجد وانبساطه ، ويبهره إبداع قبتيه وعظمتهما (شكل ١٠) ، تقوم إحداهما فى مقدمته مشيرة إلى المحراب ، وترقى الثانية وسط بهوه ، فى نهاية بلاطة هذا المحراب. والداخل إلى بيت الصلاة تأخذه الرهبة ويخيل إليه إنه ينتقل فى حقل متسع من النخيل ، لا يدرك النظر مداه ، « استبدلت بجزوع النخل فيه أعمدة من الحجارة » ، تمتد فيه صفوف الأعمدة وتتسلسل فيه حلقات العقود ، فلا يلحظ

النظر بدايتها ، ولا يقف لها على نهاية (شكل ٣) . ويزداد الإعجاب بهذا البيت من دقة البناء ، وسلامة احتفاظه برونقه . وإذا كان بيت صلاة مسجد الزيتونة أقل فسحة من بعض بيوت الصلاة فى المساجد العتيقة الباقية ، فهو لا شك من أبدعها مظهراً ، وأقدمها عهداً ، وقد لا يسبقه من هذه المساجد الجامعة ، فى مرحلة التاريخ وفى مرتبة الإبداع ، غير ثلاثة مساجد : القيروان وقرطبة وسوسة .

وتخطيط المسجد (شكل ١) محصور فى مربع غير منظم الأضلاع ، طول جدار القبلة الخارجى فيه ٦١ متراً والجدار الشرقى ٦٥ متراً ، والجدار الشمالى ٥٧ متراً ، والجدار العربى ٧٦ متراً ، وذلك بعد حذف الإضافات التى أدخلت على الواجهة الشرقية فى القرنين الرابع والسابع وفى القرن الحادى عشر (العاشر والثالث عشر والسابع عشر الميلادية) ، وهى مبانى المكتبتين الحمدونية والعبدلية والداموس والسقاية وصحن الجنائز .

هذه المبانى تكون قسما يكاد يكون مستقلا من تخطيط المسجد . وبهذا التخطيط قسمان آخران ، تظهر معالمهما واضحة فى الشكل ، أولهما يشمل بيت الصلاة والمقصورة العليا الغربية والمحراب والمقاصير المحيطة به ، ومنها بيت المنبر ومقصورة الإمام ، وثانيهما يشمل بهو المسجد ومجنباته وصومعته .

أما بيت الصلاة فينقسم إلى سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة ، يبلغ طول كل واحد منها أربعة وخمسين متراً ونصف المتر ، وتجتازها خمس عشرة بلاطة تبلغ طول الواحدة منها خمسة وعشرين متراً ، ومتوسط عرض كل من الأساكيب والبلاطات ، فيما بين الأعمدة ، ثلاثة أمتار ، عدا أسكوب المحراب ، فعرضه أربعة أمتار وثلاثون سنتيمتراً ، وبلاطة المحراب فعرضها أربعة أمتار وثمانون سنتيمتراً .

وأما بهو المسجد فيكون مستطيلا غير منتظم الأضلاع ، يبلغ اكثر أضلاعه طولا ٥٧ متراً ، وهو الجدار الشمالى ، أو جدار الجوف ، وإذا أضفنا إليه السقاية والداموس والمكتبة العبدلية التى تعلوها بلغ طول هذا الضلع ٦٨ متراً .

وإذا أردنا أن نرسم تخطيط المسجد على ما كان عليه فى سنة ٢٥٠ (٨٦٤م)

فعلينا أن نحذف من شكله الحالى مجنبات الصحن الأربعة، ومقاصير المحراب ، والقسم الشرقى جميعه الذى يمتد من المكتبة الحمدونية إلى المكتبة العبدلية ماراً بصحن الجنائز . ولا يدخل فى وضع هذا الرسم أى عنصر خيالى أو فرضى ، فإن حدوده مبنية فى النقوش التاريخية المسجلة فى المسجد ، كما أن عناصر البنيان توضحه وتؤكده .

ولعله ينقصنا نقش واحد ، وهو النقش الذى يسجل تاريخ إنشاء عبيد الله بن الحبحاب لمسجد الزيتونة سنة ١١٤ (٧٣٢ م) . وقد رأينا أن البكرى قد ذكر هذا الخبر ، والمعروف أن البكرى قد استقى معلوماته من كتاب فى أخبار تونس كتبه محمد بن يوسف بن الوراق التاريخى ، وهو مؤرخ عاش فى منتصف القرن الرابع الهجرى ومات سنة ٣٦٣ (٩٧٣ — ٧٤) . ولهذا لا نشك فيما كتبه البكرى ، كما أن ثقة العلماء به عظيمة . لم يحتفظ مسجد الزيتونة إذن بسجل إنشائه ، ويؤسفنا أننا لم نستطع بعد تحديد هذا المسجد الأول تحديداً دقيقاً لأن عناصر البنيان الظاهرة لا تساعدُ على التحقق من مراحلها الأولى ، كما أننا لم نتمكن من إجراء حفريات للكشف عن أسس هذا المسجد . غير أننا مع ذلك نستطيع أن نتبين من تخطيط المسجد صحة النص التاريخى الذى نقله البكرى.

فالواقع أن الناظر إلى تخطيط بيت الصلاة (شكل ٢) ، يلاحظ انحراف المحراب عن سمت هذا البيت . ويبدو هذا الانحراف واضحاً فى تخطيط المسجد الذى يشمل بيت الصلاة فيه سبعة أساكيب ، ولكن ظهور هذا الانحراف يقل وضوحاً إذا كان بيت الصلاة يقتصر على أربعة أساكيب . والمعروف أن أكثر المساجد التى أقيمت فى القرنين الأول والثانى الهجرى كانت بيوت الصلاة فيها قاصرة على ثلاثة أو أربعة أساكيب . ومن رأينا أنه أضيفت إلى مسجد الزيتونة فى سنة ٢٥٠ هجرية ثلاثة أساكيب أخرى ، فبدى انحراف المحراب بعد أن لم يكن ظاهراً .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فسنرى أن فتح الله ، وهو بنّاء المسجد فى عصر الأغالبة ، قد صرف جهداً كبيراً فى إقامة بنيان عقوده ، وفى إحكام

صنعها ، وخاصة فى بناء قبة المحراب التى تحمل تاريخها ، والتى تدل عناصر بنيانها على مهارة فائقة وعلم دقيق . غير أن البحث فى نظام هذه القبة يدل على أنه بينما تقوم مقرنصاتها على قاعدة مربعة سليمة متساوية الأضلاع ، نلاحظ أن قاعدة أسس القبة ، وهى التى تقوم عليها عمدها ، ترسم مربعاً مختلا غير متساوى الأضلاع . ويجب علينا أن نبحث عن السبب فى هذا الاختلاف ، وعن الدوافع التى حملت البنّاء على أن يقيم أسس بنائه على قاعدة تنحرف عن مساقط جدران القبة ، فيعرضها للخلل ، مع أن النظم المعمارية السليمة تتطلب أن تكون المساقط الرأسية لطوابق القبة متساوية مستقيمة ، ومع أن هذا البنّاء قد أثبت علمه بأصول العمارة ، ومهارته فى صناعة البناء . ويبدو هذا الاختلاف أكثر وضوحاً عند مقارنة قاعدة هذه القبة بقاعدة قبة البهو التى أقيمت بعد ذلك بمائة وثلاثين سنة ، فى موضع كان خالياً من البنيان . إذ أن هذه القاعدة الأخيرة ترسم مربعاً سليما متساوى الأضلاع ، مطابقاً لمساقط طابق المقرنصات .

ولهذين السببين ، انحراف المحراب واختلاف قاعدة قبته ، أستطيع أن أؤكد أن مسجد الزيتونة كان قائماً قبل سنة ٢٤٨ (٨٦٢ م) ، وأن بيت الصلاة فيه كان يقتصر على أربعة أساكيب ، وأنه زيدت فيه فى تلك السنة ثلاثة أخرى ، كما أقيمت القبة أمام المحراب ، فى موضع لم يكن للبنّاء حيلة فى تعديله وتنظيمه ، ولكنه أثبت على كل حال مهارة فى استخدامه وتسقيفه .

وفوق هذا فإن بجوفة المحراب لوحة منقوشة من الحجارة ، كتبت عليها آيات قرآنية بخط كوفى جميل ، توحى نقوشه على أنها أقرب عهداً إلى أوائل القرن الثانى الهجرى ، منها إلى منتصف القرن الثالث .

هذا كل ما نستطيع أن نقدمه ، فى الوقت الراهن ، عن مسجد عبيد الله بن الحبحاب ، ومن حق هذا المسجد علينا ألا نغامر برسم تصورى أكثر تفصيلا لتخطيطه .

أما مسجد الأغالبة فإنه يحدده تحديداً دقيقاً نقشان تاريخيان يحملان سنة ٢٥٠ : أحدهما عند المحراب ، والآخر يمتد على واجهة الأسكوب السابع

المطل على الصحن ، من أولها إلى آخرها ، أى أنه لا شك فى أن بيت الصلاة كله ، فيما عدا مجنبة الصحن الشمالية ، كان قائماً فى تلك السنة

وتخطيط هذا البيت يفصح أكثر من تخطيط أى بيت صلاة من بيوت المساجد العتيقة عن النظام المعمارى لبناء المساجد . وقد يبدو لأول وهلة من النظر إلى هذا التخطيط (شكل ٢) أنه روعى فى تقسيم هذا البيت أن تُرسم بلاطاته أولا وتُحدد خطوطها . ولكن البحث فى هذا التخطيط يتمخض عن عكس ذلك . فإنه يتضح لنا أن خطوط الأساكيب موازية موازاة تامة لجدار القبلة . والمعروف أن جدار القبلة هذا هو العنصر الرئيسى لتخطيط المسجد ، وأن الخط الذى يحدد هذا الجدار هو الذى يحدد اتجاه القبلة ، وهو أول ما يختط فى الموضع المختار للبناء ، وأول جزء من منهاج عمارة المسجد ونظامه ، بل هو المحور الذى تقوم عليه عناصر هذا النظام وتتفرع منه .

ويتلو ذلك ، تخطيط هذه العناصر الأخرى ، وفى مقدمتها المحراب ، وهو نقطة ما على جدار القبلة ، وكل نقطة فى هذا الجدار تصلح أن تكون محراباً ، والأمثلة على ذلك لا حصر لعددها فى المساجد . ثم تُخط الأساكيب ، وقد دلنا البحث على أن أبعاد هذه الأساكيب بالنسبة لجدار القبلة ، متطابقة تماماً ، فى كل نقطة من نقط خطوطها ، أى أن البعد بين نقطة البداية جدار القبلة ونقطة بداية أسكوب ما ، شرقى المحراب ، يساوى تماماً البعد بين نقطة نهاية هذا الجدار ونقطة نهاية الأسكوب نفسه ، غربى المحراب ، أو أننا إذا اتبعنا نظرية هندسية معروفة ، ورسمنا خطين عمودين على الخط الذى يبين جدار القبلة ، أحدهما فى الطرف الشرقى والآخر فى طرفه الغربى ، لاتضح لنا أن هذين الخطين عموديان أيضاً على جميع الخطوط التى تبين حدود أساكيب بيت الصلاة ، وعلى عكس ذلك يتضح لنا أن الخطوط التى تبين حدود البلاطة تختلف أبعادها ، لا بالنسبة لبعضها البعض فحسب ، بل على الأخص عند بداية البلاطة أمام أسكوب المحراب ، وعند نهايتها نفسها أمام بهو المسجد . ومن هذا يثبت بصفة قاطعة خطأ النظرية التى يعلنها جميع علماء الآثار المستشرقين ، والتى يدعون فيها أن محور تخطيط المسجد هو الخط الممتد من المحراب إلى

الصحن فى اتجاه القبلة : أى الخط العمودى على جدار القبلة مبتدئاً من نقطة المحراب ، وأن موضع الأعمدة والدعائم فى بيت الصلاة تخط تبعاً لهذا المحور ، موازية له ، إذ أن الواقع غير ذلك ، فاتجاه خطوط البلاطات تنحرف انحرافاً واضحاً عن هذا المحور المزعوم ، فوق أنها ليست متوازية فيما بينها أو متعادلة . وليس هنالك برهان أكثر بلاغة على أن جدار القبلة هو محور تخطيط بيت الصلاة فى المساجد ، من تخطيط هذا البيت فى مسجد الزيتونة . فأساس تنظيم بيوت الصلاة يقوم على تقسيمها إلى خطوط موازية لجدار القبلة ، هى حدود الأساكيب ، سواء انتظمت بعد ذلك أم لم تنتظم الخطوط المتقاطعة معها ، وهى حدود البلاطات . وقد روعى أن يعبر تخطيط المساجد عن فكرة دينية خاصة ، وأن توضع نظمه لتحقيق أداء فرض محدود من فروض الإسلام ، وليس لهذا التخطيط ولهذه النظم أى صلة بتخطيط الآثار التى سبقت الإسلام أو ينظمها . وأستطيع أن أؤكد مرة أخرى أن المسجد نظام معمارى مبتكر ، وأن تخطيطه ونظمه هى أساس العمارة الإسلامية كلها ، وأن بساطة هذا النظام هى التى يرجع إليها الفضل قبل كل شىء فيما خلده بناة الإسلام طيلة القرون الثلاثة عشر الماضية من آثار عظيمة رائعة ، إن كانت تتصف بتنوع أشكالها تنوعاً شديداً ، إلا أنها جميعاً تعبر عن وحدة الفكرة والغاية ، وتفصح عن تماثل السبل والتنفيذ ، وتنعكس عليها صورة متطابقة من النظم التخطيطية .

هذه النظم التخطيطية تنطبع فى أبسط مظاهرها على الرسم التخطيطى لمسجد رباط سوسه[11] ، وهو مسجد أنشىء سنة ٢٠٦ (٨٢١ م) ، ويقتصر بيت الصلاة فيه على أسكوبين اثنين ، تمتد حدودهما فى موازاة جدار القبلة ، ويبدو محراب المسجد فى هذا الجدار كأنه جزء إضافى فيه . وسنعود فيما بعد إلى ذكر هذا المسجد والإشارة إلى اتساع أسكوب محرابه . وبالقرب من رباط سوسه ، شيد المسجد الجامع سنة ٢٣٦ (٨٥٠ م) . وخُط حينئذ بيت الصلاة فيه من ثلاثة أساكيب موازية موازاة تامة لجدار القبلة[12] ، تطبيقاً للفكرة الدينية التى نشأت قبل ذلك بأكثر من قرنين ، وتحقيقاً للنظام التخطيطى الذى سبق لنا منذ سنوات إيضاحه وتفسيره ، كما سبق لنا أن أثبتنا أصالة الفكرة التى

أوحت بابتكاره ، وتعارض هذا النظام من نواح عديدة للأصول التى ادعى المستشرقون اشتقاقه منها[١٣] .

ويبدو لنا أننا قد أفضنا شرح هذا الموضوع ولم يعد ما يدعونا إلى زيادة الشرح ، أو استعراض أمثلة أخرى غير التى سبق أن ذكرناها . ومع ذلك فقد يكون من المفيد أن نرجع إلى مسجد عمرو بالقاهرة ، ونستشهد بنتائج الحفائر التى أجريت فيه أخيراً ، والتى يسرت للبحاثة إعادة رسم تخطيطه كما كان عليه فى سنة ٢١٢ (٨٢٧ م) ، واكتشاف أسس تخطيط المسجد الأول الذى أقامه عمرو بن العاص سنة إحدى وعشرين (٦٤١ م) (١٤) . ويتضح من هذه النتائج أن أساكيب بيت الصلاة ظلت محافظة لموازاتها لجدار القبلة العتيق ، ولجدار القبلة الذى أقيم فى سنة ٢١٢ (٨٢٧ م) ، ولذلك بالرغم من الإضافات العديدة التى أدخلت على بيت الصلاة منذ عهده الأول ، فى أجزاء منه وفى اتجاهات مختلفة ، وبالرغم من أن جدار القبلة نفسه نقل برمته إلى مسافة عشرين متراً مربعاً تقريباً جنوبى بيت الصلاة ، وبالرغم من أنه اتضح لشيوخ ذلك العهد أن القبلة منحرفة إنحرافاً يسيراً عن إتجاهها الصحيح[١٥]

والأمر كذلك فى جميع المساجد ، سواء كانت عقود بيت الصلاة فيها نظمت فى صفوف متجهة نحو القبلة ، كما هو الحال فى مسجدى القيروان والزيتونة ، أو كانت هذه العقود صفت فى صفوف ممتدة من شرقى هذا البيت إلى غربيه ، متعارضة مع اتجاه القبلة ، كما هو الحال فى مسجدى ابن طولون فى القاهرة والقرويين فى فاس . ومهما كان اتجاه العقود ، فإن أسس الأعمدة والدعائم التى تحمل هذه العقود تخط وتوضع حتما ، ومن غير استثناء ، فى صفوف موازية موازاة تامة لجدار القبلة .

وهناك تفصيل آخر من نظام المساجد يوضحه تخطيط مسجد الزيتونة ، وهو التشابه المزعوم بين سعة فناء الكنيسة وذراعها ، وسعة أسكوب المحراب وبلاطته[١٦]. وفى هذا نجد أن بناء الزيتونة اقتبس هذا النظام فيما اقتبسه من أنظمة وعاصر أخرى عن مسجد القيروان . وقد بحثنا هذا الموضوع فى كتابنا عن هذا المسجد الأخير[١٧]، ولسنا نحاول هنا أن نعيد ما سبق لنا ذكره فى

دحض هذا الزعم ، ولكننا سنحاول أن نستخلص من مسجد الزيتونة حججاً أخرى لتدعيم الرأى الذى كنا انتهينا إليه ، من أن النظامين يختلفان اختلافاً جوهرياً ، وأنه ليس هناك محل للشبه أو التقريب بينهما .

ويجدر بنا أولا أن نصحح الخطأ الذى وقع فيه بعض الكتاب فى مصر من إطلاقهم اسم المجاز على بلاطة المحراب ، تشبيها برحبة الكنيسة وفنائها . فليست بلاطة المحراب مجازاً فى بيت الصلاة ، وليست هى الممر الرئيسى لهذا البيت ، أو مدخل الشرف فيه . إذ أن أبواب المسجد الكبرى قد فتحت فى جداريه الشرقى والغربى . عن يمين المحراب ويساره ، ويدخل المصلون إلى بيت الصلاة من هذه الأبواب ، أما مباشرة بالنسبة للأبواب المفتوحة فى هذا البيت ، أو عن طريق أروقة الصحن ، بالنسبة للأبواب المفتوحة فى هذه الأروقة . والأمر كذلك فى جميع المساجد الأولى الباقية ، ويجدر بنا كذلك أن نشير إلى أن معظم هذه المساجد ، مثل القيروان وسوسه وابن طولون ، لم تفتح أبواب ، فى أجوافها ، أى فى الجدران المقابلة لجدار القبلة وهى الجدران الشمالية . وإذا كان فى الجدار الشمالى لمسجد الزيتونة باب مقابل للمحراب فقد رأينا أن هذا الباب فتح فيما بعد ، فى سنة ٤٧٤ (١٠٨١ م) . ومع ذلك فأيا كانت مواضع أبواب المسجد فإنه قل أن يأخذ المصلون طريقهم إلى بيت الصلاة عن بلاطة المحراب ، أو عن هذا المجاز المدعى . وإنما يأخذون طريقهم إليه عن أقرب بلاطاته إلى الباب الذى دخلوا منه ، وإلى الموضع الذى يريدون أن يقفوا فيه لأداء الصلاة . ولهذا كانت بلاطة المحراب أقل البلاطات مجازاً ، لأنها أبعد البلاطات جميعاً عن أبواب المسجد ، ووقفة واحدة فى صحن مسجد من المساجد ، أو نظرة عابرة لتخطيط مسجد الزيتونة ، تكفى للتأكد من هذه الحقيقة .

وثمة حقيقة ثانية ، وهى أن بلاطة المحراب فى مسجد الزيتونة لا يمكن أن تشير إلى اتجاه القبلة ، سواء من بنائها الداخلى أو من بنائها الخارجى ، إذ قد رأينا أن اتجاه هذه البلاطة منحرف عن اتجاه القبلة . بينما تنتصب رحبة الكنيسة أو فناؤها على محورها ، وتمتد حتما فى خط الاتجاه إلى محرابها .

أما عن زيادة سعة بلاطة المحراب عن بقية بلاطات بيت الصلاة ، فهى

لا تظهر بوضوح إلا على الرسم التخطيطى ، أما على الطبيعة فيصعب تمييزها (شكل ٣) ، إلا إذا دقق الناظر الملاحظة ، وتبين له ارتفاع هذه البلاطة عن أعمدة جاراتها ، وصوب النظر إلى زخارف الجدران العليا على جانبيها (شكل ٤) . وعلى كل حال فإن سعة بلاطة المحراب تبلغ ٤ أمتار و ٨٠ سنتيمتراً ، وتبلغ سعة كل من البلاطات الأخرى ثلاثة أمتار و ١٥ سنتيمتراً ، وقد تزيد بعضها عن هذا القدر . أما من حيث الارتفاع فلا تعلو عقود بلاطة المحراب عن بقية عقود بيت الصلاة أكثر من نصف متر .

وهنا يجدر بنا أن نوضح السبب فى اتساع بلاطة المحراب عن زميلاتها . والرد الوحيد على هذا السؤال يستخرج من قبة المحراب . فالقبة تحتاج إلى قاعدة مربعة ، فى الموضع الذى خصص لها ، أمام المحراب ، عند تقاطع أسكوبه وبلاطته . فكان لا مفر من أن يكون عرض هذه البلاطة مساوياً لعرض أسكوب المحراب ، وتم الأمر على هذا الوجه عند إقامة قبة البهو فى سنة ٣٨١ (٩٩١ م) على نهاية بلاطة المحراب . فقد أعد الأسكوب الجديد المطل على الصحن بحيث يكون عرضه مساوياً لعرض بلاطة المحراب ، وبحيث ينتج من تقاطعها قاعدة مربعة لإقامة القبة الجديدة . وهكذا أصبح هذا الأسكوب أكثر سعة من بقية أساكيب المسجد ، ولم يعد هناك وجه للشبه بينه وبين ذراع الكنيسة . إذ أن تخطيط بيت الصلاة أصبح يضم رسماً على شكل الهاء اللاتينية المنبطحة لا على شكل التاء (T) كما يزعم بعض علماء الآثار المستشرقين .

ولا تقتصر حجتنا على نظام مسجدى الزيتونة والقيروان . إذ نستطيع أن نؤكد أنه ليس فى المساجد التى أقيمت فى القرون الأولى للإسلام بيت صلاة واحد يرسم شكل التاء اللاتينية (T) ما لم تشيد قبة أمام محرابه . بل أن بعض المساجد ذات القباب لا ترسم هذا الشكل وترسم أشكالا مغايرة له .

وقد نجد فى بعض بيوت الصلاة أن بلاطة المحراب تتسع وحدها دون أسكوبه . كما هو الحال فى مسجد قرطبة الجامع [١٨] ، وفى مسجدى أبى دلف [١٩] وسامراء [٢٠] . ولكن اتساع هذه البلاطات ضئيل إلى حد أنه لا يلاحظ إطلاقاً إلا إذا قيست مقاساً دقيقاً ، وقيست بالمثل البلاطات المجاورة لها . ففى مسجد

قرطبة ، مثلا ، لا تبلغ زيادة سعة بلاطة المحراب عن بقية البلاطات أكثر من سدس بلاطة ، وهذه النسبة فى زيادة سعة بلاطة المحراب تكاد تكون هى نفس النسبة فى المسجدين الآخرين ، أبى دلف وسامراء . ونجد فى غالبية المساجد أن أسكوب المحراب هو وحده الذى تزداد سعته عن بقية الأساكيب . ولعل أكثر الأمثلة وضوحاً لهذه الظاهرة هو مسجد رباط سوسة الذى سبق أن أشرنا إليه ، والذى يتكون من أسكوبين : أحدهما وهو أسكوب المحراب يتسع اتساعاً ملحوظاً ، سواء على الطبيعة ، أو على الرسم ، عن الأسكوب الثانى . وقد سبق لنا أن شرحنا الأسباب التى استدعت تنظيم أسكوب المحراب على هذه الصفة من الاتساع [٢١] .

أما فى المساجد ذات القباب ، فإنه يلاحظ دائماً أن تتسع البلاطة كما يتسع الأسكوب الذى تقوم القبة على تقاطعهما . ولكنه ليس من الضرورى أن يترتب على ذلك شكل التاء اللاتينية ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، ويكفينا أن نذكر منها مثلا واحداً هو مسجد حسن فى الرباط [٢٢]. إذ أن أحد علماء الآثار الفرنسيين قد درس هذا الموضوع دراسة وافية أوضح فيها أن القبة عامل رئيسى يتدخل حتما فى تعديل نظام بيت الصلاة . وأن قاعدتها المربعة تستوجب امتداد ضلوع هذه القاعدة بنفس الاتساع ، مع الاحتفاظ بتناسق أقسام هذا البيت . وانتهى هذا الأستاذ من بحثه إلى أن نظام المساجد بصفة عامة ، واتساع أساكيبه وبلاطاته ، وتكوين شكل التاء للاتينية فيها ، كل هذه النظم وليدة ابتكارات إسلامية أصيلة فى تاريخ العمارة [٢٣].

٣

يبدو بيت الصلاة فى مسجد الزيتونة كأنه متحف للفنون القديمة من حيث أعمدته وتيجانها ، فهى خليط اختلفت أنواعها واختلفت مصادرها . وكانت قبل وضعها فى هذا المسجد قائمة فى أطلال آثار رومانية وبيزنطية ، وقد كان هذا هو المتبع فى جميع المساجد التى أقيمت فى القرون الثلاثة الأولى

للهجرة . وإذا كنا نجد فى مسجد الزيتونة عمداً وتيجاناً إسلامية الصناعة والتشكيل، فإنها تنتمى إلى عصور متأخرة، وإلى القرن الخامس والسادس والسابع والحادى عشر (الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر والسابع عشر الميلادية) . أما بيت الصلاة نفسه فيخلو جميعه من العمد الإسلامية المصنوعة فى القرنين الثالث والرابع ، ما عدا قبة المحراب ، فإن العمد والتيجان القائمة فى طوابقها قد صنعت خصيصاً لها بأيدى إسلامية ، وسنعود إلى التحدث عنها فيما بعد .

نستخلص مما تقدم أن عمد بيت الصلاة وقواعدها وتيجانها غريبة عليه ، وأنها تخرج عن نطاق بحثنا هذا . أما عناصر البناء الإسلامية ، فإنها فى هذا المسجد تتكون من ثلاثة : الجدران والعقود والقباب . أما الجدران ، وهى حدود المسجد الفاصلة، فتكاد تستقل جملة عن بقية عناصر البناء . وقد كسيت جميعاً بطبقات جيرية جصية سميكة تخفى معالم بنائها ، ولكنا استطعنا أن نتبين من مواضع منقورة فيها أنها بنيت من قطع غير متساوية من الحجر الجيرى . والجدران ضخمة سميكة عرضها مائة وعشرون سنتيمتراً ، ويبلغ ارتفاعها تسعة أمتار ، وليس يلتصق بها سند أو دعامة ، ولو أنها قد ضمت إلى واجهاتها الخارجية القبلية والشمالية والغربية ، حوانيت صغيرة بنيت فيما بعد إنشاء المسجد ، وهى تخفى اليوم معالم هذه الواجهات . أما الواجهة الشرقية فقد أضيفت إليها كما رأينا المكتبتان العبدلية والحمدونية وصحن الجنائز ، ومما تجدر الإشارة إليه أنه لم تفتح فى جدران المسجد كلها نوافذ ، غير نافذة واحدة فتحت فوق طاقة المحراب وتحت منبت قبته .

وإذا كانت الجدران لا تفصح كثيراً عن دقائق النظم الإنشائية فى مسجد الزيتونة ، فإن عقود هذا المسجد تبين هذه الدقائق وتوضح أحكامها . وأول ما يبدو على هذه العقود أنها صنعت من صنج حجرية ، يبلغ سُمك القطعة منها أربعون سنتيمتراً ، وقطعت بعناية وتساو ، وصفت فى نظام محكم ، على طول العقود الممتدة بين بلاطات بيت الصلاة السبع عشرة وأساكيبه الخمسة . وكلها كانت قائمة فى منتصف القرن الثالث (التاسع الميلادى)[٢٤]. وطول هذه العقود جميعاً خمسمائة متراً . ويلاحظ أن العقود فى هذا البيت ، كالجدران ،

تكاد تكون مستقلة . فهى لا تمس الجدران ، وبالتالى لا تستند عليها ، لا عند بدايتها ولا عند انتهائها ، إلا فى الصفوف الثلاثة التى تحد أسكوب المحراب والأسكوبين الرابع والسابع . ومع ذلك فإن طرفى كل من هذه الصفوف الثلاثة يرتكزان كل منهما على عمود بجانب الجدار ، ولا يستندان عليه . كما أن الصف الأوسط من هذه الصفوف الثلاثة لا يخترق بلاطة المحراب ، وانقسم قسمين لا يربط بينهما رابط .

وهكذا يبدو جدار المسجد كأنه إطار خارج عن مجموعة العقود . والرسم التخطيطى للمسجد يؤكد هذه الصفة ويبينها بياناً قاطعاً . وليست الجدران على كل حال أداة تستند عليها هذه العقود ، كما أنها ليست عرضة لدفع يوهن تماسكها . أما صف العقود الذى مد على الجانب الداخلى للجدار الشرقى من بيت الصلاة فقد أقيم فى سنة ١٠٤٧ (١٦٣٧ م) ، عند بناء صحن الجنائز . إذ أن أرضية المسجد كانت مرتفعة من هذه الناحية . وقد سبق لنا أن أشرنا إلى ما ذكره البكرى من أنه كان يرقى إليها باثنى عشر درجاً[٢٥] ، فلعل هذا الصف قد أقيم لتقوية الجدار قبل أن توضع أسس هذه الإضافات الشرقية . وكذلك أقيم فى صحن الجنائز صف آخر على الجانب الخارجى للجدار نفسه ، حتى لا ترتكز العقود عليه ويبقى مستقلا عن بنائه . وتدل معالم أعمدة هذين الصفين من العقود وتيجانها ، كما يدل تنظيم صنجها ، على أنهما ينتميان إلى عصر واحد ، وإلى السنة التى سجل تاريخها على باب المسجد فى هذا الصحن .

جدران المسجد إذن عبارة عن أسوار خارجية له ، وكأنها إطار مستقل لمجموعة عقوده . والعقود فى هذا البناء تؤدى وظائف محدودة ، وأهمها إضاءة بيت الصلاة . فهى عقود متجاوزة أو شبيهة بحدية الفرس ، واصطلح البنّاءون المسلمون فيما مضى على تسميتها العقود المنفوخة . وقد اختلف العلماء فى تحديد أصل هذه العقود ونشأتها . وتنازعت أولوية هذا الأصل بلاد الفرس والجزيرة وآسيا الصغرى والهند وسوريا وأسبانيا الفيزيقوطية . وقد بحثنا هذا الموضوع تفصيلا ، واستخرجنا من العقد المنفوخ الذى ظهر لأول مرة فى القيروان سنة ١٠٥ (٧٢٤ م) أربع صفات فنية ، تجعل منه عنصراً مبتكراً فى العمارة

الإسلامية : وهى قوة المقاومة ، والتماسك الوثيق ، واقتصاد الجهد والمواد ، ووفرة الإضاءة[٢٦]. والظاهر أن بعض العلماء قد اعترضوا على صحة الصفتين الأوليين . وادعوا أن العقد النصف دائرى أكثر مقاومة وأشد تماسكاً من العقد المنفوخ . ولهذا يجدر بى أن أزيد الموضوع إيضاحاً إذ أننى لم أضرب الأمثلة مطلقة من كل شرط . ولم أتخذ من مقارنة حالة معينة مبدأ عاماً . وأقرر أن العقد المنفوخ أكثر مقاومة وأشد تماسكاً من العقد النصف دائرى فى حالة واحدة وهى ، إذا كان العقدان متساويان فى قطر دائرتيهما ، وكان منتهى الجدار الذى يحمله كل منهما يقف عند مستوى واحد . فمن البداهة أن احتمال العقد المنفوخ تزداد بقلة الحمل الذى يركبه ، وبانخفاض ارتفاع الحائط الذى يعلوه . ولكن هذه النتيجة تختل وتنعكس إذا كانت المقارنة بين عقدين ، أحدهما نصف دائرى والآخر منفوخ ، متساويين فى قطر دائرتيهما ، متعادلين فى حمل الحائط الذى يركبهما . فلا شك فى أن العقد الأولى ، فى هذه الحالة ، يكون أكثر قوة واحتمالا من العقد المنفوخ .

وليس الحال كذلك لا فى القيروان ولا فى الزيتونة . ولو أن رجال البناء أقاموا فى هذين المسجدين عقوداً من أنصاف دوائر ، بدلا من العقود المنفوخة ، فوق العمد القصيرة التى كانت بين أيديهم ، وأرادوا رفع السقف إلى المستوى الذى رفعوها إليه على عقودهم المنفوخة ، مع تحقيق إضاءة بيت الصلاة ، فإن النظم المعمارية فى بناء المسجدين كانت تختلف إختلافاً تاماً . وكانت وظيفة الجدران تتغير فلا تقتصر على إحاطة البناء . وقد رأينا أن عقود الزيتونة لا تتطلب سنداً من هذه الجدران ، فقوتها كامنة فى تكوينها ومناعتها ، مستمدة من تماسك أجزائها . حتى أن الأوتار التى تصل بين أطرافها ، والتى كانت تحول فى القيروان دون تفكك هذه الأطراف ، قد مدت فى الزيتونة فى غير اتجاه العقود (شكل ٥) ، واقتصرت وظيفتها على حمل قناديل المسجد ومشكاواته . هذا وقد سبق أن ذكرنا أن هذه الأوتار أضيفت إلى المسجد[٢٧]. فى أوائل القرن الثامن (الرابع عشر الميلادى) . فلا سبيل إلى الشك إذن فى ميزات العقد المنفوخ وفى صفاته المعمارية . وليس هناك ما يبرر الادعاء بأن صفتها الزخرفية هى الصفة الرئيسية

فيها[٢٨] . إذ أن استخدامها بصفة عامة فى العمارة الإسلامية يعد ابتكاراً فى نظم البناء لم يتبع فى أى فن من الفنون السابقة . أما أمثلة العقد المنفوخ « التى قابلها البحاثة فى سوريا . وفى آسيا الصغرى . أو فى الهند . فهى أمثلة منفردة . لا تنم إلا عن منظر زخرفى . ولا عن تفهم صحيح للميزات التى تتجمع فى عقود مسجد القيروان » أو مسجد الزيتونة[٢٩] .

لم يقتصر اقتباس بنّاء الزيتونة من القيروان على العقود ، فقد اقتبس عناصر أخرى كان قد ابتكرها بنّاء القيروان ، وخاصة الطريقة التى اتبعها هذا البناء فى تسوية ارتفاع الأعمدة ، وهى قصيرة غير متساوية ، وفى زيادة هذا الارتفاع . وتتكون هذه الطريقة من تزويد الأعمدة بعناصرها ثلاثة : قرمة فحدارة تعلوها طنفة .

ونجد هذه العناصر نفسها فى الزيتونة ، ولكنها تطورت تطوراً ملموساً . فلم تعد القرمة خشبية كما كانت فى القيروان ، بل صنعت من الحجارة . ونظمت حوافها بحيث ترتكز ارتكازاً وثيقاً على سطح التاج الذى تعلوه ، وتهئ أساسا أكثر ثباتاً للحدارة التى رفعت فوقها . وتطورت الحدارة فاكتست واجهاتها الأربعة بزخارف كانت منحوتة على لوحات جصية ألصقت بهذه الواجهات . إذ أن الزخارف الحالية أجريت أكثرها فى القرن الحادى عشر (السابع عشر الميلادى) . وتطورت الطنف كذلك . فانبجعت وبرزت حافتها بحيث تثبت عليها أقدام العقود . وجدير بالملاحظة أنه فى سنة ٢٦١ (٨٧٥ م) أضيفت مجنبات إلى صحن مسجد القيروان واتبع فيها نظام القرم والحدارات والطنف ، اقتباساً من القيروان والزيتونة معاً . ولكن الطريقة التى اتبعت فيها أدت إلى ظهور تطور ثالث لهذا النظام . إذ كسيت القرم والطنف بزخارف منحوتة وتركت الحدارات ملساء خالية من الزخارف . وهذا يؤكد ما سبق لنا إيضاحه من أن البناة المسلمين كانوا يقتبسون موضوعاتهم بعضهم مع بعض ، ولكن أحداً منهم لم ينقل الشكل نقلا قط عن سلفه أو زميله .

ونجد فى مسجد الزيتونة ابتكاراً جديداً فى هذه العناصر المعمارية ، وهو الحدارة المشتركة ، التى تمتد تحت أرجل العقود فى أسكوب المحراب . وقد

كسبت هذه الحدارات ، مثلها مثل بقية حدارات بيت الصلاة ، بزخارف جصية تناولها التجديد فى القرن الحادى عشر (السابع عشر الميلادى) . ولكن نظامها المعمارى يرجع إلى عهد بناء بيت الصلاة فى سنة ٢٥٠ (٨٦٤ م) . وقد تطور شكل الحدارة فأصبحت إهرامية مقلوبة ، شبيهة بالحدارة البيزنطية . ولكنها فى مسجد الزيتونة تتكون من حدارتين مزدوجتين ضمتا فى قطعة واحدة عريضة من الحجارة استخدمت لارتكاز عقدين ، عقد أسكوب المحراب ، وعقد البلاطة المبتدئة منه . فعقود أسكوب المحراب ، وهى موازية لجدار القبلة ، وعقود البلاطات المبتدئة من حد هذا الأسكوب ، وهى عمودية على جدار القبلة ، تشترك فى حدارات واحدة . وكذلك أعمدة هذه العقود ، مد صف منها فى محاذاة جدار القبلة ليتلقى عقود أسكوب المحراب ، وصف ثان ملاصق له ليتلقى بداية عقود البلاطات . وتكون من الصفين أعمدة مزدوجة ، عمودين عند بداية كل بلاطة ، ثم ربط العمودان بحدارة واحدة ، بعد أن كان لكل منهما ، فى مسجد القيروان ، حدارة مستقلة . فازداد ثبات الأعمدة بهذا الرباط ، واشتدت قوتهما على دفع ضغط العقود بهذه الحدارة المشتركة ، وصفا على مظهر بيت الصلاة جمال وإبداع .

ومظهر الجمال هذا يفيض على جميع أجزاء المسجد . كما إنا نلقى فى هذه الأجزاء حرصاً شديداً على أن تظهر قيمة كل عنصر واضحة جلية ، وعلى أن ينطق بالإتقان الفنى الذى صحب إخراجه . ولعل أكثر أجزاء المسجد إيضاحاً لهذا الحرص وهذه العناية هى مجموعتا الأعمدة الخماسية التى تحمل عقود قبة المحراب ، فقد نسقت بحيث تخفى اختلاف قاعدة القبة ، وعدم انتظام مربعها ، وطغى فيها حسن التنسيق على عيب التخطيط . وسنرى أن كمال الإنشاء الفنى يظهر بوضوح فى بناء قبتى المحراب والبهو .

٤

كانت تكسو قبتى المحراب والبهو طبقات كثيفة من الطلاء الجيرى تختفى وراءها معالمهما الخارجية (شكل ٧) . وقد استجابت إدارة الحبوس لرجائى

وقامت برفع هذه الطبقات . واستمرت هذه العملية ثلاث سنوات وانتهت سنة ١٩٣٩ . وكانت عملية دقيقة ، إذ كان هذا الطلاء يربط أجزاءً متداعية من القبتين ، وتطلب رفعه تثبيت هذه الأجزاء دون إخلال بعناصر القبة العتيقة. وهكذا أتيح لنا أن نمتع النظر بحسن مظهر هاتين القبتين (شكل ١٠) ، وأن نقدر أهميتهما الأثرية ، كما أتيح لنا أن ندرسهما دراسة تفصيلية ، سواء من الداخل أو من الخارج ، إذ أنه يحول دون رؤية التفاصيل الداخلية وتصويرها ستار من الأسلاك أعد لكيلا يتخذ الحمام من طاقات القبتين بيوتاً له ، (شكل ٦) .

وقد رأينا أن قبة المحراب تحمل تاريخها ، وأنها تمت سنة ٢٥٠ هـ (٨٦٤ م). فهي أحدث عهداً من زميلتها القيروانية بتسع وعشرين سنة . وهي تتكون من ثلاثة طوابق داخلية يعادلها ثلاثة طوابق خارجية ، مثلها في ذلك مثل قبة المحراب في القيروان . وتكاد تتساوى أحجام القبتين ، إذ أن طول ضلع مربع القاعدة في الزيتونة خمسة أمتار ، وهو ستة في القيروان . غير أن كثيراً من تفاصيل البناء تختلف في القبتين ، فنجد مثلا أن كلا من الواجهتين الجنوبية والشمالية في الطابق الأول يتحلى بثلاث طاقات ، في حين أن كلا من الواجهات الأربعة في قبة القيروان يتحلى بخمس منها . ولا يقتصر الاختلاف على العدد ، فهو واضح في المظهر وفي الإنشاء .

والطابق الثاني ، وهو الذي يعادل الرقبة من القبة بالنسبة لرأسها ، يتكون في القيروان من أربع وعشرين طاقة داخلية ، يقابلها من الخارج شكل نجمي مثمن منبعج الأضلاع . في حين أن هذا الطابق قد نظم في مسجد الزيتونة بحيث يقابل أقسامه الداخلية نظائر خارجية لها . وقد فتحت فيه عشرة نوافذ ، تبدو سوياً من الخارج والداخل . وجوفت بين كل نافذتين طاقة من الداخل ، تقابلها دعامة بارزة من الخارج . وبديهي أن هذه الدعائم التي تتناوب مع النوافذ لا تقتصر على أداء مظهر زخرفي . بل أنها تؤدي وظيفة معمارية ، إذ تقوّي جدار رقبة القبة في مواضع التجاويف التي أجريت فيها بين النوافذ . وبديهي أيضاً أن قبة محراب الزيتونة أقرب من قبة القيروان إلى تحقيق الغاية

منها ، إذ أن الضوء يشع وافراً من نوافذها العشرة ، فى حين أن عدد الفتحات فى رقبة قبة القيروان ثمان نوافذ ، تتناوب مع ست عشرة طاقة صماء . وأخيراً فإن رقبة قبة الزيتونة تنتهى من الداخل بإطار أكثر وضوحاً من إطار القيروان ، وأكثر بروزاً . وقد روعى فى هذا البروز أن تجد ضلوع قمة القبة قاعدة أكثر بسطة ، وأقوى على تحمل الارتكاز عليها .

ويتكون الطابق الأول ، وهو الطابق المربع ، من ثمانية عقود قائمة على ثمانية أعمدة صغيرة ملتصقة بحائطه . وتمتطى أربعة من هذه العقود أركان المربع ، أما الأربعة عقود الأخرى فينتصف كل منها ضلعاً من أضلاعه . وقد كسى هذا الطابق جميعاً بزخارف جصية ، ألصقت بعناصره فى القرن الحادى عشر (السابع عشر الميلادى) ، ولكنها لا تخفى معالم هذه العناصر وحدودها .

ولا شك فى أن قبة القيروان اتخذت أنموذجاً لقبة الزيتونة ، ولكن البحث فى العناصر الداخلية لهذه القبة يسفر عن تطورها تطوراً واضحاً بين القبتين . فالطابق الأول من قبة الزيتونة يحوى مظهرين جديدين . هذا الطابق كان يعرف فى القيروان بطابق المقرنصات ، ولم تعد هذه التسمية جائزة فى الزيتونة ، والأصح أن يعرف بطابق المحارات . فلم تقتصر المقرنصات الأربعة الكامنة فى فى أركانه على اتخاذ أشكال المحارات ، بل أنه قد جوفت فيه ثلاث طاقات أخرى على هيئة وردة مفتوحة ، واحدة فى كل من منتصف أضلاعه الشرقية والغربية والشمالية ، أما منتصف الضلع الجنوبى فقد فتحت فيه الطاقة ، فوق سمت المحراب ، على هيئة الزهرة المفتوحة ، ولكنها فتحت كالنافذة .

أما المظهر الجديد الثانى فيبدو من عقد هيئة الهلال أقيم فيما بين المقرنصات والعقود ، بل لنا نجد فوق كل محارة وطاقة عقدين من هذا النوع ، فيحوى هذا الطابق إذن ستة عشر عقداً هلالياً . وليس لهذه العقود أثر فى القيروان ، ولكنها أدخلت لأول مرة فى قبة المسجد الجامع بسوسة . وقد سبق لنا أن أثبتنا أن قبة القيروان عبارة عن هيكل عظمى مكون من خطوط مستقيمة ومنحنية ومن أنصاف دوائر . أما مقرنصاتها وطاقاتها وقنوات ضلوعها ، فهى حشو أو لحم ، أو غلاف لسلسلة شبكية . ويبدو هذا الحشو فى قبة الزيتونة

أكثر وضوحاً ، ويبدو مظهره فى هيئة أدق وأكثر حسناً . وليس أدل على هذا الحشو من العقد الهلالى الذى أشرنا إليه ، (شكل ٨) . فليست له أرجل يرتكز عليها ، فهو حلية زخرفية تتميز عن الغنصر المعمارى الذى يعلوه ، وهو العقد المرتكز على العمودين . هذا العقد الأخير يؤدى وظيفة معمارية محددة ، هى تحويل مربع القاعدة إلى مثمن ، وتهيئة هذه القاعدة المثمنة لرفع الطابق الثانى من القبة . أما العقد الهلالى ، فهو غلاف وحشو ، مثله فى ذلك مثل المقرنصات المحارية والطاقات الزهرية .

أما الطابق الثانى فقد تحول إلى عشرين ضلعاً يحدها عشرون عقداً كاملا ، ترتكز على عشرين عموداً ، وهذه ترتكز بدورها على المساند القائمة على نهاية الطابق الأول .

أما الطاقات التى تنحصر فى هذه العقود فكأنها لوحات هيئت مسطحاتها لاستقبال إنشاءات زخرفية ، فهى إذن غلاف وحشو مثلها مثل النوافذ التى تجاورها . أما الوظائف المعمارية فى هذه الطابق فتؤديها العقود والأعمدة . وسنعود إلى التحدث عن تناوب الألوان على عقود هذا الطابق ، وعن أهمية هذا الابتكار فى تاريخ العمارة فى العصور الوسطى .

ونلتى فى الطابق الثالث نوعاً آخر هاماً من تطور النظم القيروانية . فهذا الطابق يمثل قمة القبة أو رأسها أو غطاءها الكروى ، وقد كان يتكون فى القيروان من أربعة وعشرين ضلعاً ، وكانت هذه الضلوع تحصر فيما بينها أربعا وعشرين قبوة . أما فى الزيتونة فإن هذه الصلوع تتجسم وتبدو كأنها أوتار ، أو كأنها هيكل عظمى مستقل تماماً عن الغلاف الذى ينحصر بين ضلوعه ، هذا الغلاف الذى يتكون من قبوات ، بل من لوحات مسطحة ، أو كأنه كذلك .

وهكذا تعبر قبة المحراب فى الزيتونة تعبيراً أكثر وضوحاً من قبة القيروان عن فكرة بناء القبة فى العمارة الإسلامية ، فكرة الكتلة الصماء إلى هيكل تبرز عظام ضلوعه ، وهى العقود والأعمدة ، وتمتلىء فراغاته بحشوات زخرفية .

وقد أشار الأستاذ لامبير إلى أهمية قبة الزيتونة عندما أطلع على بعض الصور

الفوتوغرافية التى أعربها له (٣٥) . ومما قاله فى ذلك : إن نظام التجزئة الظاهر فى تونس « ينبئ عن التطور الذى حدث فيما بعد ، لا فى قرطبة فحسب ، بل فى القباب الإسبانية المضلعة التى أقيمت فى كاتدرائيتى (صمّوره) (شلمنتقة) وبعض القبوات الفرنسية ، مثل التى أقيمت فى برج (مواساك) وفى محراب (سان أوتروب فى سانت) أو فى كاتدرائية (تورنيه) » (٣٦) .

وقد أتيحت لى منذ سنوات فرصة المقارنة بين القيروان وقرطبة (٣٧) . ولا شك فى أن أوجه التقريب بين القباب الأندلسية وقبة محراب الزيتونة أقوى حجة وأوضح بياناً . والثابت أن هذه القبة قد تم إنشاؤها قبل تلك القباب بمائة من السنين . وقد أخذت فكرة إنشاء القبة تتحدد ، كما أخذت عناصرها تتطور ، أثناء هذا القرن من الزمان . فتعددت فيها مراكز الأحمال ، وتفتتت فيها المسطحات ، وتشعبت الخطوط ، وتقاطعت ، وتدرجت ، وأخذت القبة نفسها تتصاغر وتنكمش . وبعد أن كان الطابق الكروى ، وهو رأس القبة ، يسيطر على الطوابق التى تدنوه ، أصبح منها كالحلية أو التاج . وبعد أن كانت وظيفته فى الإنشاء المعمارى وظيفة رئيسية ، لم تعد له فى مجموعة البناء إلا وظيفة ثانوية . وتنوعت إثر هذا كله التشكيلات الخطية والهندسية فى بناء القبة . وانتهت الفكرة الإنشائية إلى مرحلة جديدة ، تطغى عليها مظاهر الحلية والزخرف .

ولهذا يبدو لى أن قبة المحراب فى مسجد الزيتونة تعبر ، أكثر من زميلتها فى القيروان ، عن فكرة معمارية منطقية ، وتفصح عن شخصية أوضح وأشد ثباتاً . وقد فرضت هذه القبة نظمها ومناهجها على جارتها قبة البهو فى مسجد الزيتونة ، وهى التى تم إنشاؤها سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة (٩٩١ م) .

فى هذا التاريخ ، كان نظام الحكم قد تغير فى إفريقية ، وكان عهد الأغالبة قد انقضى منذ قرن ، وحل الفاطميون محلهم ، وكان حكام هذه البلاد قد فتحوا مصر وأنشأوا القاهرة وأقاموا فيها مسجد الأزهر . وأدخلت حينئذ على نظم العمارة عناصر جديدة ، وتطبعت مظاهرها بأشكال زخرفية مستحدثة ، وبدأ الفن الإسلامى مرحلة جديدة من مراحله . ولكن مسجد الزيتونة لم يتأثر بكل هذا ، إذ ظل البناة فيه مستمسكين بتقاليدهم الإنشائية ونظمهم المعمارية ،

ولسنا نجد برهاناً أكثر بلاغة على ذلك من قبة البهو .

ويجدر بنا قبل البدء فى دراسة دقائق هذه القبة ، أن نبين السبب فى إنشائها . فلقد أوضحنا فيما سبق أن وظيفة القبة المعمارية ، والغاية الرئيسية من إنشائها ، كانت إضاءة محراب المسجد ، وهو أقصى مواضع بيت الصلاة بعداً عن بهو المسجد ، ومصدر إضاءة . وقد رأينا أيضاً أن قبة المحراب معروفة بالقبة « الشريفة » ، وأنها نالت هذه الصفة الرمزية من ارتقائها فوق المحراب . وقد يخيل إلى بعض البحاثة أن القصد من إقامة قبة البهو على نهاية بلاطة المحراب هو أن يتبين الناس عن بعد موضع المحراب واتجاه القبلة . ولكنا أوضحنا أن الحقيقة تنافى هذا الزعم ، لأن بلاطة المحراب نفسها منحرفة عن سمت القبلة ، فلا يمكن أن يستقيم الادعاء بأن الخط الواصل بين مركزى القبتين يشير إلى اتجاه القبلة . والمتبع عادة أن يثبت فوق قمة القبة من الخارج شكل هلال مصنوع من الخشب أو النحاس أو الخزف تحدد أطرافه هذا الاتجاه . أما القبة نفسها فهى دائرة . وبالتالى لا تنهض وحدها بتحديد اتجاه معين ، فهى تطل على الأفق من جميع نواحيه . وإنما الذى يحدد منها اتجاه القبلة هو الهلال المرفوع فوق قمتها .

ولهذا فإنى أعتقد أن الحكمة فى إقامة قبة ثانية تطل على بهو المسجد فى نهاية بلاطة المحراب ، هى الإشارة إلى نفس الصفة الرمزية « الشريفة » التى تشير إليها القبة الأولى ، وأنها أقيمت فى هذا الموضع من البهو ، إشارة إلى محراب ثان للمسجد . فالمعروف أن بهو المسجد نفسه بيت صلاة آخر فيه ، ولكنه بيت صلاة مكشوف معظمه . وكثيراً ما حدثنا المؤرخون عن المساجد التى كانت تضيق بيوت الصلاة بالمصلين فيها ، كما كانت تضيق صحونها وزياداتها ، وأن المصلين هؤلاء كانوا يصطفون خارج حدود هذه المساجد لأداء صلاة الجمعة على قارعة الطريق . وما زالت هذه الحقيقة تلاحظ فى مساجد القاهرة وفى مساجد غيرها من المدن الكبرى فى الديار المصرية . وقد دعت الحاجة أمام اكتظاظ المساجد فى أيام الجمعة ، أن يقف عند بهو المسجد ، وفى موضع يقابل المحراب منه ، أمام ثان ، أو مؤذن يردد ابتهالات خطيب المسجد وتكبيره .

وما زالت هذه العادة متبعة إلى اليوم ، ولعلها مقتبسة من عادة « العنزة » ، وهو اللواء الذى يركزه شيخ القبيلة فى الصحراء قبل قيام الأعراب للصلاة ، ليحدد موضع المحراب من الفضاء ، ومقام الامام من المصلين (٣٨) . لعل هذه هى الحكمة فى إقامة البهو ، ولعل موضعها منه يرمز إلى موضع محراب ثان ، وإلى مقام المؤذن فيه (٣٩) .

وأيا كان نصيب رأينا من الصحة ، وحجتنا من القوة ، فإن قبة البهو فى مسجد الزيتونة تمثل أقصى ما وصلت إليه القباب التونسية من دقة النظام الإنشائى ، ووضوح المعالم المعمارية ، وحسن الشكل والمظاهر ، وتنوع الحلية والزخارف .

اقتبست هذه القبة كثيراً من تفاصيلها من قبة المحراب فى المسجد نفسه . ولكن بنّائيها ، وهم أحمد التونسى وأبو الثنا وعبد الله القفاص ، أحدثوا فيها جديداً . فتوجوا المقرنصات المحارية بإطار من الباقات الزهرية ، وجلوا الطاقات والفتحات الوردية فى منتصف الأضلاع ، وكسوا تجاويف طاقات الرقبة بزخارف ملونة منوعة الإنشاء ، وتوجوها على هيئة المحارات ، ورسموا على رؤوس طاقات النوافذ أشكالا نجمية منوعة ، داخل إطارات من دوائر ، وألبسوا هذه القبة سواء من الداخل أو من الخارج ، لباسا باهياً زاهياً ، زادها حسناً ورونقاً .

ولعل أهم ما نلاحظه فى هذه القبة من الناحية المعمارية هى تلك الدقة الفائقة فى صف الحجارة ، فقد ظهرت معالم الصنج الحجرية فى بناء العقود ، حتى ليخيل إلى المتأمل فيها أنه يسهل نزعها وإعادتها إلى مواضعها واحدة واحدة دون أن يختل البناء . وبمثل هذه الدقة تحددت معالم العقود الهلالية ، ووضحت حدود العقود الرئيسية ، وتميزت أرجلها عن أرجل جاراتها ، بالرغم من أن العقدين يرتكزان على طنفة تاج مشترك .

أما ضلوع القبة ، فقد برزت بروز ضلوع زميلتها قبة المحراب . ولكنها تندمج فى بناء القبوات التى تحشوها ، ومع ذلك فإنه يتضح من تنظيم الحجارة أن بناء الضلوع سبق بناء حشو القبوات .

وهكذا يتضح لنا أن القباب التونسية تفصح عن نظم ثلاثة مختلفة اتبعت

فى بناء الضلوع ، وأن أخطر هذه النظم أثراً فى تاريخ العمارة ، هو النظام الذى اتبع فى قبة محراب الزيتونة ، والتى تجسمت فيه الضلوع وبدت كأنها أوتار أو عقود ، واستقلت عن الغلاف الذى ينحصر بينها .

ولا شك فى أن الفضل يرجع إلى القباب التونسية ، وإلى احتفاظها بمعالمها القديمة ، فى إيضاح الفكرة الإنشائية لبناء القباب الإسلامية . وقد لاحظنا أن هذه الفكرة ترتكز قبل كل شىء على تجزئة الكتلة المعمارية إلى عناصر محدودة المعالم . وقد ترتب على ذلك أن مراكز الضغط قد تجمعت فى مواضع معينة ، هى نقط ارتكاز الضلوع ، وأن هذه المراكز تتقابل مع مراكز أخرى تجمعت فيها قوى الأسناد ، وهى التى تتمثل فى عقود طاقات الطابق الثانى ، التى تحول بدورها هذه القوى فى اتجاهات رأسية إلى أعمدتها . وينتج أن من هذا قوى الدفع والضغط تتحول إلى أثقال ، وأن هذه الأثقال تنتشر فى مراكز تحملها عقود الطابق الأول وأعمدته ، وهو طابق المقرنصات أو طابق المحارات ، وتوزعها على المراكز الثمانية القائمة على القاعدة المربعة ، ثم تنقلها إلى عقود الطابق الأرضى وعمده الرافعة . فالقبة فى مسجد الزيتونة بناء يقوم وحده بمهمة توازنه وثباته ، فلا تسعى قوة إلى الإفلات من حدوده ، ولا يحتاج إلى سند خارجى .

وإذا كانت بلاد الفرس هى الموطن الذى نشأت فيه القباب ، فإن هذه القباب قد تطورت فى طريقها إلى البلاد الإسلامية ، وواجهت فى تطورها موضوعات إنشائية جديدة ، وخضعت عناصرها لمبادئ مختلفة عن مبادئها الأولى ، فانتهت فى مسجد الزيتونة إلى حاول ومظاهر أخرى(٤٠) . ولعل هذه المظاهر أصبحت أقرب إلى مظاهر القباب الرومانية منها إلى أصلها الفارسى ، غير أنها ارتكزت على قاعدة مربعة ، بدلا من القاعدة الرومانية المستديرة ، واتشحت بكسوة جديدة ، وتوافقت مع فكرة إنشائية مستحدثة .

هذه الفكرة الإنشائية لبناء القباب تنطبق على جميع القباب التونسية ، بالرغم من اختلاف تفاصيل تنفيذها . وإذا كات كثيراً من هذه القباب قد اندثر وانقطعت صلتنا به ، إلا أن فى قبتى الزيتونة عوضاً كبيراً عنها ، فهما يضمان جميع عناصر الإنشاء والبناء والزخرفة التى وضعها البناة فى تلك الحقبة الأولى من تاريخ العمارة الإسلامية .

وقد سجل هؤلاء البناة أعمالهم كما سجلوا أسماءهم . وقد ذكرنا أن قبة المحراب أقيمت على يدى (نصير) ، وأنه صنعها (فتح الله) . وقد نقل النص ناقصًا إلى الأستاذ جورج مارسيه فظن أن البنّاء اسمه فتح ، وبنى على هذا الاسم نظرية مؤداها أن البنّاء ينتمى إلى أسرة غير مسلمة . وهذه الحجة لا شك تضعف إذا علمنا أن صحة اسم البنّاء المسجلة على القبلة (فتح الله) لا (فتح) فحسب ، وليس ما يبرر الادعاء بأن فتح الله هذا لم يكن مسلماً . وفوق هذا فالأمر لا يقتصر على قبة واحدة ولا على بنّاء واحد ، وقد أشرنا فى بحثنا هذا إلى مجموعة من خمس قباب سليمة ما زالت قائمة ، وقد تم إنشاؤها جميعاً فيما بين سنتى ٢٠٦ (٨٢١ م) و ٣٨١ (٩٩١ م) ، وليس من المعقول أن نفترض أن حكام إفريقية كانوا يستقدمون طيلة هذه المائة والسبعين سنة ، بناة قبابهم من بلاد أجنبية . وإن افترضنا هذا ، بالرغم من استحالته ، فمن أى البلاد يمكننا أن نفترض قدوم هؤلاء البناة ؟ وليس فى أى بلد من بلاد العالم ، قريبة كانت أو بعيدة عن تونس ، آثار قبة واحدة ، أو أطلال من آثارها ، تفصح صراحة ، أو توحى إبهاماً ، بفكرة إنشاء القباب التونسية ، أو بمظهر من مظاهرها .

لا شك فى أن إفريقية كانت تضم منذ بداية القرن الثالث الهجرى طبقة من البناة اختصوا فى بناء القباب ، وتوارثوا دقائق صناعتها ، وتواصوا على إتقان فهم إتقان تتبعنا بعض مراحله . وبديهى أن هؤلاء البناة المسلمين قد استوحوا الفكرة الأولى لإقامة القباب من آثار الفرس القديمة ، أو من آثار الرومان فى إفريقية . ولكنه لا شك فى أنهم أدخلوا على هذه الفكرة أصولا مبتكرة مستوحاة من الفكرة الفنية الإسلامية ، هذه الفكرة التى تقوم على الخطوط الهندسية ، والتى تجزئ الفضاء ، وتقسم العناصر ، رغبة فى التعداد والتضاعف . وقد حاول البناة فى قبتى الزيتونة ، كما شاهدنا ، أن يستخرجوا من المسائل الفنية ميزات وحلولا عملية لمنشآتهم ، ولا شك فى أنهم كانوا مرتبطين فى حل هذه المسائل بالاتجاهات السائدة فى محيطهم الفنى والاجتماعى ، والتى كانت تحبب إلى خيالهم الأشكال التخطيطية المجزأة ، وتفضلها على الأشكال المجسمة الممتلئة .

ولهذا فإن ذكرى القباب الفارسية أو العراقية والرومانية أو البيزنطية تبهت وتنخسف أمام الفكرة الأصلية التى أنتجت المقرنصات المحارية والهياكل العظمية والتى أخرجت القباب المضلعة القائمة على أسناد من العقود ، وعلى روافع من العمد . تتضاءل ذكرى هذه الأصول البعيدة ، وراء الابتكارات المعمارية الرائعة التى سجلها هؤلاء البناة ، والتى أضفوا عليها وحى تفكيرهم الزخرفى الغزير .

٥

يتبقى علينا أن نستعرض بعض العناصر الزخرفية بمسجد الزيتونة .

وقد ذكر الأستاذ (جورج مارسيه) ، وهو بلا شك أكبر علماء الآثار المستشرقين ، فى بحث أصدره عن قباب مسجد القيروان « إنه إذا كان تراث قبة القيروان يقتصر على بعض نماذج من تيجان الأعمدة الإسلامية التى صنعت فى القرن التاسع (الثالث الهجرى) ، فإن هذا يكفى وحده مبرراً لدراستها »(٤١) وبعد أن تولى هذا العالم دراسة هذه التيجان بما عرف عنه من دقة البحث العلمى ، اختتم مقاله بهذه العبارة « إننا نستطيع أن نؤكد أن أنموذج هذه التيجان قد صيغ فى موطنه من بلاد المغرب ، ولا يدين بشىء للتأثيرات العراقية » . وأضاف الأستاذ (مارسيه) إلى ذلك ، « إنه بالرغم من أنه توجد بقبة القيروان تيجان بيزنطية الشكل ، إلا أنه ليس من المستبعد أن تكون هذه التيجان من صناعة نحاتين مسلمين »(٤٢) .

وإننا نستطيع أن نتتبع فى مسجد الزيتونة تطور هذه التيجان الإسلامية التى نشأت بالقيروان سنة ٨٣٦ (٢٢١١ هجرية)، والتى أتيح لنا أن نقرر نقرر أنه تشاهد فيها ، ولأول مرة فى تاريخ فن النحت ، مواضع أهمية التاج بالنسبة لوظيفته المعمارية . « وتبين هذه المواضع الثلاث ورقات نباتية من زهرة الأقنتا ، منحوتة على كل وجه من أوجه التاج ، تحت قرمته . فالنقط التى تقف فيها هذه الورقات هى النقط الأساسية من جسد التاج التى تتأثر بدفع الأثقال التى يحملها ، والتى تتطلب شدة فى التماسك وقوة فى الدفاع ،

ولهذا كانت ورقات الاقنتاثميكة ممتلئة واضحة الشكل والحدود. وسواء امتد على سطح التاج صف من الأوراق أو صفان ، فإنه تتسرب من باطنه ورقتان عريضتان منتعشتان ، وتمتدان حتى تصل نهايتهما إلى ركنى واجهته العلويين ، وتلتفان تحتهما . ويتخذ امتدادهما شكل زاوية داخلة ثلاثينية ، وتخرج من نقطة انفصالهما ورقة أخرى رفيعة شامخة » (٤٣) .

وتطور شكل التيجان هذا تطوراً كبيراً ، لا فى إفريقية وحدها ، بل فى بلاد المغرب قاطبة . وتتخذ بعض التيجان فى قبة مسجد الزيتونة أشكالا تؤكد اقتباس تيجان قرطبة لها ، وتثبت فضل الآثار التونسية فى اشتقاق أصول التيجان الرومانيسكية المسيحية وعناصرها من الفن الإسلامى (٤٤) . وتيجان قبة الزيتونة هى الأصل ، على كل حال ، فى تطور أشكال التيجان المغربية فيما بعد القرن الرابع الهجرى (٤٥) .

وليست التيجان هى وحدها التى تلقى بمسجد الزيتونة نماذج من أشكالها الأولى فى الإسلام ، فإننا نلقى بهذا الأثر العظيم أمثلة من النماذج الأولى لعناصر مبتكرة فى الفن الإسلامى . وقد سبق أن لاحظنا تناوب الألوان فى عقود الطابق الثانى من قبة المحراب ، وفى هذه العقود تتناوب الصنج الحجرية البيضاء مع صنج قاتمة اللون . ويلاحظ أنه لا تشارك هذه الصنج الحجرية صفوف من الآجر ، كما هو الحال فى مسجد قرطبة ، فى الزيادة التى تمت فيه قبل إنشاء مسجد الزيتونة بعشرين سنة . فإن الحجارة فى الزيتونة تحتفظ بقيمتها البنائية ، وهى فى الوقت نفسه تكتسب قيمة زخرفية . وهذه الظاهرة، ظاهرة أداء وظيفتين فى وقت واحد ، وظيفة معمارية ووظيفة زخرفية ، هذه الظاهرة تبدو ابتكاراً ، وتشاهد بمسجد الزيتونة لأول مرة فيما أعرف ، لا فى العمارة الإسلامية فحسب ، بل فى تاريخ العمارة كلها (٤٦) .

ويظهر هذا الابتكار أوضح معالماً وأبهر شكلا فى قبة البهو . فالحجارة البيضاء تتناوب فى العقود داخل هذه القبة مع الحجارة السوداء . أما فى الخارج فقد استبدلت الحجارة الحمراء اللون بالحجارة السوداء (شكل ١٠) . ويزداد بهاء الألوان حول العقود الخارجية من التعشيقات العينية ، ومن التركيبات الدائرية ،

كما تزداد واجهات هذه القبة جمالا ورونقاً ، من المربعات الحجرية المختلفة الألوان ، التى كسيت بها دعائم الطابق الثانى ، وهى مربعات صغيرة من حجارة حمراءوخضراء وبيضاء وكأنها قطع من الفسيفساء الزجاجية .

ولسنا فى حاجة إلى أن نبين هنا مدى المستقبل الزاهر الذى استهدف له هذا النوع من الزخرفة ، زخرفة الفسيفساء ، وتناوب الألوان ، فى الفنون الإسلامية . وليس من شك فى أن جانباً كبيراً من الفضل فى هذا الازدهار يرجع إلى بنّائى قبتى الزيتونة .

وقد كانت زخارف هاتين القبتين محجوبة عن النظر ، تختفى تحت طبقات كثيفة من طلاء الجير ، حتى أتيح لى منذ أعوام قليلة أن أوفق فى إقناع إدارة الحبوس برفعها ، فبدى إبداعها وتنوع زخارفها . وتزداد الدهشة من هذه الزخارف ، ويقوى الإعجاب بمبتكريها ، عند مقارنتها بأثر رومانيسكى فى أواسط فرنسا ، هو معمودية سان كلير (Saint-Clair) فى مدينة البوى (Le Puy) — وهى كنيسة أقيمت فى القرن الثانى عشر ، أى بعد الانتهاء من قبة بهو الزيتونة بمائة سنة على الأقل . فواجهة قبة هذه الكنيسة تكاد تكون صورة مطابقة فى زخارفها لواجهة قبة الزيتونة . وهكذا نرى أن ضياء ألوان مسجد الزيتونة قد أشرق على كنائس مدينة البوى ، وأن صدى الزخارف التونسية قد تردد فى أواسط فرنسا (٤٧) .

ونلاحظ بمسجد الزيتونة وسائل زخرفية أخرى . فنجد صفوفاً من الحجارة الطويلة الرفيعة قد نظمت على أكتاف العقود فى بيت الصلاة ، فى شبه دوائر منتظمة ، ومدت حول الأفاريز التى تحيط بالعقود . ونجد هذه الصفوف نظمت فى عقود أخرى على هيئة زوايا متراصة . وتبدو هذه الطريقة فى تنظيم الحجارة كأنها تنظيم لكسوة من الآجر . وهى على كل حال أسلوب من الزخرفة بديع المظهر ، حتى إنه لقى فيما بعد نجاحاً كبيراً ، وانتشر انتشاراً واسعاً ، فى الفن الإسلامى ، خصوصاً بعد أن ازدوج بالألوان ، واقترب من أساليب الزخرفة بالفسيفساء .

وتمتد نماذج هذه الطريقة الزخرفية فى مسجد الزيتونة فوق العقود على

الجوانب الخارجية لبلاطة المحراب ، أما الجوانب الداخلية لهذه العقود ، وهى الجوانب التى تدل على البلاطة نفسها ، فقد حليت بطريقة زخرفية أخرى ، تتكون من ثلاثة عناصر متسلسلة صعوداً . ولصقت على الجدران فيما بين التقاء أرجل العقود لوحة مضلعة من الجص المنحوت ، تعلوها لوحة ثانية منحوتة ، شكلها رباعى عينى ، ثم ترتقى فوق هاتين اللوحتين لوحة ثالثة أكبر حجماً ومستطيلة الشكل . وقد سقطت معظم هذه اللوحات واستبدلت بها لوحات نحتت فى القرن السابع عشر (منتصف القرن الحادى عشر الهجرى) . ومن حسن الحظ أنه تبقت بضعة لوحات أصيلة من القرن التاسع (منتصف القرن الثالث الهجرى) وخاصة اللوحات العليا ، وقد نسقت معظمها على أشكال المحاريب . وتحوى اللوحة إطاراً مستطيلا يحيط بتجويف ينتهى بشكل محارة . وقد اقتبس هذا الشكل الزخرفى من الزخارف الرومانية ، وانتشر انتشاراً واسعاً فى الإسلام بعد تحويره ، بحيث يؤدى فكرة المحراب . ويرى حول المحارة فى هذه اللوحات عقد لؤلؤى منحصر بين شريطين رفيعين ، ويرتكز كل طرف من طرفى العقد على عمودين صغيرين متلاصقين . والطريف فى هذه الأعمدة الرفيعة أنها نحتت على هيئة لولبية ، بحيث تبدو كأنها جذوع نخيل . ويزداد الشبه قوة بأشكال تيجان هذه الأعمدة ، فقد نحتت على هيئة الجريد . أما الطاقة نفسها فقد امتلأت بزخارف محشوة تتشابك فيها الفروع والأوراق .

وقد ظهرت أشكال المحاريب هذه أول ما ظهرت فى القيروان ، ولكنها نسقت فى مسجد الزيتونة تنسيقاً أخرجها فى مظهر أكثر خفة وإبداعاً . إذ بينما ترتكز أطراف عقود التجاويف فى القيروان على عمود واحد ضخم البدن ، فإنها ترتكز — كما ذكرنا — فى تونس على عمودين رشيقين ، فأصبحت التجاويف الزخرفية بهذا الوضع الأخير أقرب أداء لأشكال المحاريب ، وأكثر تشابهاً .

وقد اتبع فى إخراج هذه المنحوتات الجصية أسلوب النحت المخرم ، أو النحت الشبيه بالتطريز . وهو أسلوب تبدو فيه الظلال قاتمة فاحمة ، والحافات شاحذة . وكذلك اتبعت هذه الطريقة فى اللوحات التى كسبت بها حدارات أعمدة بيت الصلاة . وقد سبق أن ذكرنا أن معظم لوحات هذه الحدارات قد

استبدلت بها لوحات حديثة العهد من القرن الحادى عشر (السابع عشر الميلادى) ، ومن حسن الحظ أيضاً أنه تبقت لوحات قليلة العدد ترجع إلى عهد بناء المسجد فى القرن الثالث (التاسع الميلادى) . وتعتبر هذه اللوحات من أقدم النماذج الباقية ، من هذا النوع من الزخرفة على الجص ، فى الفن الإسلامى وفى بلاد المغرب كلها . وقد روعى أن تكسو الحدارة أربع لوحات ، لوحة على كل جانب . وتنقسم زخارف كل لوحة تبعاً لحجمها إلى خمسة وعشرين مربعاً ، أو إلى أربعة وعشرين . وينحصر كل مربع فى إطار ، ويحد خط رأسى كل مجموعة من خمسة مربعات أو أربعة . ويحوى المربع نفسه شكلا زخرفياً قوامه ورقة زهرية ذات ثمان شحمات ، أو على الأصح نجمة ذات ثمانية أطراف . وتجد لهذا الشكل الزخرفى نظيراً مطابقاً له تماماً فى زخارف منبر مسجد القيروان . ويتكرر هذا الشكل فى جميع اللوحات الأصلية . أما أسلوب إخراجه فهو ما ذكرنا من أسلوب النحت المخرم ، فكأن اللوحات غلالات مطرزة أسدلت على الحدائر ، تبدو الزخرفة فيها واضحة المعالم ، فوق أرضية قاتمة لا أثر للظل المخفف فيها . وهو أسلوب يحتاج إلى دقة فائقة فى الصناعة ، امتاز به رجال الفن الإسلامى ، وخاصة فى بلاد المغرب والأندلس .

٦

لا تقتصر أهمية زخارف مسجد الزيتونة على ما خلده من منحوتات على الجص والحجارة ، إذ أنه احتفظ بتراث خالد من هذه المنحوتات على الخشب أيضاً ، وخلد تحفة رائعة من الفن الإسلامى ، وهى منبره العتيق .

ظلت هذه التحفة مختفية حتى اكتشفناها منذ أعوام . والمعروف حتى اليوم أن أقدم منبر تبقى من آثار الفن الإسلامى هو منبر مسجد القيروان الجامع . وهو منبر رائع شكلا وفناً ، مشهور فى كتب الآثار والتاريخ ، وقد صنع سنة ٢٤٨ هجرية (٨٦٢ م) (٤٩) .

أما منبر مسجد الزيتونة (شكل ١١) فهو أحدث عهداً بسنتين ، إذ لا شك

فى أنه صنع عند بناء المسجد سنة ٢٥٠ (٨٦٤ م) . وهو أيضاً أصغر حجماً ، وأبسط زخرفاً ، من منبر القيروان ، ولكنه ليس لهذا أقل أهمية منه . وبالمنبر أجزاء استحدثت فى سنة ٩٨٩ (١٥٨١ م) ، وهى أدراجه ، والحاجزان القائمان على جانبى هذه الأدراج . أما الأصيل من هذا المنبر فقطاعان مستطيلان ، كل منهما جزء من الجدار القائم على جانب من جانبيه ، والذى ينتهى بهما مقعده . وعرض المنبر كله متران ، وارتفاعه متران وخمس وثلاثون سنتيمتراً . كل قطاع من هذين القطاعين ينقسم إلى لوحات مستطيلة أيضاً ، عددها اثنتان وعشرون لوحة على كل جانب من جانبى المنبر . وتختلف أحجام هذه اللوحات ، فارتفاع اللوحتين فى أسفل القطاع عشرون سنتيمتراً، وعرض اللوحة المستطرفة ٣٨ سنتيمتراً ، وعرض اللوحة التالية ٣٣ سنتيمتراً ، ولا تختلف اللوحات جميعاً فى الارتفاع ، ولكن عرضها يتراوح بين ١٦ سنتيمتراً و ١٣½ ، فهى إذن لوحات صغيرة الحجم .

وقد اتبعت فى صناعة هذه اللوحات طريقة النحت المخرم . والصورة توضح الدقة الفائقة التى روعيت فى إخراج هذه اللوحات (شكل ١٢) ، وذلك بالرغم من الطلاء القاتم الذى طلى به المنبر كله منذ عهد حديث . وهى نفس الطريقة التى اتبعت فى إخراج منبر القيروان ، وفى إخراج لوحات محرابه الرخامية .

وأحيطت اللوحات بإطارات خشبية قصد منها تثبيتها وصيانتها . وروعى أن تكون هذه الإطارات متماسكة ، ولهذا اتبعت فى نحتها طريقة أخرى ، وهى طريقة النحت المبسط ، أو السلس . تبدو المسطحات البارزة عليه ملساء متساوية ، وهى مسطحات نتوءاتها ضئيلة ، متوازية ، وحافاتها قائمة حاسمة ، والنسبة بينها وبين أرضية الإطار واحدة لا تتغير . وأغلب الظن أن نحات الزيتونة اشتق الطريقتين من منبر القيروان ، فإن أدراج سلم هذا المنبر نحتت بطريقة النحت السلس . وأغلب الظن ، إن لم يكن من المؤكد ، أن نحات الزيتونة قد اشتق أشكال زخارفه أيضاً من أشكال زخارف منبر القيروان ، وذلك بالرغم من أن قوام هذه الزخارف إنشاءات نباتية زهرية ، فى حين أن قوام زخارف منبر الزيتونة إنشاءات هندسية . وقد تنوعت هذه الإنشاءات فنلقى منها

أربعاً وأربعين مجموعة هندسية مختلفة ، إذ لم يرسم النحات فى لوحة شكلا أداه على لوحة أخرى .

وكان هذا التنوع فى التعبير الزخرفى ميزة من الميزات العامة التى تأصلت فى تفكير جميع رجال الفن المسلمين . ولعل مما ساعد على تقوية روح التنوع فى خيالهم الفنى ، أن الزخرفية الهندسية تتقبل أكثر من غيرها حلولا وأشكالا لا حد لها . ونلاحظ فى لوحات منبر الزيتونة أن الزخرفة فى كل منها تبدأ بخط بسيط ، فيتكون منه عنصر ، ويتكرر هذا العنصر بحيث ينتهى إلى مجموعة زخرفية ، ولا يوقف امتداد تكرار هذا العنصر غير الإطار الذى يحصره ، حتى ليخيل أنه لولا هذا الإطار لامتد تكرار العنصر الزخرفى إلى ما لا نهاية . وهكذا نلقى فى منبر الزيتونة حلولا لمسائل هندسية منوعة ، تتجمع فيها الخطوط المستقيمة والمنحنية ، أفقية أو رأسية أو متجاورة ، متشابكة أو متداخلة . وقد بلغ التنوع حداً توصل الفنان به إلى أن يوحى بأشكال زهرية ، من تشابك الخطوط وتقاطعها . وإلى جوار هذه الأشكال الزهرية التى تولدت من عنصر هندسى ، نجد أن تداخل الخطوط الهندسية يسود فى زخارف هذا المنبر ، ويؤدى هذا التداخل إلى أشكال مثمنة أو نجمية ، وإلى مثلثات أو مربعات ، وإلى ضفائر أو ملتويات وإلى غير ذلك من الأشكال .

وقد ذكرت أن منبر القيروان هو الأنموذج الذى اشتق منه منبر الزيتونة . ولم يكن معروفاً من منبر القيروان إلا جانب واحد ، وهو الجانب المطل على المحراب . أما الجانب الثانى فكانت مقصورة المعز بن باديس التى عملت سنة ٤٤١ (١٠٤٩ م) . تخفيه عن الأنظار . وقد أتيح لى أن أحصل منذ أربع سنوات على إذن خاص بإزاحة المقصورة وتصوير هذا الجانب الذى يسرنى أن أنشر تفصيلا منه (شكل ١٣) . وقد اتضح لى أن زخارف هذا الجانب تكاد تقتصر على العناصر الهندسية التى يسودها تداخل الخطوط . وهكذا يتأكد لنا أن منبر القيروان اتخذ أنموذجاً لمنبر الزيتونة ، غير أنه يجدر بنا أن نشير إلى أنه لا توجد فى المنبرين مجموعتان زخرفيتان متطابقتان .

تنوعت الزخارف الهندسية فى الفنون الإسلامية تنوعاً كبيراً ، وانتشرت

إنتشاراً واسعاً . وأصول هذه الزخارف الهندسية متعددة . وقد تصدى كثيرون من علماء الآثار لبحث هذا الموضوع ، وحرص البعض منهم على دراسته بدقة فائقة الحد . وليس أدل على ذلك من أن أحد علماء الآثار البارزين حاول أن يثبت أخيراً أن زخارف قبة الصخرة والمسجد الأقصى وثيقة القرابة للتقاليد الهلينستيكية ، وأن هذه الزخارف تدين بدين كبير للفن المسيحى فى سوريا ، وللفنون البيزنطية فى منحوتاتها العاجية ، وكما أنها تعيد ذكرى آثار الفن القبطى ، فإن التأثيرات الساسانية والعراقية تلاحظ على بعض مظاهرها (٥٠) . وقد رأينا من جهة أخرى أن الآراء تختلف فى أصل نشأة العقد المنفوخ . وأنه يتنازع الفضل فى هذه النشأة بلاد منها إيران والعراق والهند والأناضول وسوريا وأسبانيا . والحال كذلك فيما يتصل بعناصر الزخارف فى الفنون الإسلامية ، ومن السهل أن تلقى أصولها ، بعضها أو كلها ، فى بلاد الفرس ، وفى آثار القبط فى مصر ، أو فى آثار الرومان والبيزنطيين فى شمال إفريقيا .

ولكنه من الصعب حقاً أن يعين الباحث ، عن ثقة وتأكيد ، أى البلاد يرجع الفضل إليها فى الإيحاء بعنصر ما من عناصر الزخرفة الإسلامية . ذلك أن رجال هذه الزخرفة من المسلمين قد استلهموا جميع الفنون التى أحاطت بهم أو التى سبقت عهودهم . ويخيل إلى الباحث فى عنصر من عناصر هذه الزخرفة ، أن رجال الفن هؤلاء قد حاولوا البحث عن أصوله ، والسعى وراء تطوراته فى جميع الفنون العتيقة والمسيحية ، وأنهم حرصوا على تتبع أشكاله المنوعة ، قبل أن يسجلوه فى مراجع زخارفهم .

والحقيقة التى لا مراء فيها أن رجال الفن المسلمين رجعوا فى مبدأ اشتغالهم بالفنون إلى جميع المصادر ، وأنهم اختاروا لأنفسهم منها عناصر كبيرة ، مستوحاة من تنوع النباتات والزهور والهندسة ، وأنهم ألفوا منها مرجعاً لأشكالهم الزخرفية وعناصرها . وقد كان كل واحد منهم لا يأخذ شكلا من هذا المرجع إلا ليطبع عليه أثراً من مزاجه الفنى ، ويسجل فيه نزعة من خياله الواسع ، هذا الخيال وذلك المزاج اللذان يخضعان لعقيدة معينة ، ولفكرة خاصة فى تكييف الفضاء . ثم إن الواحد منهم ما كان يلجأ قط إلى النقل والتقليد ، وأمامنا برهان ناطق على

ذلك من منبرى القيروان والزيتونه ، وهما متجاوران زمناً ومكاناً . ولهذا كله كان الفن الإسلامى فناً يجمع بين شدة التنوع ، وقوة الوحدة .

* * *

رأينا أن مسجد الزيتونة فى تونس يدين كثيراً لمسجد القيروان . وأوضحنا كيف أنه يتشابه به ويختلف عنه معاً ، وأنه له شخصية ظاهرة بارزة . ولمسجد الزيتونة ميزات هامة بالنسبة للفن الإسلامى . وبالرغم من أنى لم أطرق بالتفصيل عناصر هذا المسجد ، ولم أشر إلا بعبارات عابرة إلى أجزائه التى أقيمت بعد منتصف القرن الثالث الهجرى (القرن التاسع الميلادى) ، فإنى أعتقد أنه فيما ذكرت ما يكفى لبيان أهميته وإبداعه .

وإذا كان مسجد الزيتونة أثر تاريخى خالد بما يحويه من مجموعة النصوص التاريخية ، فهو فوق هذا أثر معمارى فائق فى إنشائه وتشييده ، وهو لهذا وذاك يجب أن يكون موضعه فى الصفحات الأولى من تاريخ العمارة الإسلامية . ومن هذا المسجد نستطيع أن نطل على ازدهار الفن الأندلسى ، ونترقب انسياب عناصر هذا الفن فى الفن المسيحى الأوربى .

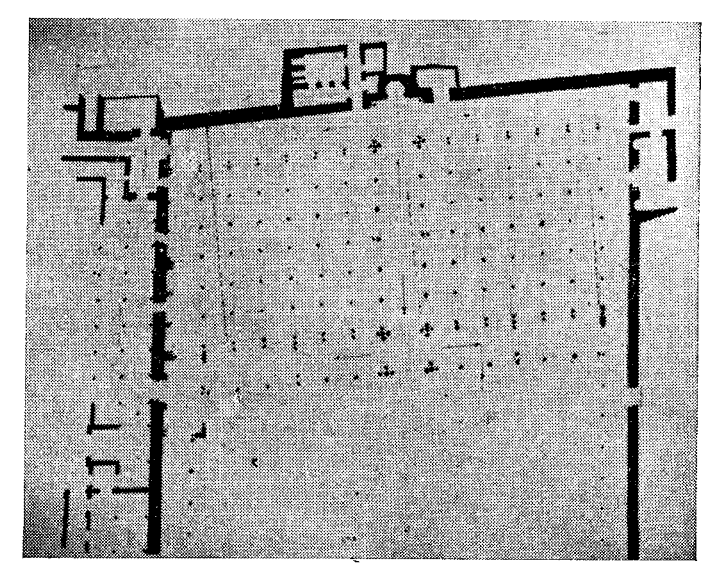
وإذا كنا قد شاهدنا فى سوسه والقيروان مولد القباب فى الفن الإسلامى ، فإن مسجد الزيتونة يعرض بوضوح تطور عناصر هذه القباب ، والتزامها لأصول مبتكرة منهاج محدد قوامه الخطوط فى الهندسة المعمارية ، وطابعه المظهر الزخرفى .

ومسجد الزيتونة برهان قوى ، سواء من حيث تخطيطه أو فى عمارته وتشييده ، على أصالة النظم التى يعبر عنها ، وعلى ثبات الأسس التى قام عليها ، والتى تجعل منه أثراً كاملا ، فى وحدته وجماله وعظمته .

دكتور أحمد فكرى
أستاذ تاريخ الحضارة الإسلامية
بجامعة الإسكندرية

الإسكندرية غرة المحرم ١٣٧٢
٢١ سبتمبر ١٩٥٢

(شكل ١) مسقط أفقي لمسجد الزيتونة



(شكل ٢) مسقط أفقي لبيت الصلاة بالزيتونة

مذكرات ومراجع

الرسوم التخطيطية والصور الفوتوغرافية من عمل المؤلف . هذا وتجد أسماء المراجع الأوربية مثبتة بالكامل فى النص الفرنسى لهذا البحث[1] .

١ — هذا البحث فصل من كتاب نعده عن « الفن الإسلامى فى البلاد التونسية إلى نهاية القرن الرابع الهجرى » ، وهو نتيجة دراسات خاصة للمؤلف قام بها فى هذه البلاد من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٤٨ . وقد ظل مسجد الزيتونة الجامع مجهولا من الناحية الأثرية ، أو يكاد يكون مجهولا ، إذ أن المعلومات التى كان يمكن الحصول عليها من هذا الأثر الكبير ناقصة ومقتضبة ، وتقتصر على صفحات فى المنشورات التالية .

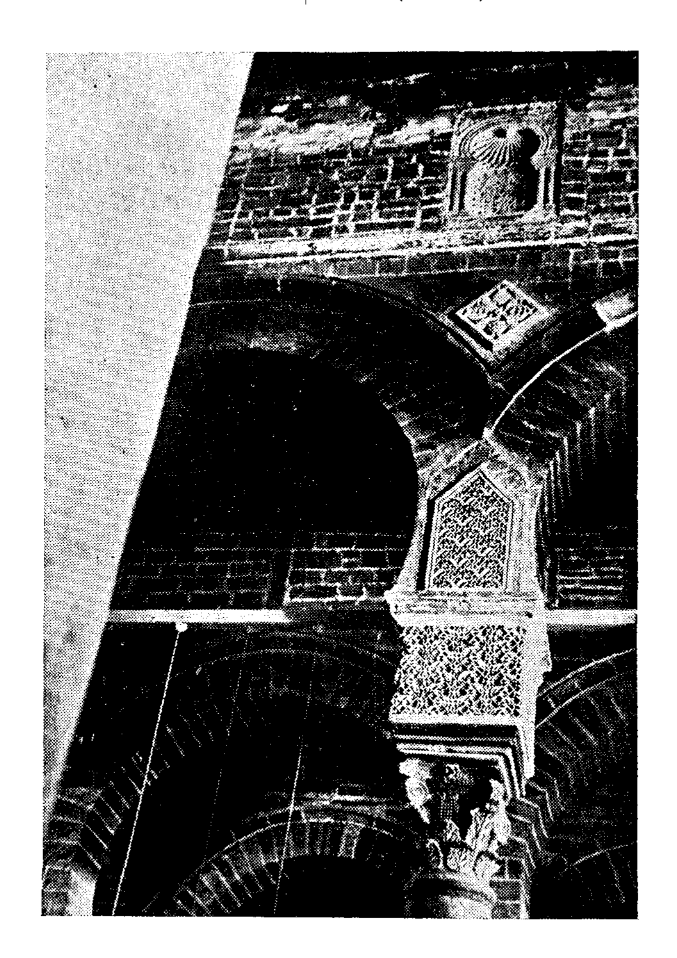
— سلادان — تقرير بعثة ، ص ٣٨٤ و ٣٨٥ ؛ وكتاب الفن الإسلامى ، ص ٢١٥ — مارسيه — كتاب الفن الإسلامى ص ١٣ و ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ ؛ وتونس والقيروان ، ص ٧٤ إلى ٨٧ و ٨٢ (٦ صور من تصوير أحمد فكرى) . — أحمد فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٩٤ — ٩٦ و ٩٩ و ١٠٤ ، أشكال ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ . والتأثيرات الإسلامية على الفن الرومانسكى فى البوى ، ص ٢٣١ — ٢٣٣ و ٢٣٨ و ٢٤٠ ، أشكال ٢٩٧ — ٢٩٩ . — وكريسويل ، العمارة الإسلامية ، الجزء الثانى ص ٣٢١ إلى ٣٢٥ لوحات ٩١ و ٩٢ — ويلاحظ أن هذه الصفحات من كتاب كريسويل كتبت بالاشتراك مع عبد الفتاح حلمى وحسن عبد الوهاب وأن الرسم التخطيطى المنشور فيها (شكل ٢٤٣) يحتوى أخطاء كثيرة .

٢ — البكرى — كتاب المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب ، لأبى عبد الله البكرى . نشره البارون دى سلان ، طبع الجزائر سنة ١٩١١ ، ص ٣٧ . ذكر المستر كريسويل فى الجزء الثانى من كتاب العمارة الإسلامية ص ٣٢١ ، أن ابن عذارى والنويرى والقيروانى أوردوا أيضاً هذا الحديث ،

(1) Proceedings of the Egyptian Society of Histoical Researches. Vol II. 1953



(شكل ٣) منظر عام لبيت الصلاة



(شكل ٤) زخارف بلاطات المحراب

والواقع أن هؤلاء المؤرخين لم يشيروا إلى هذا الخبر فى النصوص التى رجع إليها المستر كريسويل .

٣ ــ البكرى ــ كتاب المغرب ، ص ٣٧ . ــ وابن عذارى ، البيان المغرب فى ذكر أخبار المغرب ، طبعه جديدة نشرها كولان وليفى بروفنسال فى ليدن سنة ١٩٤٨ ، الجزء الأول ص ٥١ .

٤ ــ النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأرب ، الجزء الثانى والعشرون من مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ٥٤٧ ، ورقة ١١٥ ب : ــ وابن ناجى التنوخى ، معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان ، طبع تونس ١٢٣٠ ــ ١٣٢٥ هـ الجزء الثانى ص ٩٧ .

٥ ــ ابن أبى دينار القيروانى ، تاريخ أفريقية ، ترجمة بليسيه وريموساه ، طبع باريز سنة ١٨٤٥ ، ص ٨٦ .

٦ ــ الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ترجمة فانيان ، طبع قسنطينية سنة ١٨٩٥ ، ص ٥٧ .

٧ ــ الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ص ٩٣ .

٨ ــ لم يخف المستر كريسويل أسفه وحيرته فى كتابه (العمارة الإسلامية) الجزء الثانى ص ٣٢٤ .

٩ ــ أوردنا فى المتن كثيراً من النصوص التاريخية المسجلة فى مسجد الزيتونة .

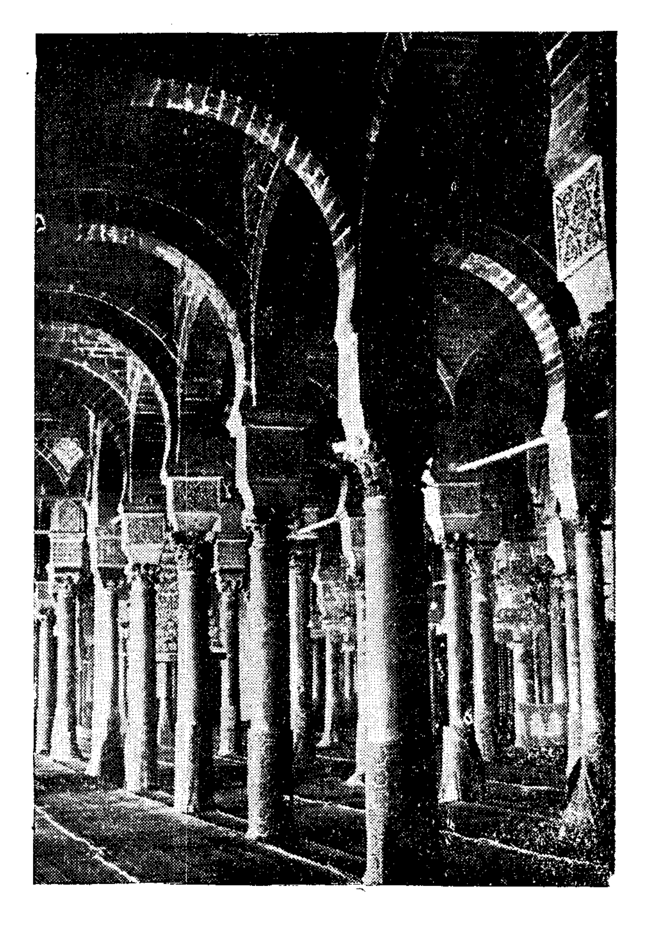
١٠ ــ البكرى ، كتاب المغرب ، ص ٤٠ .

١١ ــ مارسيه ، كتاب الفن الإسلامى ، ج ١١ ، ص ٤٧ . ــ وكريسويل ، العمارة الإسلامية ، الجزء الثانى ، ص ١٦٧ إلى ١٧٠ ، شكل ١٥٦ .

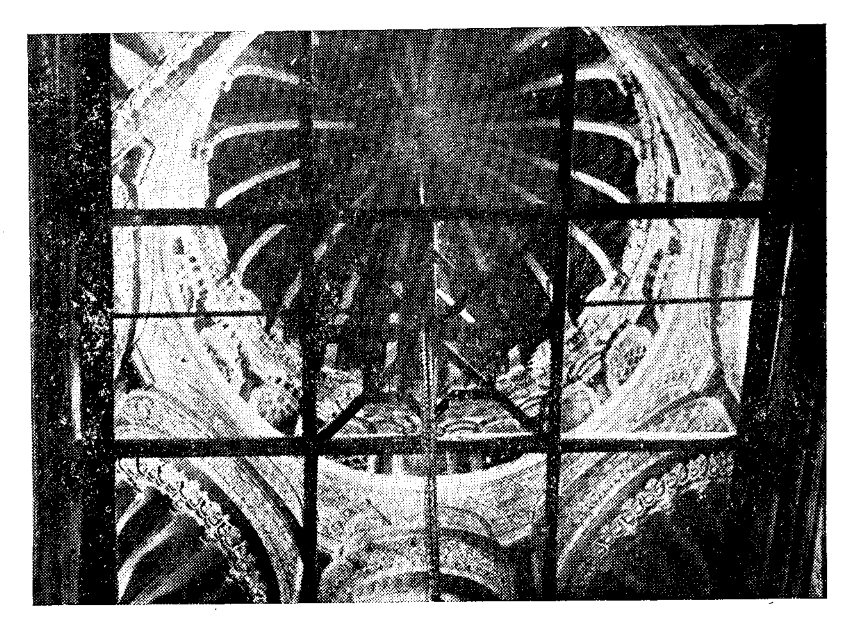
١٢ ــ العمارة الإسلامية ، شكل ١٩٩ أمام ص ٢٥٠ .

١٣ ــ فكرى ، القيروان ، ص ٢٩ إلى ٦٠ .

١٤ ــ محمود أحمد ، جامع عمرو بن العاص بالفسطاط من الناحيتين التاريخية والأثرية ، طبع بولاق سنة ١٩٣٨ ، تخطيط الجامع ص ٤٨ . ــ كريسويل ، جامع عمرو ، مقالة بالفرنسية نشرت فى مطبوعات المعهد



(شكل ٥) عقود بيت الصلاة



(شكل ٦) قبة المحراب – منظر من الداخل

الفرنسي سنة ١٩٣٢ ، صفحات ١٢٢ إلى ١٦٦ ، تخطيط الجامع فى سنة ٢١٢ هجرية ، شكل ١٦ أمام ص ١٦٠ .

١٥ – نشر المستر كريسويل تخطيطاً آخر فى كتاب العمارة الإسلامية ، الجزء الثانى ، شكل ١٧٠ أمام ص ١٩٢ . وحرص فى هذا التخطيط الثانى أن يضيف إلى بيت الصلاة فى تخطيطه الأول بلاطة ، حتى يصبح عدد البلاطات فردياً ، وحتى يزيح المحاريب عن موضعها فى سمت اتجاه الأعمدة .

ولا شك فى أن المستر كريسويل أراد بهذا التعديل أن يغاير الرأى الذى كنت قد انتهيت إليه ، فى كتاب القيروان سنة ١٩٣٤ ؛ غير أن النصوص التى يستند إليها كريسويل فى تعديل مشروعه الأول ، تصح أن تكون حجة على تدعيم هذا المشروع ، لا على نقضه . وعلى كل حال فإن أساكيب جامع عمر ، حتى فى هذا المشروع المعدل ، تحتفظ بموازاتها التامة لجدار القبلة .

١٦ – مارسيه ، كتاب الفن الإسلامى ، الجزء الأول ص ١٨ .

١٧ – فكرى ، القيروان ، ص ٢٠ إلى ٣٥ .

١٨ – كريسويل ، العمارة الإسلامية ، الجزء الثانى ، شكل ١٤٦ أمام ص ١٥٤ .

١٩ – المرجع السابق ، شكل ٢٢٣ أمام ص ٢٨١ .

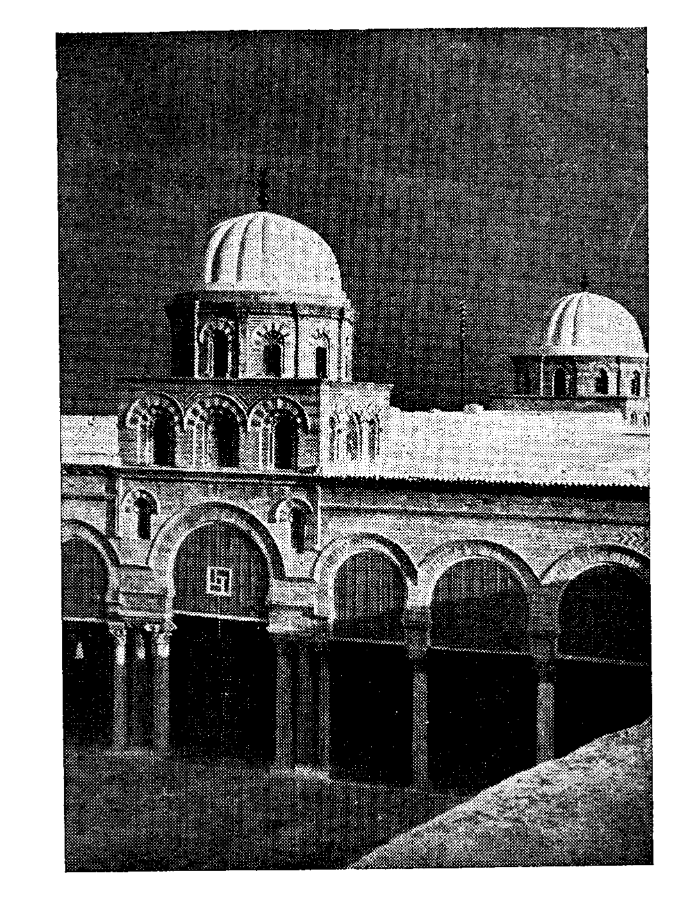
٢٠ – المرجع السابق ، شكل ٢٠٥ أمام ص ٢٥٨ .

٢١ – فكرى ، القيروان ، ص ٢٥ .

٢٢ – انظر الأشكال التخطيطية التى رسمها الأستاذ أدمون بوتى فى مقاله « تطور نظام التاء فى المساجد » .

٢٣ – المقال السابق ، ص ٩٤ . نشر هذا المقال بعد أن قدمنا كتابنا (القيروان) للطبع ، ونأسف أننا لم نستطع الاطلاع على هذا المقال والإفادة من المستندات القوية والآراء الصائبة التى شملها . غير أنه يسرنا أن يكون الأستاذ (بوتى) قد انتهى إلى نفس الرأى الذى أبديناه فى هذا الكتاب .

٢٤ – هى فى واقع الأمر ثلاثة صفوف غير أن الأولى منها والأخيرة مزدوجتان .



(شكل ٧) منظر من الخارج للقبتين (قبل ١٩٣٩)



(شكل ٨)

٢٥ — البكرى ، كتاب المغرب ، ص ٤٠ .

٢٥ — البكرى ، كتاب المغرب ، ص ٤٠ .

٢٦ — فكرى ، القيروان ، ص ٧١ إلى ٧٨ .

٢٧ — الزركشى ، تاريخ الدولتين ، ترجمة فانيان ، ص ٩٣ .

٢٨ — وهذا خلاف لما ذكره المسيو (مارسيه) فى كتاب الفن الإسلامى ، الجزء الأول ص ٦٣ .

٢٩ — فكرى ، القيروان ، ص ٧٧ .

٣٠ — انظر مارسيه ، قباب مسجد القيروان وسقفه ، طبع تونس وباريز سنة ١٩٢٥ — وفكرى ، التأثيرات الإسلامية ، ص ١٠٤ إلى ١١٥ — والقيروان ص ٨٧ إلى ١٠٤ .

٣١ — أقيمت قبة المسجد الجامع فى سوسه سنة ٢٣٦ ﻫ (٨٥٠ م) . وما زالت هذه القبة مجهولة ولا يرى منها إلا بناؤها الخارجى ، وقد اكتشفناها منذ أعوام ودرسنا بناءها الداخلى وصورناه . وسنفرد لهذا المسجد ولقبته فصلا هاماً فى الكتاب الذى نعده عن « الفن الإسلامى فى البلاد التونسية » .

٣٢ — فكرى ، القيروان ، ص ١٠٣ ، شكل ٤٦ .

٣٣ — حاول المستر كريسويل أن يقدم تاريخ قبة القيروان ٢٨ سنة ، فأرجعها إلى سنة ١٥٠ ﻫ (٨٦٤م) بدلا من ٢٢١ ﻫ — (٨٣٦ م) غير أن الرأى الذى يبديه لا يستند على أساس تاريخى بل إنه بالعكس يخالف النصوص التاريخية الثابتة . ثم إن الدراسة الأثرية تبين بوضوح أن قبة القيروان تسبق عهد قبة تونس ولا يستقيم الرأى الذى يدعى إقامتهما فى سنة واحدة .

٣٤ — فكرى ، القيروان ، ص ٩٢ ، شكل ٣٦ .

٣٥ — لامبير ، قباب مساجد تونس والأندلس ، مقال فى مجلة « هسبيريس » سنة ١٩٣٦ .

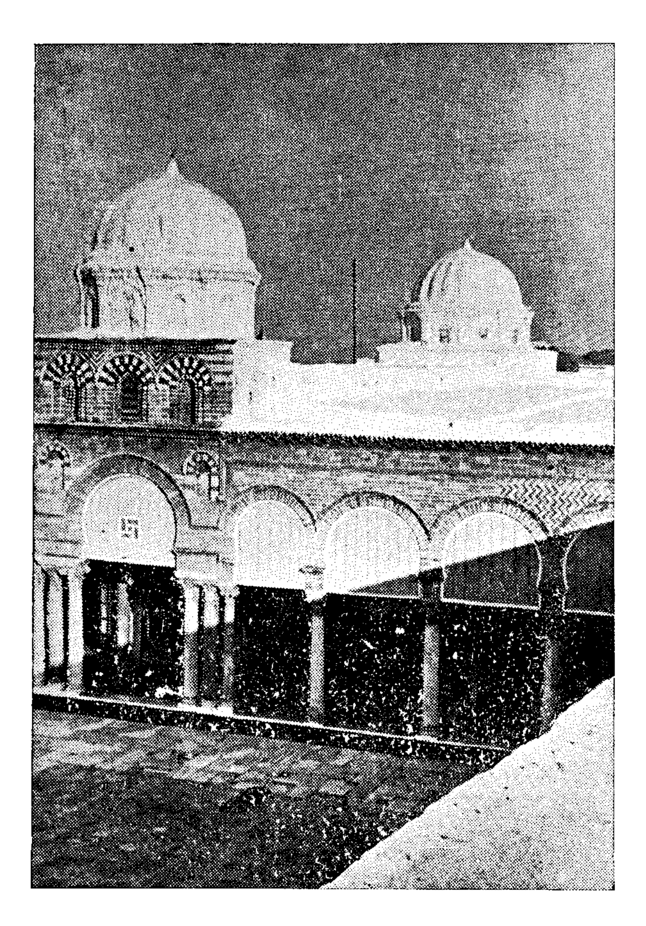
٣٦ — المقال السابق ، ص ١٣١ .

٣٧ — فكرى ، التأثيرات الإسلامية ، ص ١١٤ .

٣٨ — استقينا هذا التفسير للفظية « عنزة » من الأستاذ ليفى بروفنسال .



(شكل ٩) قبة الصحن – منظر من الداخل



(شكل ١٠) منظر من الخارج للقبتين كما هما اليوم

٣٩ – ومع ذلك فقد أقيم فى بعض أضرحة القاهرة الفاطمية محاريب فى البهو الخارجى ، علاوة على محاريب بيت الصلاة ، ومن أمثلة ذلك ضريح السيدة رقية .

٤٠ – يراجع ما كتبناه عن الأصل الفارسى للقباب ذات المقرنصات المعقودة ، فى كتاب (التأثيرات الإسلامية) ، ص ٩٥ إلى ١٠٤ ، وفى كتاب القيروان ص ١٠١ . وما كتبه كريسويل فى (العمارة الإسلامية) ، جزء ثان ، ص ١٠١ إلى ١١٨ . وقد انتهى المستر كريسويل إلى نفس الرأى الذى كنا أبديناه قبل ظهور كتابه بست سنوات ، ولكنه لم يشر إلى بحثنا هذا فى كتابه .

٤١ – مارسيه ، قباب وسقف ، ص ١٧ .

٤٢ – المرجع السابق ، ص ٢٠ .

٤٣ – المرجع السابق : ص ١٨ – وفكرى ، القيروان ، ص ١٤٢ إلى ١٤٤ .

٤٤ – المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

٤٥ – المراجع السابق ، ص ١٤٢ الى ١٤٤ .

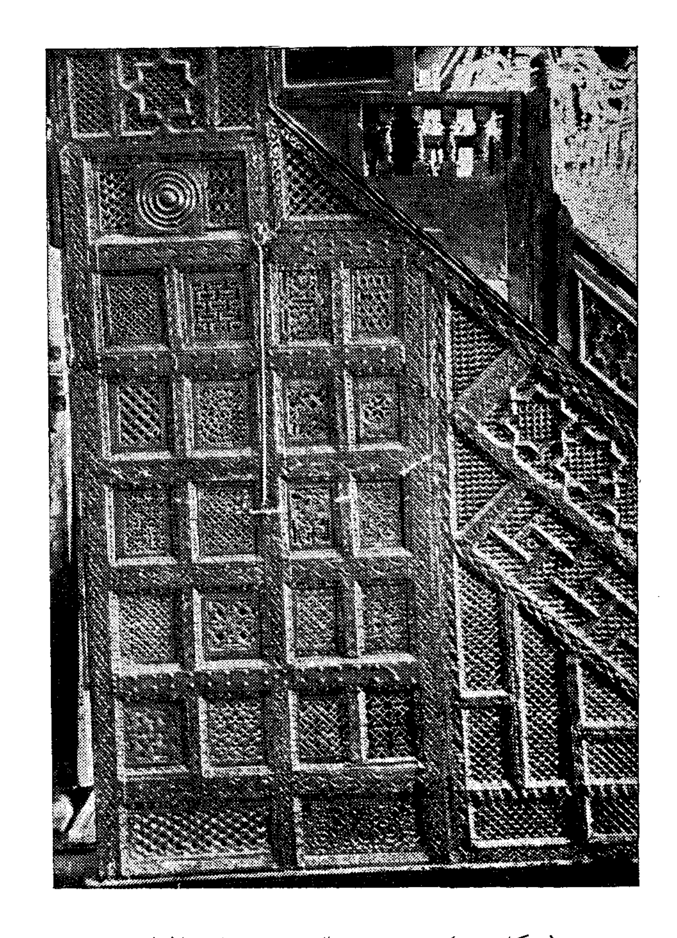
٤٦ – فكرى ، التأثيرات الإسلامية ، ص ٢٢٥ إلى ٢٤١ .

٤٧ – المرجع السابق ، ص ٢٢٨ ، وشكل ١٠ ، واوحة ٥ أمام ص ٤١ .

٤٨ – المرجع السابق ، ص ١٦١ إلى ١٦٥ – والقيروان ص ١٤٨ إلى ١٥٠ .

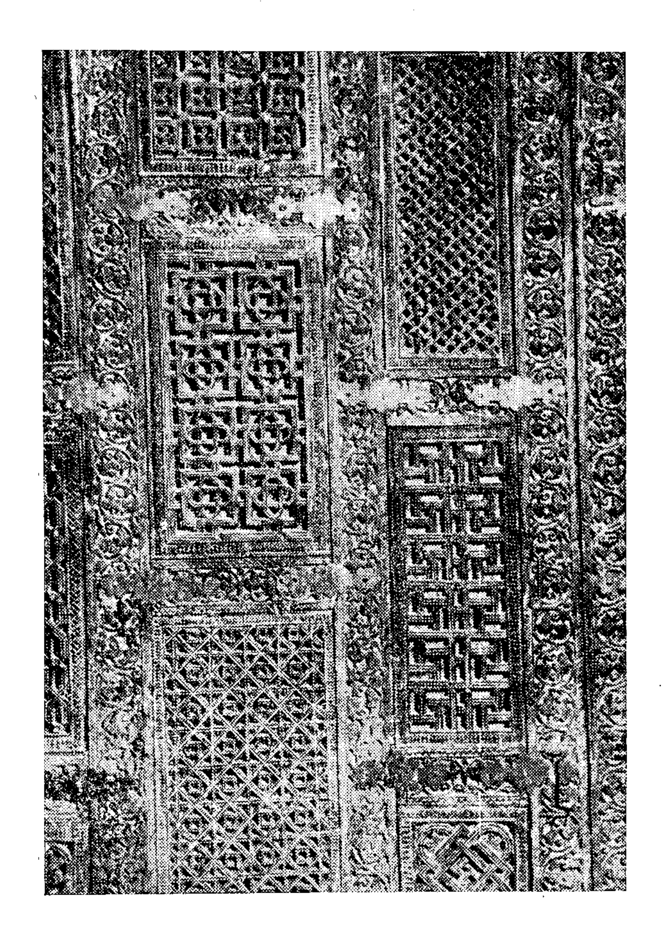
٤٩ – كريسويل ، العمارة الإسلامية ، جزء ثان ، ص ٣١٧ إلى ٣١٩ ، اللوحتان ٨٩ و ٩٠ .

٥٠ – مارسيه ، فن الإسلام ، طبع باريز سنة ١٩٤٦ ص ٣٠ و ٣١ .



(شكل ١١) منبر مسجد الزيتونة – بجانب المحراب

(شكل ١٢) تفصيلات لوحات المنبر



(شكل ١٣) تفصيلات الأعمال الخشبية – الجانب الشرقى لمحراب القيروان

التمثيل السياسى
بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية

لم تكن العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين فى العصور الوسطى ، قصة حروب متصلة الحلقات ، أو إغارات متكررة تبادلها الطرفان ، على نحو ما يستشف القارئ العابر من الحوليات التى تناولت تلك العلاقات بالتأريخ . فقد جهدت الدولتان الإسلامية والبيزنطية على إقامة علاقات حسن الجوار ، وتجنيب رعاياهما ويلات الحروب . واعتمدتا فى تنفيذ السياسة السالفة على ديوان الرسائل ، وهو ما عرف أيضاً فى الدولة الفاطمية بديوان الإنشاء والمراسلات . فكان هذا الديوان أشبه بوزارة الخارجية فى المصطلح الحديث ، يوجه سياسة الدولة الخارجية ، ويضع التوجيهات والتعاليم التى تسير عليها هذه السياسة .

وتمتع صاحب ديوان الرسائل ، (أو وزير الخارجية) λόγοθέτης τοῦ δρόμον فى الدولة البيزنطية بمركز رفيع . فكان أعظم المقربين إلى الأمبراطور ، وأكثر الناس ملازمة له فى جلساته العامة والخاصة[١] . وتمتع قرينه فى الدولة الإسلامية بنفس السلطان والنفوذ ، حسبما ورد فى نص متأخر تناول فى إسهاب تاريخ ديوان الرسائل أو الإنشاء ؛ « فهو أول داخل على الملك وآخر خارج عنه ، ولا غنى له عنه فى مفاوضته فى آرائه ، والإفضاء إليه بمهماته ، وتقريبه منه فى آناء ليله وساعات نهاره . . . . ، فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثقته به ، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه .[٢] »

وتولى صاحب ديوان الرسائل[٣] انتقاء السفراء عندما تقتضى الظروف

---

(١) S. Runciman, Byzantine Civilization, 155.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣) كان المضطلع بهذا المنصب الجليل يتحلى بصفات خلقية وعلمية ممتازة . فلا بد من توافر

الاتصال الدبلوماسى . إذ لم يكن للدولتين الإسلامية والبيزنطية ممثلون دائمون ، أو دور سفارات متبادلة بينهما على نحو ما هو معروف فى العصر الحديث . فكان السفير إذ ذاك أشبه بما يعرف اليوم من « السفراء فوق العادة » ، الذين يوفدون لأداء عمل ينتهى بانتهاء مهمتهم[١] . على أن اختيار السفراء لم يجر اعتباطاً ، وإنما وضعت الدولة الإسلامية شروط عدة لانتقائهم ، أهمها توافر مميزات جسمانية وخلقية وثقافية .

وقد وضعت المؤلفات العربية لبيان الشروط الواجب توافرها فى السفير ، وذكرت أمثلة عدة لسفارات عربية وغير عربية للإيضاح وإكمال الفائدة . ومع أن هذه الكتب العربية متأخرة عن الفترة التى يعالجها موضوع المقال على هذه الصفحات ، فإن أهميتها جليلة فى بيان علو كعب الدولة العباسية لما ذخرت به من أمثلة عديدة لسفراء هذه الدولة . كما أن التعليمات والتوجيهات التى رددتها هذه الكتب لا تقل عن الأعمال التى دونها علماء الدولة البيزنطية فى ميدان السياسة والدبلوماسية[٢] . ومن ثم تشابهت أعمال السلطات الإسلامية والبيزنطية تقريباً فى انتقاء سفرائهما والمهام التى ألقيت على كاهل أولئك السفراء .

الفطنة والزرانة فيه ، فلا يكثر من التصريح فى كلامه ، ويستغنى عن ذلك بالإشارة والإيماء كلما استطاع إلى ذلك سبيلا . وإلى جانب ذلك كان عليه أن يلم قدر استطاعته باللغات الأجنبية كتابة وحديثاً ، ولا سيما التى تتعلق بأمور دولته .

(١) Runciman, op cit, 156

(٢) من الكتب العربية الهامة التى تناولت التمثيل الدبلوماسى للدولة الإسلامية ، وشروط اختيارها للسفراء ، وذكر أمثلة لمهام أولئك السفراء وما جرى لهم من أحداث ، كتاب « رسل الملوك ، ومن يصلح للرسالة والسفارة » ، لمؤلفه ابن الفراء . وقد نشر هذا الكتاب الأستاذ صلاح الدين المنجد ، وعلق عليه فى إسهاب . ودون أحد أباطرة الدولة البيزنطية ، ويدعى قنسطنطين السابع (الملقب بورفيروجنيتوس) كتاباً اسمه « المراسيم » (De Ceremoniis) شرح فيه لابنه قواعد اللياقة (البروتوكول) الواجب اتباعها فى البلاط البيزنطى . وتناول فى هذا الكتاب ذكر للسفراء البيزنطيين ومهامهم ، ووصف لاستقبال السفراء المسلمين وقواعد معاملتهم . ويعطينا هذان الكتابان خطوطاً عامة عن التمثيل الدبلوماسى بين العباسيين والبيزنطيين .

ومن الخصائص الجسمانية التى ذكرت فى انتقاء السفير[١] « تمام القدّ ، وعبالة (ضخامة) الجسم ، حتى لا يكون قميئاً ولا ضئيلا . وإن كان المرء بأصغرية ، ومخبوءً تحت لسانه ، فإن الصورة تسبق اللسان ، والجثمان يستر الجنان[٢] . » على أن هناك أمثلة قليلة جداً شذت فيها القاعدة السالفة عندما بذّت الخصائص الأخرى للسفير مميزاته الجثمانية . فكان يراعى فى السفير أيضاً الفطنة والذكاء ، والمقدرة على التعبير الصحيح ، والمعرفة الواسعة لشتى العلوم والفنون ، ولا سيما المسائل الدينية[٣] .

وبقدر توافر المميزات السالفة فى السفير بقدر ما زادت خدماته لدولته . ومن ثم تغالى كل من الخلفاء العباسيين والأباطرة البيزنطيين فى انتقاء السفراء ، إذ توقفت تحديد سياسة الدولة من سلم أو حرب على التقارير التى يقدمها أولئك السفراء بعد عودتهم . وكان السفير يزود قبل سفره بتعليمات سرية ، يمدها به قلم المخابرات السرية (أى الجواسيس) عن البلد الموجه إليه . فالمعروف أن المسلمين والبيزنطيين استخدموا الجواسيس بشكل ملحوظ لخدمة أغراضهم الحربية ، وتنفيذ مآربهم السياسية .

وسار التمثيل الدبلوماسى بين الدولتين العباسية والبيزنطية وفق قواعد مقرره ، ونظم ثابتة . واستهدف تحقيق أغراض تشبه إلى حد كبير الأعمال التى يضطلع بها رجال السلك السياسى بين الدول فى الوقت الحاضر . فكان السفير يزود قبل سفره بخطاب عليه الشارة الملكية ، أو الخاتم الملكى ، وبه تعريف بالمهمة التى كلف بها ، على نحو أوراق الاعتماد التى يزود بها السفراء فى الوقت الحاضر . وبعد أن يتم السفير إعداد أوراقه الرسمية يخرج على رأس قافلة ،

---

(١) تذكر المراجع العربية كلمة رسول للدلالة على كلمة السفير التى استخدمتها فى هذا المقال . والتحديد اللغوى لهاتين الكلمتين واحد ، فالرسول مهما تعددت أغراضه له صفة واحدة ، هى التوجيه ونقل الأخبار ، وكذلك السفارة معنى من معانى الرسالة ، وهو التوجه والانطلاق إلى القوم . وفضلت كلمة سفير لشيوعها فى الوقت الحاضرة .

(٢) ابن الفراء : رسل الملوك ، ص ٢٠ .

(٣) ابن الفراء : رسل الملوك ، ص ٢٢ ، ٢٣ .

محملة غالباً بالهدايا الثمينة لسيد البلاد المتجه إليها ، ولكبار رجال الدولة هناك[١] .

واعتادت السفارات الإسلامية والبيزنطية اجتياز الممر المعروف باسم أبواب قليقية ، عند ذهابها إلى القسطنطينية أو بغداد[٢] . وفى العاصمة يحدد للسفير يوم يقابل فيه ولى أمر البلاد ، وتقديم الرسالة الملكية التى يحملها . وقبل ذلك اليوم يقضى السفير وقته مع رجال القصر ، يتلقن منهم آداب مقابلة ولىّ أمر البلاد ، وأساليب التحية التقليدية . إذ لو أساء السفير السلوك أو لم يرع آداب الحديث ، يلقى فى السجن ، أو يعامل معاملة جافة[٣] .

ودأبت السلطات الرسمية على وضع السفير فى فترة الانتظار كذلك تحت الرقابة الشديدة ، ومنعه من الاطلاع على شىء لا ترغب الدولة فى كشفه له . فتحول السلطات مثلا بين اتصال السفير وبين الشخصيات التى يجب أن تظل بعيدة عن الشئون السياسية ، أو يخشى من اتصالهم كشف أسرار علمية أو حربية . ولكن السفراء جهدوا فى تلك الأثناء على مقابلة الشخصيات البارزة فى الدولة من الوزراء ، لتسهيل مهمتهم ، وتحقيق أسباب النجاح لها . فمن ذلك ، أن السفير البيزنطى نقفور أورانيوس (Nicephorus Uranius) كان مزوداً — عندما أوفد إلى بغداد سنة ٩٨٠ م — بتعليمات تنصحه بخطب ودّ عضد الدولة ، أعظم شخصية فى الدولة الإسلامية إذ ذاك[٤] .

وعندما يأتى يوم المقابلة يجلس الخليفة أو الإمبراطور فى أبهى حلة ، متصدرا كبار رجال دولته فى قاعة الاحتفالات ، ويخصص للسفير مكان بارز يليق بمقامة والمهمة التى جاء من أجلها ، ويقدم على سائر سفراء الدول الأخرى . إذ حرصت الدولتان الإسلامية والبيزنطية على معاملة سفرائهما معاملة ممتازة ، تنم عن تقدير كل دولة للأخرى . ويقدم السفير الخطاب الملكى ، فيتقبله

---

(١) Baynes, The Byzantine Empire, 74; Runciman, op cit, 158 .

(٢) Le Strange, The Lands of the Eastern Caliphate, 134.

(٣) Runciman, op. cit., 157.

(٤) Ibid., 158.

صاحب الأمر فى البلاد ، ويسلمه لوزيره ، ويستعرض بعد ذلك الهدايا .
وكانت أنواع هذه الهدايا تذكر فى الخطاب الملكى . ففى خطاب ورد مع سفير بيزنطى للخليفة المعتصم جاء فيه قول الإمبراطور : « وقد تهادت الملوك من قبلنا ، وقد وجهت مع رسولى من الثياب الديباج المذهبة أربعين ثوباً ، طول كل ثوب منها أربعون ذراعاً فى عرض عشرين[1] . »

ويُسأل السفير فى المقابلة الملكية عن أحوال دولته وسيرة قادتها ، وعن مرافقها الاقتصادية وغيرها من الشئون التى تهم السلطات معرفتها . وتفاوتت مقدرة السفراء فى الحيطة فى الإدلاء بالمعلومات ، والاشادة بدولهم[2] . وعندما تنتهى المقابلة يخرج السفير إلى دار الضيافة التى يقيم بها إلى أن ينتهى من مهمته . وتحتفى الدولة بالسفير مدة بقائه بعاصمتها حفاوة تهدف منها إعطاءه صورة طيبة عن أحوالها وهيبتها .

وتعددت مظاهر الحفاوة بالسفراء ، فكان يقام لبعضهم عرض عسكرى كبير ، تعرض فيه الدولة قوتها الحربية ، ولا سيما إذا كانت مهمة السفير تتعلق بإنهاء حالة حرب . وأحياناً يوضع للسفير برنامج للترفيه ، ومشاهدة معالم العاصمة وروائع العمارة بها . وكان السفراء يحذرون قبل سفرهم من التمادى فى التمتع بألوان الحفاوة ، حتى لا يدلوا بأقوال تسيئ إلى بلدهم أو تفشى أسرار خطيرة . فحرم عليهم شرب الخمر أو مصاحبة النساء أثناء تأديتهم سفارتهم[3] .

وبذّت مشاهدة معالم العاصمة مظاهر الحفاوة الأخرى . ومن ذلك أنه وفد على الخليفة أبى جعفر المنصور أحد سفراء الدولة البيزنطية ، بعد انتهائه من بناء بغداد . فأمر الخليفة حاجبه الربيع بن يونس أن يصحب السفير فى جولة حول العاصمة ، يريه فيها قباب الأبواب ، ومناعة الأسوار ، وما فى عاصمته من العمران . وعندما عاد السفير من جولته سأله الخليفة عن ملاحظاته ،

---

(١) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٣٥ .
(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٣) ابن الفراء : نفس المرجع ، ص ٢٥ .

ومدى ما تركته هذه المظاهر فى نفسه من أثر[١] .

وبالغت الدولة البيزنطية فى إكرام السفراء المسلمين ، فكانت تعهد إلى بعض موظفيها باصطحاب السفير لمشاهدة كنيسة أيا صوفيا أعظم الكنائس بالقسطنطينية ، وغيرها من الأديرة بالمدينة . وأقيمت حفلات للسفراء فى الملعب (Hippodrome) ، الذى كان يعد قلب المدينة النابض[٢] . إذ كان يؤمه علية القوم لمشاهدة المباريات الرياضية ، وألوان السباق والتنافس بين الرياضيين . وأظهر السفراء المسلمون اعتداداً بالنفس ، جعل الدولة البيزنطية لا تتبع معهم أساليب الترفيه التى دأبت على تقديمها لسفراء جيرانها من المتبربرين . فكان السفير المتبربر يشاهد غرف القصر الزاخرة باللعب وتماثيل الطيور والأسود ، التى تحرك آليا لإثارة الدهشة والعجب[٣].

ولم تصرف مظاهر الحفاوة السفراء عن تأدية مهمتهم ، كما لم تصرف الدولة الوافدين إليها عن مراقبتهم سراً . إذ كانت السفارات المتبادلة تهدف إلى التبليغ بقيام خليفة أو إمبراطور جديد على العرش ، أو إنهاء حالة حرب بين الدولتين أو تبادل الأسرى وإزالة حالة توتر توشك أن تؤدى إلى إشعال نار الحرب . وكان النوع الأول من السفارات قليل ، ولكن كثيراً ما أخفى وراءه أغراضاً سياسية ، هدفها استطلاع أحوال البلاد .

على أن السجل الدقيق لنظام السفراء يستشف من الأحداث التى دونتها الحوليات الإسلامية والبيزنطية عن تبادل الأسرى بين الجانبين . ففى سنة٨٥٩ م (٢٤٦ هـ) أرسل الإمبراطور ميخائيل الثالث أحد كبار رجال دولته — ويدعى فى المراجع العربية أطروبيليس ، ويحتمل أنه قنسطنطين تريفيليوس(Triphylius) فى المراجع البيزنطية — إلى الخليفة العباسى المتوكل ، لمفاوضته فى تبادل الأسرى

(١) ياقوت : معجم البلدان (بغداد) ؛ ج ٢ ، ص ٢٣٣ .
الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، ج ١ ، ص ٧٨ .
(٢) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٢٠ .
(٣) Baynes, op cit ,72
(٤) Vasiliev, Byzance et les Arabes, 234, 235.

لدى كل منهما قبل الاتفاق على الفداء . فأرسل الخليفة المتوكل فى نفس السنة سفيراً إلى القسطنطينية ، يدعى نصر بن الأزهر ، ليتأكد من صحة أقوال السفير البيزنطى[١] .

ووصل السفير العباسى إلى القسطنطينية متشحاً الملابس السوداء ، وعلى رأسه القلنسوة ، ومتمنطقاً سيفاً وخنجراً ، وهو اللباس الرسمى للعباسيين . وعندما جاء موعد مقابلة الإمبراطور أبى وزير خارجته — وكان بتروناس — خال الإمبراطور — أن يسمح للسفير بدخول البلاط على هذه الهيئة ، مبدياً إعتراضه على الملابس السوداء ، وعلى السيف بصفة خاصة . غير أن النخوة دبت فى نفس السفير الإسلامى ، واستبد به الغضب ، وهم راجعاً . فاضطر رجال الدولة البيزنطية إلى ملاطفة السفير ، حتى عاد إلى البلاط ، ودخل على الإمبراطور ، وقدم له الهدايا .

وروى السفير ما حدث له ، وما شاهده فى البلاط البيزنطى فى هذه الصورة الشيقة : « . . . . وأبوا أن يدخلونى بسيفى وسوادى . . . . فانصرفت ، فرددت من الطريق ، ومعى الهدايا نحواً من ألف نافجة مسك ، وثياب وحرير وزعفران كثير وطرائف . . . . وحملت الهدايا التى معى ، فدخلت عايه (أى الإمبراطور) فإذا هو جالس على سرير فوق سرير ، وإذا البطارقة حوله قيام . فسلمت عليه ، ثم جلست على طرف السرير الكبير ، وقد هيئ لى مجلس ، ووصفت الهدايا بين يديه[٢] . »

وكان مع الإمبراطور ثلاثة تراجمة ، نقلوا كلام السفير العباسى ، الذى أبدى كياسة ومهارة دبلوماسية قبل بدء الحديث ، إذ حذر المترجمين من الأطناب فى كلامهم قائلا لهم : « لا تزيدون على ما أقول لكم شيئاً[٣] » وقد حدث أثناء إقامة السفير العباسى بالقسطنطينية جفوة بين الدولتين الإسلامية

---

(١) الطبرى ، تاريخ الرسل ا ج ١١ ، ص ٦١ .

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٦١ .

(٣) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٦١ .

والبيزنطية ، بسبب الخلاف على قلعة اللؤلؤة[١] بآسيا الصغرى . فبقى السفير أربعة أشهر لا يقابل فيها الإمبراطور لإنهاء مهمته . ولما سويت المشكلة السالفة استؤنفت المفاوضات لإجراء الفداء .

وتجلت فى هذه المرحلة من المفاوضات مهارة السفير الإسلامى الدبلوماسية . فبعد أن أتم الاتفاق أقسم كل من السفير وبتروناس — وزير الخارجية — نيابة عن الإمبراطور على احترام الشروط التى عقدوها . ولكن السفير العباسى التفت إلى الإمبراطور وقال : « أيها الملك ، قد حلف لى خالك ، فهذه اليمين لازمة لك ؟ » فأجاب الإمبراطور برأسه ، نعم . وعلق السفير على ذلك بقوله فى مذكراته : « ولم أسمعه (أى الإمبراطور) يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد بلاد الروم (أى الدولة البيزنطية) إلى أن خرجت منها ، إنما يقول الترجمان ، وهو يسمع ، فيقول برأسه ، نعم ، أو لا . . . . وخاله المدبر أمره[٢] . »

وكانت الخطابات التى يحملها السفراء لإجراء تبادل فى الأسرى ، واضحة الأهداف والأغراض . ومن ذلك كتاب جاء إلى المعتصم العباسى بعد عودته من حملة عمورية ، التى ضربها سنة ٨٣٨م (٢٣٢ هـ) انتقاماً لإغارة سبق أن شنها البيزنطيون على مدينة زبطرة الإسلامية عام ٨٣٧ م (٢٢٣ هـ) . فجاء فى خطاب الإمبراطور البيزنطى ما نصه : « إن الملوك لم تزل يغزو بعضها بعضاً ، ويعلو بعضها على بعض . . . . وقد كان منا بزبطرة ما كان ، وتبينت وجه الخطأ فيه . وقد كلت لى بالصاع أصوعاً فيما فعلت بعمورية . وأنا أسألك بالطينة المباركة التى أنت منها أن تنعم علىّ بإطلاق بطارقتى ، فإنهم مائة وخمسون بطريقاً . وأنا أفتدى كل واحد منهم بمائة من المسلمين[٣] . »

---

(١) تتحكم هذه القلعة فى الممر المشهور باسم الأبواب القليقية ، وحرص كل من المسلمين ، والبيزنطيين على بقائها فى قبضتهم . وكان أهالى هذه القلعة يحوّلون ولاءهم من السلطة الإسلامية إلى البيزنطية ، وبالعكس ، مما أدى كثيراً إلى بث روح التوتر بين الدولتين ، على نحو ما حدث فى الفترة السابقة الذكر بالمقال .

(٢) الطبرى ، نفس المرجع ، ج ١١ ، ص ٦١

(٣) ابن الفراء ، نفس المرجع ، ص ٣٤

ويبين الخطاب السالف حرص الدولة الإسلامية على الاحتفاظ بكبار الأسرى البيزنطيين . إذ استهدفت من ذلك تسخيرهم فى خدمة أغراضها السياسية . وتجلت هذه السياسة الإسلامية على عهد العباسيين بصورة واضحة أيضاً فى احتضانها لكبار رجال الدولة من البيزنطيين الخارجين على السلطات الرسمية بها . ومن ثم غدت مهمة السفارات كذلك وضع حد لهذه المشاكل ، التى كانت تلى فى أهميتها تبادل الأسرى .

وكان السفراء البيزنطيون يتحايلون ، فى أشباه هذه المهام الخاصة بإعادة اللاجئين السياسيين ، بوسائل أشبه بما يتذرع بها رجال السلك السياسى فى الوقت الحاضر . ففى السنوات الأولى من عهد الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل (٨٢٩ — ٨٤٢ م) توجه رسول من قبله يدعى حنا النحوى إلى الخليفة العباسى المأمون ، ومعه خطاب يعلن للسلطات الإسلامية نبأ تولى الإمبراطور ثيوفيل العرش . وفضلا عن ذلك كاف السفير البيزنطى بتهدئة الحالة السياسية التى كانت متوترة إذ ذاك بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية . ووقع الاختيار على حنا لتضلعه فى اللغة العربية ، حيث جهدت السلطات الرسمية على إيفاد السفراء من الضليعين فى اللغتين العربية واليونانية [١] .

وعمد حنا على أن يبدو أثناء إقامته فى بغداد بمظهر الثرى الجواد . فكان يحمل للخليفة العباسى هدايا ثمينة ، كما نثر الذهب على المحيطين به كما تنثر الرمال ، على حد قول المراجع البيزنطية ، وأجزل العطاء لمن اتصل بهم فى دار الضيافة ببغداد [٢] . وكان حنا يخفى بهذه المظاهر هدفاً آخر جاء من أجله إلى العاصمة الإسلامية . إذ قام ببغداد فى ذلك الوقت لاجىء بيزنطى يدعى مانويل ، كان من كبار القادة البيزنطيين وأعظمهم خبرة بفنون القتال . وقد اتهم هذا القائد فى أوائل الإمبراطور ثيوفيل العرش بالتآمر على سلامة الدولة . ففر مانويل إلى حدود قليقية ، حيث قابل عمال الحدود المسلمين ، وطلب منهم

---

(١) Bury, History of the Eastern Empire, 256.

(٢) Ibid., 256.

السماح له بمقابلة الخليفة (١) .

ورحب المأمون بهذا القائد ، واستخدمه فى الحملات التى شنها ضد طائفة الخرمية وزعيمها بابك . وكانت جماعة الخرمية شديدة المراس فى ثورتها على الخلافة الإسلامية بتحريض البيزنطيين ، لإحداث القلاقل بالدولة ، وصرفها عن الهجوم على أراضيها . ولكن تبين للإمبراطور ثيوفيل بعد استتباب الأمر له فى الدولة براعة القائد مانويل ، وعمل على استدعائه للاستفادة من خدماته مرة أخرى ، وحرمان الدولة الإسلامية من جهوده . ومن ثم جاء حنا النحوى متخفياً تحت ستار إعلان نبأ تولى الإمبراطور ثيوفيل العرش ليتصل بمانويل سراً ، ويغريه على العودة إلى بلاده (٢).

واستطاع حنا تأدية مهمته ، فالتقى بمانويل بعيداً عن أعين الرقباء وأبلغه عفو الإمبراطور ، وتأكده من براءته ، ووعده برفع منزلته . واتفق مانويل مع حنا على خطة الهروب . إذ تمكن مانويل من إغراء الخلافة العباسية باشتراكه فى حملاتها على الدولة البيزنطية . وعندما اقترب من الحدود فرّ إلى داخل الأراضى البيزنطية (٣)، بعد نجاح سفارة حنا النحوى .

وهكذا كانت العلاقات الدبلوماسية بين الخلافة العباسية والدولة البيزنطية المحور الذى دارت عليه كثيراً من أحداثهما ، وصمام الأمن الذى حفظ التوازن بينهما ، عندما اشتدت الأزمات . كما حققت السفارات المتبادلة بينهما أغراضاً شتى من جس النبض والتحايل على تنفيذ المآرب من أسهل طريق وأيسره . ولكن رغماً عن تعدد الأغراض التى اضطلعت بها السفارات بين العباسيين والبيزنطيين فإنها تنهض دليلا على ماساد الطرفين من ميل إلى تسوية مشاكلهما بالطرق السلمية ، والعمل على إقامة علاقات حسن الجوار ، بما يكفل لهما الحياة الهانئة الطيبة .

دكتور إبراهيم أحمد العدوى
أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد – جامعة القاهرة

---

(١) Bury, op. cit., 257.

(٢) Ibid., 257.

(٣) Ibid., 258.

غزوة الإسكندرية

(٧٦٧ هـ – ١٣٦٦ م)

دوّن محمد بن قاسم النويرى المالقى الإسكندرانى – المؤرخ المصرى – أحداث غزوة بطرس ملك قبرص . للإسكندرية (٧٦٧ هـ – ١٣٦٦ م) كما عاصرها . وتعتبر مخطوطتة النادرة « الإلمام بما جرت به الأحكام المقضية فى واقعة الإسكندرية » مرجعاً فريداً لأحداث الحملة[١] .

وليست صورة المخطوطة الموجودة فى دار الكتب كاملة . لكنها تكمل الجزء الأول من المخطوطة الأصيلة الموجودة فى برلين (رقم ١١ Wetzstein II)[٢].

---

(١) للمخطوطة صورة فى دار الكتب المصرية (رقم ١٤٤٩) مذكورة فى فهرسها التاريخى (ص ٣٨) ومنذ سنوات يعنى المؤرخ المستشرق إتيين كومب . مدير المعهد السويسرى للآثار المصرية بدراسة المخطوطة . وقد نشر فصلا من دراستة فى مجلة جمعية الآثار اليونانية الرومانية فى اسكندرية :

— Les Présages annonçant la Croisade de Pierre de Lusignan et les causes de cette attaque. p. 58... Soc. R. d'Arch. Alex. Bull. 37. 1948.

نشر الأستاذ كومب منتخبات من المخطوطة فى مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية . المجلد ٣ .

– وقد عنى ببحث تلك الغزوة الأستاذ كاهله المستشرق الألمانى . ونشر لها ملخصا قيما فى مجلة معهد الآثار الشرقية الفرنسى بالقاهرة عام ١٩٣٥ .

— Kahle : Die Katastrophe des mittclaterichen Alexandrien. Melange Maspero. III. Mem. Inst. France. Tome 68, p. 137-154. Le Caire. 1935.

(٢) قام بدراسة المخطوطة المؤرخان هيرزوهن وكابيتانوفتشى .

— Herzohn : Der Ueberfall Alexandriens durch Peter 1. von Lusignan. Dissertation. Bonn.

— Capitanonvici : Die Eroberung von Alexandria durch Peter 1. von Lusignan. Berlin.

من الصعب الحصول على صورة كاملة لما كان عليه تخطيط الإسكندرية فى العصر العربى حتى العصر الأيوبى . بالرغم مما ذكره الرحالة عنها .

كان للإسكندرية سورمنيع تكتنفه الأبواب والأبراج . بنى جزء كبير منه فى أيام حكم أحمد بن طولون . كما عمر بعضها .

وكذلك عنى السلطان صلاح الدين الأيوبى ومن جاء بعده من أحفاده بحصون ذلك الثغر عندما هدد الصليبيون البلاد بهجماتهم ضد دمياط ورشيد . وأتمّ سلاطين المماليك الأول ولا سيما بيبرس جهود التعمير الحربية التى بدأها هؤلاء .

وفى عهد السلطنة الثانية للناصر محمد بن قلاوون (١٣٠٢ م) حدث زلزال كبير أصاب مدينة الإسكندرية ومنارها وسورها وحصونها . وقد ذكر المقريزى أن ما هدم من السور كان ستا وأربعين بدنة وسبعة عشر برجا ، وأن السلطان قد كتب لوالى الإسكندرية بعمارتها . فعمرّها .

ويفهم من وصف المؤرخ النويرى — وهو من سكان الإسكندرية — فى منتصف القرن الرابع عشر أنه كان يحيط المدينة ثلاثة أسوار . أحدهما داخلى مما يلى البلد ، وثانيها خارجى يشرف على ما يحيط بها ، والثالث بينهما . فقد ذكر وهو بصف موكب السلطان عند دخوله المدينة . . . إلى أن خرج من باب البحر الذى يلى البلد . . . « ثم سار وخرج من باب البحر الثانى ثم الثالث فشاهد البحر . . . » وكان هناك بين كل سور والآخر فيصل يفصل بينهما ، كما كان للسور الخارجى المطل على البحر أبراج وقلاع مشحونة بالعدد والسلاح والأتراس تخفق عليها الأعلام . وكان للسور الخارجى أبواب عدة كان أهمها باب رشيد فى شرق المدينة . وهو المؤدى إلى الطريق المنتهية إلى مدينة رشيد ، وباب البحر وكان يواجه الميناء الشرقية ، والباب الأخضر ، وهذان كانا فى شمال المدينة . وباب القرافة فى غربيها وكان لا يفتح إلا فى يوم الجمعة ، وباب سدرة أو باب

العمود أو باب البهار فى جنوبها » . وكانت العادة القديمة إذا زار السلطان المدينة أن تفك أبوابها وتلقى على الأرض إلى أن يرحل فيعاد تركيبها .

وكان هناك خندق يحيط بالسور من ناحيته الغربية عند الباب الأخضر (باب الغرب)، وكان قصر السلاح بالقرب من هذا الباب، وهو قصر ذو قاعات كثيرة مشحونة بمختلف السلاح والعتاد الحربى . وبالقرب من الباب الأخضر ضريح الشيخ أبى بكر الطرطوشى . وعلى مسافة الجامع الغربى أكبر جوامع المدينة وبجواره دار السلطان .

وكان للإسكندرية ميناءان كما هو الحال اليوم يفصلهما لسان طويل من الأرض اتصلت به جزيرة منارة الإسكندرية، وكانت الميناء الشرقية فى القرون الوسطى مخصصة لسفن المسيحيين، وإلى القرب منها باب البحر والباب الأخضر، وقد عرفت هذه الميناء فى العصور الوسيطة بحر السلسلة لأنه كانت له سلسلة من الحديد تغلق بها الميناء فى الليل لحراستها ومقاومة الاعتداء عليها .

ولم يقف بعد أحد رجال الآثار على موقع دار الضرب التى كانت بالإسكندرية ومثيلتها بالقاهرة .

تلك أهم أسوار الإسكندرية الإسلامية وأبوابها إلى منتصف القرن الرابع عشر، ولكن خرّب القبرصيون الكثير منها فى أثناء غارتهم .

وفى أواخر القرن الخامس عشر أمر السلطان الأشرف قايتباى ببناء حصن كبير يعرف منذ إنشائه ببرج قايتباى، ووقف عليه الأوقاف الجليلة، كما عنى بتحصين الإسكندرية ورشيد ومعظم الثغور فى الديار المصرية والشامية . كما اهتم بذلك السلطان الغورى من بعده .

وتختلف أقوال الرحالة بصدد أسوار الإسكندرية فى خلال القرن الرابع عشر . واستطاع كاهله المؤرخ الألمانى أن يصل إلى النتائج الآتية :

(ا) السور الشمالى :

يحتوى على باب البحر — باب الاسبلاناد — باب الميدان — باب الحمام — الباب الأخضر .

(ب) السور الغربى :

يحتوى على باب الخوخة (القرافة) .

(ج) السور الشرقى .

يحتوى على باب رشيد .

(د) السور الجنوبى :

يحتوى على باب سدرة أو باب الشجرة — باب العمود — باب سيدى الصنورى ،وقديماً كان يطلق على أبواب السورين الشرقى والجنوبى — أبواب البر .

قبرص فى القرن الرابع عشر

حين ولى بطرس الأول عرش مملكة جزيرة قبرص ، بعد وفاة أبيه هوج الرابع فى عام ١٣٥٩ م ، كان شاباً يتدفق حماسة وحيوية ، وتجيش نفسه برغبة ملحة للانتقام من العثمانيين والمسلمين . وقد رأت فيه المملكة اللاتينية المعاصرة خير مجاهد يعيد للعالم المسيحى سيادته المفقودة على الأراضى المقدسة .

أما قبل اعتلائه العرش -- وهو أمير طرابلس — فقد كان صاحب الفضل فى إنشاء فئة السيف التى تألفت من الفرسان المسيحيين الشبان الذين هدفوا إلى تخليص الأراضى المقدسة وإعادتها للمسيحيين ،وقد انضم إلى هذه الفئة فرسان الأمم المسيحية . من فرنسا وإسبانيا وروما ولومباردى وألمانيا وإنجلترا وسردينية . ولكن لما عجز هؤلاء عن الاستيلاء على بيت المقدس تحولوا إلى الدفاع عن قبرص التى كان المسلمون يهددونها بغزواتهم .

وتحقيقاً لهذه الغاية اتفق الملك الشاب سراً ، فى حياة أبيه ، مع أخيه « جان دى لوزينيان » أمير أنطاكية ومحافظ قبرص للتأهب والاستعداد . واستطاع الشقيقان مع زمرة من الفرسان أن يقلعوا على ظهر سفينة مشحونة بالأسلحة فى عام ١٣٤٩ . فلما وقف الأب على نبأ تلك المغامرة غضب للغاية ، وعمل كل ما وسعته الحيلة لإلقاء القبض على الخارجين ،فوفق فى اللحاق بهم والقبض عليهم وأمر باعتقالهم فى حصن كيرينيا عقاباً لهم . وقد حزن الملك العجوز مما عجل بوفاته فى ١٠ أكتوبر ١٣٥٩ .

وكان من أخلص أعوان الملك الشاب اثنان من الأصدقاء المتحمسين للكنيسة، وهما فيليب دى ميزبير (Philip de Mézieres) وبطرس دى توماس (Pierre de Thomas) اللذان أخذا على عاتقهما الدعاية للنضال ضد المسلمين . وهكذا رأينا قبرص الصغيرة تقف وحيدة فى محيط النفوذ الإسلامى، تدافع بحراره لاسترداد بيت المقدس . ولم يكن منتظراً من أرمينية أن تضطلع بدور الكفاح ضد المسلمين نظراً لحرج موقفها لمجاورتها الأمارات الإسلامية وعلى النقيض من قبرص التى كانت آمنة نظراً لموقعها البحرى ولضعف سيادة مصر البحرية فى ذلك الحين . فإذا تزعمت النضال ضد المسلمين فلإنها تحظى بموقع متوسط بين الغرب والأراضى المقدسة يضعها فى طريق الحجاج المسيحيين فضلا عن مكانتها التجارية التى جعلتها فى بحبوحة من الثراء .

رأينا أن أخلاق بطرس وطبيعته كان لها أثر كبير فى تشكيل سياسته الحربية للقضاء على النفوذ الإسلامى فى آسيا الصغرى ومصر — ولأجل ذلك رأى من الضرورى أن ينشئ قاعدة عسكرية على الأرض الأسيوية ليتخذها تكأة لتحقيق مقاصده الحربية . وتشاء الظروف الحسنة أن يتجه «ليو» الخامس ملك أرمينية طالباً نجدة ملك قبرص عندما هاجمه المصريون ثم الأتراك، ويعرض التنازل عن جوريجوس[1] إلى بطرس لقاء مساعدته للدفاع عن أرمينية . ويرسل سفارة خاصة مؤلفة من روميين هما ميشيل بساراريس وكوستاس فيلستيس إلى الملك الجديد فى عام ١٣٦٠ . وبعد مفاوضة قصيرة قبل الملك ما عرضاه عليه .

وفى ١٥ يناير ١٣٦٠ أوفد عدة سفن حربية تحمل أربع سرايا من حملة القسى بقيادة فارس إنجليزى اسمه روبرت دى لوزينيان » لتسلم جوريجوس، وما إن وصلت الحملة حتى فتح الأهالى أبواب مدينتهم وحلفوا يمين الولاء للملك بطرس . وهكذا وضعت قبرص قدميها على جزر آسيا الصغرى .

---

(١) جوريجوس أوكوريشو كانت تقع على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى بالقرب من مصب نهر ساليفى فى داخل الحدود الأرمينية .

ولكن ما علم الأتراك بما حلّ بالقرب منهم حتى فطنوا إلى مشروع قبرص المقبل، فبدءوا يتدبرون للدفاع عن بلادهم قبالة الاعتداء المرتقب .

وسرعان ما حل التآلف بين الأمراء المسلمين بزعامة إبراهيم بك القرماني ، أقوى حكام الترك في آسيا الصغرى في القرن الرابع عشر [١]، ومعه أمراء علاية وتيكي وأضاليا ومانافجات [٢] .

والمعروف أنه كان من نتيجة هذا الحلف أن جمع الأمراء عدة سفن حربية للهجوم على قبرص وكبح جماحها ولكن لم يقف أحد بعد على ما تم من خطتهم . ومن المؤكد أنه بمجرد أن وصل إلى الملك بطرس أخبار هذا الاستعداد اتجه أسطوله القوى واستولى به على أضاليا على الشاطئ الجنوبي لآسيا الصغرى .

وبدأ الملك يتصل بفرسان رودس لكي يمدوه بأربع سفن حربية تعينه على حربه ضد المسلمين ، ثم أمر قادة جيشه بأن يكونوا على قدم الاستعداد للحرب المقدسة ، وأعد لهذا الجيش أسطولا كبيراً تجمعت سفائنه في فاماجوستا .

ووصل إلى بطرس سفينتان من البابا واثنتا عشر سفينة من القرصان اللاتين . تضاف إليها سفن رودس الأربعة و ٤٦ سفينة قبرصية وغيرها من جهات متعددة . فأصبح تحت إمرته أسطول كبير تألف من ١١٩ سفينة .

وفي يوم الأحد ١٢ يوليه ١٣٦١ أبحر الأسطول والجيش من ثغر فاماجوستا تحت إمرة الملك بطرس القائد العام للحملة — وكان كل أمير على رأس رجاله في سفنهم الخاصة — من روديسيين وجنوبين وغيرهم . وقيل إن أمير تيكي وهو صاحب أضاليا لما اشتبه في أمر الحملة راسل الملك بطرس ليثني رجاله عن هدفهم — ولكن لم تجد هذه التوسلات نفعاً . وفي ٢٣ أغسطس ١٣٦١ نزلت الحملة في مكان صغير اسمه تيتراميلي بالقرب من أضاليا . وكان موقع هذا الثغر يشرف على الخليج الكبير المسمى باسمها وهي

---

(١) اضمحلت هذه الإمارة بالتدريج حتى خضعت في عهد محمد الثاني (١٤٦٧) ثم ضمت نهائياً إلى الأمبراطورية العثمانية في عهد بايزيد الثاني عام ١٤٨٦ .

(٢) الدكتور عزيز سوريال عطية — الصليبية في العصور الوسطى المتأخرة بالإنجليزية ص ٣٢٥ والهامش .

منفذ جيد لتجارة آسيا الصغرى فى الجنوب .

ولما لم تكن حامية الثغر قوية وفيرة العدد فقد سار الملك إليها بسرعة وأحاط بها جنده من كل جانب وضيقوا الحصار عليها مما جعل أهلها يفكرون فى التسليم حقناً للدم المسفوك — ففتحوا أبوابها واندفع الأعداء بجحافلهم إلى قلب المدينة . واستولوا عليها واستبدلوا حاميتها بأخرى قبرصية وعين الملك « جاك دى نوريز » حاكماً على المدينة .

وفى ٨ سبتمبر ١٣٦١ اتجهت بقية الجيش إلى علائية ثانية المدن فى الأهمية شرق أضاليا . وقد أسرع أميرها فى تسليم مقاتيح المدينة إلى الملك حقناً للدماء . . . وهكذا سلمت بقية المدن الصغيرة وقبل حكامها الخضوع لقبرص .

وانتهت الحملة وعادت السفن إلى ثغور قبرص كما وصل الملك بطرس إلى عاصمته نيقوسية حيث قوبل بالحفاوة . ولكن ما كاد ينسحب معظم الجيش القبرصى من تلك الثغور حتى بدأ بعض الأمراء المسلمين يجمعون كلمتهم لاسترداد أضاليا . وبدءوا فعلا فى حصارها . واستطاع الحاكم القبرصى ورجال حاميته مقاومة المهاجمين مدة طويلة حتى وصلت إليه النجدات من الجزيرة فى مايو ١٣٦٢ واستبدل « جاك دى نوريز » بحاكم آخر هو جان دى سور » أمير البحر القبرصى — وقد اتخذ هذا التدابير الحازمة فهاجم ثغر ميرة وحرقها وأسر حاميتها وأمر بإصلاح أسوار أضاليا وزادها منعة لمقاومة أى اعتداء فى المستقبل .

استأنف أمير تيكى وعلائية هجومهم على المدينتين براً وبحراً بغية استردادهما واشتعلت الحرب عنيفة بين الجانبين . ولكن لم يصادفا غير الهزيمة والانسحاب وأخيراً وضع الأمراء خطة لمهاجمة الجزيرة القبرصية لما علما بسفر الملك إلى الغرب وانتشار الوباء فى الجزيرة ، واستطاع محمد ريس أن يشن عدة غارات على مقاطعة كارباس فى قبرص وعاد محملا بالغنائم والأسرى إلى آسيا الصغرى ، ولم يتردد فرانسسكو سبينولا الوصى على قبرص فى الانتقام ، فأعد أسطولا قاده إلى مياه المسلمين ، بيد أنه مات فى إحدى المعارك وكانت خسائر محمد ريس

فادحة للغاية ولم يستطع العودة إلى شواطئه فقصد طرابلس الشام واستنجد بأميرها .

وفى ذلك الحين تآمر الجنويون ضد قبرص فلم تستطع هذه أن تنتقم من المسلمين . وبالرغم من ذلك استمرت أضاليا فى قبضتها حتى عام ١٣٧٣ لما ضعفت سطوة قبرص على أيام الملك بطرس الثانى الذى فقد كل ممتلكاته فى آسيا الصغرى .

قام بطرس الأول يجاهد للمرة الثانية فاتصل بجميع ملوك وأمراء الدولة اللاتينية المسيحية يسألهم العون لتحقيق أحلامه فى القضاء على المسلمين وليعبئوا كل قواهم لمجابهة الخطر الذى يهددهم . ولتحقيق هذه الغاية غادر قبرص للاتصال شخصياً بهؤلاء ، وقضى ثلاثة أعوام متنقلا من دولة إلى أخرى . وفى كل مكان حلّ فيه كان يبحث عن منجدين يمدونه بالمال والرجال والسفن والسلاح . . .

قصد رودس والبندقية ولمباردیا وفيرونه وميلان وجنوة حيث قضى وقتاً طويلا يزيل سوء التفاهم الذى ساد بين جنوة وقبرص . ثم سافر إلى أفينون حيث كان يقيم البابا ، وانتهز الفرصة لمفاوضة الأمراء المسيحيين الذين كانوا يقيمون فيها وفى طليعتهم جان الثانى ملك فرنسا الذى كسبه إلى جانبه . ثم بارك البابا أوربان الخامس الحرب المقدسة ضد المسلمين وكان ذلك فى ١٤ أبريل . وبعد ذلك قصد الملك فلاندرز وبرابانت وألمانيا وبازل واستراسبورج وماينز وكولونيا ثم عبر الحدود الفرنسية وقصد باريز للاتفاق على الخطة الختامية للحرب مع الملك جان الثانى الذى وعده بالمسير إلى الحرب فى العام التالى لمقاتلة المسلمين . ومن باريز اتجه الملك إلى روان وكاين لمقابلة شارل دوق نورماندى (شارل الخامس) الذى لم يعده بأية نجدة . ومن هناك قصد كاليه التى أبحر منها إلى إنجلترة لمقابلة ملكها أدوار الثالث الذى قدّم إليه سفينة حربية كبيرة وبعض الأموال .

وعلى هذه الصورة لم يترك الملك ملكاً أو أميراً فى غرب أوربا إلا قصده لانتزاع نجدة منه فى سبيل تحقيق هدفه الدينى . بل إنه قصد أيضاً بولندة والمجر حيث لقى من ملوكها معاونة تامة . وأخيراً عاد إلى البندقية للتفاهم مع

أمرائها فيما يتعلق بالتعاون البحرى . وفى ٢٧ يونية بارح البندقية وكان قد أرسل تعليماته إلى الوصى فى الجزيرة أعداد الأسطول القبرصى والإقلاع به لمقابلته فى جزيرة رودوس . وكان هذا الأسطول الذى تم إعداده يشتمل على القطع الآتية :

٣٣ سفينةنقالة للخيول .
١٠ « تجارية .
٢٠ « طراز الحمامة .

إلى غير هذه من السفن الحربية التى وصل عددها إلى مائة وثمانية سفينة .

وقام الوصى على رأس هذا الأسطول بعد أن عين « جاك دى نوريث توركوربلييه » وصياً فى مكانه .

وصل الأسطول رودس فى ٢٥ أغسطس وكان فى انتظاره الملك ورجاله فقوبل بالتكريم والتشجيع . وانضم أسطول رودوس المؤلف من أربع سفن حربية كبيرة ومائة فارس كبير تحت إمرة فرلينوديراسكا . هذا إلى جانب أسطول البندقية (١) .

ويتسنى إجمال قوة أسطول الأمم المتحالفة فى البيان التالى :

١٦٥ سفينة من طراز مختلف (اتفقت معظم المصادر على صحة هذا الرقم) وبات كل شيء معداً فى أكتوبر ١٣٦٥ . ثم صدرت أوامر المسير فى موجة من الحماسة بلغت ذروتها بعد أن وصلت الملك أنباء استيلاء قواته على أزمير وأضاليا . وفى هذه المرة اتجه الأسطول القبرصى إلى الإسكندرية ثغر مصر .

الأحوال فى مصر

كان يغشى مصر فى ذلك الحين الاضطراب والفساد وتعمها الفتن والفوضى . وكان على عرشها سلطان طفل لم يكد يبلغ الحادية عشرة من عمره هو السلطان الملك الأشرف شعبان . وكان يستبد بالأمر دونه الأمير يلبغا

(١) Aziz Suryal Attiya : The Crusade in the later Middle Ages. page 343.

العمرى الخاصكى . وكانت جهود هذا الأمير مصروفة كلها لمقاومة منافسيه من أمراء الدولة الآخرين . وتشاء الظروف أن والى الإسكندرية وهو الأمير صلاح الدين خليل بن عرام كان متغيباً عن الإسكندرية يؤدى فريضة الحج . وكان ينوب عنه أمير آخر أقل منه دربة وأصغر مرتبة هو الأمير جنغرا .

الاستيلاء على الإسكندرية

وضع ملك قبرص خطة الحملة على إسكندرية وعاونه فيها اثنان من رجاله المخلصين هما بيير دى توماس وفيليب ميزييرس، وقد أحاطها الثلاثة بسرية كاملة حتى غادروا رودس وذلك خوفاً أن تتسرب إلى رجال الوحدات الإيطالية المشتركة فى الخطة . ذلك لأن محاربتهم للمسلمين ستؤثر على علاقاتهم التجرية مع المسلمين .

وفى يوم السبت الموافق ٤ أكتوبر ١٣٦٥ امتطى الجنود سفنهم ووقف « بيير دى توماس » بين رجال السفينة الملكية يخطب فيهم عن مزايا الجهاد المقدس . ولما انتهى من خطابه علا صياح الجند والبحارة بهتافات داوية « لتعش ولتعش أورشليم وملك قبرص. . . والويل للمسلمين الكفار ! . . . » ثم أعطيت الأوامر لقباطنة السفن للاتجاه نحو ساحل آسيا الصغرى حتى يصلوا إلى الجزيرة الصغيرة كرامبوزا التى تقع بالقرب من رأس خلدونيا شرق ميرة فى خليج أضاليا — كانت هذه هى الخطوة الأولى التى أذيعت من الخطة العسكرية العامة — ومن هناك تغير اتجاه السفن واتخذت طريق إسكندرية .

استغرقت الرحلة إلى المياه المصرية نحو خمسة أيام شبت فى خلالها عاصفة هوجاء فبعثرت السفن شرقاً وغرباً . لكنها عادت إلى التجمع قبيل الوصول إلى الإسكندرية فى يوم الثلاثاء الموافق ٩ أكتوبر .

وهنا ينبغى أن نلقى الضوء حول الأسباب التى اختيرت من أجلها الإسكندرية كهدف للحملة، كما ينبغى أن نسرد أهم الحوادث التى أفضت إلى هذا الاعتداء . ولأجل ذلك نرجع إلى الأسباب التى بسطها محمد بن القاسم بن محمد النويرى

السكندرى صاحب مؤلف الإعلام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الإسكندرية، وكان مقيما فى هذا الثغر خلال الحملة[١] .

تلك هى الأسباب السبعة التى ذكرها النويرى :

الأول — أن السلطان صالح بن الملك الناصر محمد بن الملك الناصر قلاون سلطان الديار المصرية والشامية وغيرهما منع دواوين النصارى فى عام ٧٥٥ هـ (١٣٥٣ م) من الديونة، وأن أحداً منهم لا يكتب بديوان إلا إن أسلم . ومن بقى على نصرانيته يلبس خشن الثياب، وأن تقصر أكمامهم وأذيالهم وتصغر عمائمهم ويركبون الحمير على شق واحدة وكذلك ساير النصارى . فامتثل لذلك .

الثانى — قيل إنه لما ولى الملك بعد موت أبيه عرش قبرص أرسل إلى السلطان الملك الناصر حسن يسأله أن يرسل له بالتوجه إلى صور بساحل الشام ليجلس على عمود بها كعادة كل من تملك جزيرة قبرص ليصح له نفاذ حكمه فى رعيته، فاحتقره السلطان ومنعه الدخول إلى صور .

الثالث — أنه أتت إلى الإسكندرية فى شوال ٧٥٥ هـ (١٣٦٣ م) سفينة عليها قراصنة من الأفرنج وعبثت فى الثغر كما خطفت ما قدرت عليه بين الميناءين الشرقية والغربية، ثم اشتبكت مع مركب تركية قادمة إلى الإسكندرية وعليها بعض التجار المسلمين ومعهم بضائعهم فهاجمتها السفينة المذكورة وقاتلت من فيها إلى أن خرج رماة المسلمين فى القوارب ليمنعوهم من النزول إلى البر، واستطاعوا إبعادهم إلى خليج السلسلة حيث أرسيت بالقرب من الباب الأخضر ثم بدأوا يجولون يميناً وشمالا . . . فاتصل الأمير سيف بلاط نائب السلطان بإسكندرية بقناصلة الفرنج المقيمين بها للوقوف على أمره هذا السفينة ومعرفة سبب جولتها فى المياه المصرية — فعلموا ممن كانوا فيه أنهم يريدون أكلا وشراباً ثم يرتحلون . فأرسل لهم مأكولا وقرب ماء — فأخذوا القرب بمائها وكانت نحو الخمسين قربة وتناولوا الطعام، وفى أثناء ذلك شاهدوا مركباً قادمة من الشام

---

(١) راجع المخطوط ص ٩٤ وجـ ١ و ٢ و ٣ . . . إلخ .

فوثبوا عليها واستولوا على ما فيها من البضائع وألقوا رجالها فى خليج أبو قير ومضوا بها ولم يراعوا حق الإحسان بما طعموا وسقوا .

الرابع — هجم قراصنة عزاب (سفينة) على الجزيرة المقابلة لرشيد وأسروا خمسة وعشرين من سكانها ما بين رجال ونساء ثم حدثت معركة دموية بين القراصنة وأهالى الجزيرة انتهت بفرار المعتدين .

الخامس — فى فجر ٢٧ شعبان ٢٦١ هـ (١١ يونية ١٣٦٣ م) وصلت ثغر أبو قير ثلاثة أغربة (سفن) وأسروا ٦٦ نفراً من المسلمين ما بين رجال ونساء وصبيان واختطفوا غنائم كثيرة ومضوا بها إلى ساحل صيدا بالشام افتدتهم منهم المسلمون وعاد الجميع إلى أبو قير .

السادس — كثرت اعتداءات القراصنة المسيحيين على ثغر أبو قير وكان يعاونهم جواسيسهم وقد أدى ذلك إلى اشتباك الأهالى بالمعتدين والانتقام منهم .

السابع — ما فعلته عوام المسلمين بالإسكندرية بقتلهم بعض من بها من البنادقة .

تلك هى أهم الأسباب التى ذكرها النويرى والتى حدت بملك قبرص لتدبير حملته لغزو مصر .

وقد وجه جل عنايته للاستيلاء على عروس البحر المتوسط . فقد كانت أهم منفذ لتجارة الشرق فى طريقها إلى الغرب ، إلى جانب أهميتها الاستراتيجية . وبالاستيلاء عليها يصبح صاحبها مسيطراً على ثغرها العظيم وحصونها المنيعة وكافة طرق المواصلات البحرية فى شرق البحر المتوسط . وفيها يستطيع إعداد جيش كبير يتجه إلى القاهرة عاصمة الشرق الإسلامى ويستولى عليها .

ويقول النويرى : إنه كان للملك بطرس أعوان كثيرون فى الإسكندرية يمدونه بالمعلومات أولا بأول ومنهم شمس الدين بن غراب الكاتب فى ديوان الإسكندرية وقد قبض عليه فيما بعد وقطع جسمه إلى شقين ويقول أيضاً النويرى : إن الملك المذكور استطاع الحضور بنفسه إلى اسكندرية فى زى تاجر وإن شمس الدين رافقه فى خلال اطلاعه على أسوار الثغر وحصونها ومواقع الضعف فيها .

وكانت للملك عدة مزايا يمتاز بها فقد كان حاكم الإسكندرية عند وصول الحـملة كما قلنا – غائباً عن المدينة يؤدى فريضة الحج وهو خليل بن صلاح الدين بن عوام(١) .

كما كانت حامية الإسكندرية ضعيفة للغاية وقليلة العدد بالنسبة إلى فترة الأمن والهدوء الطويلة والتى مرت بها بدون أحداث تذكر . فضلا عن إهمال حصونها منذ استتب الحكم الإسلامى فى مصر . وكان النيل فى فيضانه العالى مما تسبب عنه عدم الإسراع فى إرسال النجدات العسكرية من القاهرة .

هذا علاوة عن أن الأحوال العامة فى البلاد المصرية لم تكن على ما يرام . فقد كانت شخصية السلطان ضعيفة لا تصلح لزعامة الجهاد والنضال . كان السلطان شعبان ولداً يافعاً يتصرف فى أمره الأمير يلبغا ويوجه أمور الدولة كما شاءت مآربه الشخصية .

وإلى جانب كل هذه العيوب فى الإدارة المحلية كانت عيون الفرنج من قناصل وتجار فى كل مكان ولا شك أن هؤلاء أمدوا الملك بطرس بما ابتغى الوقوف عليه .

وصول حملة قبرص

يقول النويرى الإسكندرى إنه لما علم بظفر الفرنج بالإسكندرية اختلط بهم لمعرفة لغتهم بعد أن تزيا بزيهم وتوصل إلى الملك القبرصى وصار من جملة خدمه فاختلس أحد مهاميزه الذهبية واحتفظ به إلى أن باعه بثلاثمائة درهم !

أتى ملك قبرص بأسطوله فى يوم الخميس ٢١ من المحرم سنة ٧٦٧ هـ (٩ اكتوبر ١٣٦٥) فأرسى بحذر فى خليج السلسلة حيث الميناء الغربية للإسكندرية . وكان فى استطاعته النزول إلى البر ولكنه أجل ذلك إلى اليوم التالى. اعتقد أهالى الإسكندرية أن تلك السفن كانت لتجار البنادقة الذين يأتون

بمتاجرهم على جارى عادتهم كل عام . فلما لم يدخلوا الميناء بات الناس فى خوف شديد وبدءوا يتجمعون وكان للملك قد أرسل سفينة للاستكشاف ولكنها ولت راجعة تحت وابل عنيف من سهام الإسكندريين . وبدأ الجند يركبون أسوار الحصون لضرب المعتدين .

وتجمعت سفن العدو فى تشكيل القتال وجاء الليل . فأوقد الجند المصابيح لإضاءة الحصون، ولكى لا ينتفع المهاجمون بستر الظلام فتتسرب جموعهم نحو الشاطىء فرادى .

وفى يوم الجمعة ١٠ اكتوبر بدأت جموع كثيفة من الأهالى تغادر المدينة متجهة إلى جزيرة المنارة . وهم فى ذهول فقد بوغتوا بهذا الهجوم الغادر بينما كان تجارهم منهمكين فى البيع كعادتهم غير عابئين بما يخفيه العدو لهم . وهكذا نراهم قد احتشدوا فى وجوم مستهدفين للموت . وقد حمل بعضهم سيفه وترسه ومنهم من معه نبله وقوسه ومنهم من معه رمحه وخنجره . . ومنهم من ليس عليه سوى ثوبه الذى يستره . . وبعضهم لبس الزرد المنضد وبعضهم من هو عارى مجرد . . . وصار العوام يشتمون القبرصى ويسبونه بكل لفظ قبيح والعدو صامت يتحفز .

وعند وضوح شمس الجمعة أقبل العربان من كل صوب ليس مع كل واحد منهم غير سيفه ورمحه أو قوسه .

قلنا إن حاكم إسكندرية خليل بن صلاح الدين بن عرام كان غائباً عن مقر منصبه يؤدى فريضة الحج . ولم يكن وكيله النائب من الخبرة أو الدراية يسيطر على الموقف الخطير وليمنع تجمع الأهالى أو حشدهم فى داخل الأسوار أو يأمر الجند بالصمود فى الحصون لإحباط عملية نزول العدو إلى البر والمقاتلة من خلف الأسوار ليفطن العدو أن خلفها حامية شديدة المراس. إلى أن تصل من القاهرة النجدات.

وكان نائب الحاكم هذا فى مرتبة صغيرة — هى أمير عشرة — ضعيفاً جداً جاهلا اسمه « جنفرة » وكان الموقف يسير بسرعة من سيئ إلى أسوأ — وتقدم تاجر مغربى اسمه عبد الله يقترح على هذا الوكيل بأن يعمل على إدخال الأهالى فى داخل المدينة المسورة لكنه لم يعن بهذه النصيحة وقال له: « لست أترك أحداً من الفرنج يصل إلى الساحل ولو قطعت منى الأوداج» ولكنه أمر أن تسد الأبواب

الثلاثة وتوصد بالحجارة والمونة . حدث كل هذا بينما وقف حشد الأهالى يصيحون فى أوجه المعتدين .

ثم تقدمت سفينة كبيرة (غراب) بعد ساعتين نحو البر لتنزول من بها من الجند . فتصدت لها جماعة من المغاربة وخاضوا فى الماء الضحل فى محاولة يائسة وناوشوا من فيها ومسكوا الغراب بأيديهم وطلبوا من الزراقين النار ليحرقوه فلم يأت أحد بشرارة ، وذلك لقلة أهميتهم وتهاونهم وغفلتهم . فاستعجلوهم بالنار فرموا بمدفع فيه نار هزيلة فوقعت فى الماء وانطفأت . والتحم المغاربة بجند العدو وضربوهم بالسيوف ولكن تغلب العدو عليهم . ودخل الغراب الساحل وتبعه آخر كان يرمى من فيه بالسهام . فلما دخل البر تتابعت الغربان داخلة من أماكن متفرقة فنزلت الفرنج سريعة من سفنها بخيلها وجندها . وتم كل ذلك فى صباح يوم الجمعة ، وكان أول النازلين من العدو « آمية الثالث » أمير جنيف الذى التف به جموع المسلمين ولكن أنقذه منهم سيمون دى نوريز وجان دو مورف . ثم نزل الملك يحف به الأمراء . واتجه آخرون إلى الميناء الجديدة وهاجموا مؤخرة المصريين . وعلى هذا النسق صار الهجوم من ناحيتين واستعرت الملاحم فى كل ناحية فلما رأى الباعة ما حدث وجموا وأسرعوا مدبرين لينجوا بأنفسهم . وكانت الفرنج مسربلة بالزرد والصفائح الحديدية والخوذ اللامعة على رءوسهم وبأيديهم السيوف القاطعة أو القسى . وقد أبلى فرسان العرب بلاء حسناً فى قتال العدو حتى هزموا وأصيب « جنغرة » برمية سهم أقعدته .

كسب الفرنج المعركة فى ساعات قلائل وتكدست جثث القتلى أمام الأبواب ولم ينج أحد بحياته ممن كان فى خارج الأسوار .

ولكن الأسوار ظلت موصدة ولم يصب الإسكندرية شيئاً بعد بالرغم من محاولة المهاجمين لاقتحام الأبواب . وحيال ذلك رأى الملك أن يؤجل عملية الاقتحام لليوم التالى ومنح راحة لقواته يستجمون فى خلالها لإعادة الكرة فى صباح الغد .

وقد أبلت فى ملحمة هذا النهار جماعة من المرابطين وهم فى رباطهم خارج باب البحر بالجزيرة . فإنه لما تكاثرت الفرنج حول الرباط صار رماة المسلمين فى أعلاه يرمون سهامهم على العدو فقتلوا من الفرنج جماعة حتى إذا نفدت سهامهم

عمدوا إلى شرفات الرباط وصاروا يهدمونها و يرمون الصليبيين بحجارتها إلى أن نفدت حجارة الشرفات . فاقتحم الفرنج من الشرفات وأبادوا من وجدوه حياً من المرابطين كما أسروا نفراً منهم وأخذوهم إلى سفنهم .

ندم جنفرا لأنه لم يصغ إلى نصيحة عبد الله ولكن ضاعت الفرصة ودب الهلع فى قلوب الأهالى . .

ولما سقطت الجزيرة كلها وباتت فى قبضة الفرنج اجتمع شمل القادة حول مليكهم للاتفاق على الحركات التالية التى يتعين انتهاجها لحصار المدينة واقتحام أسوارها وتوزيع وجهات القتال المنتظر .

وقام أحد البارونات يحبذ حقن الدماء والعودة بعد الانتقام وأوضح أن المدينة منيعة وحاميتها قوية وأنه من الصعب بما توفر لديهم من الجند أن يتابعوا المسير إلى القاهرة وبيت المقدس . فليست فى طريقهم حصون يمتنعون داخلها لو أصيبوا بنكبة . وقد وافق على هذا الرأى بعض البارونات . ولما انتهت المناقشة قام الملك خطيباً يحاول أن يثنيهم عن رأيهم وتوسل إليهم أن يستمروا معه فى إكمال المشروع الخطير الذى استعدوا له .

وأخيراً اتفق الرأى على الاستيلاء على المدينة عنوة باقتحام الأسوار وأمر الملك بمنح جائزة ألف فلورين ذهباً لأول من يصعد فوق السور ومنحه خمسمائة فلورين للثانى وثلاثمائة للثالث .

حدث كل هذا خارج السور المنيع . بينما كان جنفره ورجاله يعملون جهدهم للمحافظة على ما تبقى لهم والدفاع إلى آخر رمق من حياتهم .

الدفاع عن إسكندرية

جمع المصريون (الإسكندريون) ما لديهم من قطع المدفعية والمشاة عند جزء السور المواجه للعدو فى جزيرة المنارة — بين باب البحر (Porta maris) والطرف الغربى للمدينة . وأسرع جنفرا فدخل الإسكندرية من باب الخوخة ، فأتى بيت المال وأخذ ما كان فيه من ذهب وفضة وأخرجها من باب البر وأمر تجار

الإفرنج وقناصلهم وكانوا نحو خمسين فى الإسكندرية بالخروج والذهاب إلى ناحية دمنهور . وحين امتنعوا عن الخروج سلمهم إلى الحراس بعد قتل أحدهم الذى امتنع بتاتاً عن تنفيذ الأمر .

احتشد المصريون لدى الجزء الغربى من السور عند باب البحر — وكان أضعف أجزاء السور يواجه الجزيرة والميناء القديمة حيث حشد العدو أسطوله — وقد اعتبروا أن بقية أجزاء السور منيعة وآمنة لا يجرؤ العدو على اقتحامها . تحف به مياه الميناء الجديد شمالا ومياه الخليج (مكانه ترعة المحمودية) جنوباً . وهذان مانعان قويان فى وجه العدو .

ولكن كانت هناك ناحية ضعيفة فى سلسلة الدفاع هذه كما سنرى . وتختلف الرواية الإفرنجية عن رواية النويرى فى اقتحام المدينة . يقول النويرى :

أن الفرنج عمدوا إلى إشعال الحريق بباب البحر فلما حاولوا ذلك تتابعت عليهم السهام من أعلا السور فقتل من الفرنج جماعة . فحاروا فى أمرهم ثم رجعوا إلى الميناء الشرقية فلم يجدوا أحداً على السور فدرجوا إلى جهة باب الديوان فأحرقوه ودخلوا منه، علاوة على مانصبوه هنالك من السلالم الخشب لاعتلاء قمة السور . فلما رأتهم المسلمون الذين على السور من البعد قد صعدوه وبينهم وبين الفرنج برج عال غير نافذ إليهم اتضح لهم أنه لا فائدة من المقاومة وبدءوا فى الانسحاب أمام جحافل العدو الكثيفة . فقتل من المسلمين من أدركته الفرنج وسلم منهم من خرج إلى البر . فلو كان السور الذى يلى البحر جميعه معمراً بالجند من جهة الديوان والصناعة لسلمت منهم الإسكندرية . وهكذا يقول النويرى إن الهجوم الأول وجهه الفرنج نحو باب البحر ، وليس باب الديوان ، وإن هذا الهجوم فشل كما ذكرنا . ولم يكن يحمى ما يلى الديوان حامية . كما لم يكن أمامه أو خلفه خندق ممتد، ولذلك نجح المهاجمون فى اقتحامه وأسرعوا يشعلون النار فيه للتخلص منه . كما أسرع الملك يحلق قنطرة على الخليج لكى لا تصل الإمدادات إلى المسلمين .

وكان فرار أهل الإسكندرية من باب السدرة وباب الزهرى وباب رشيد بعد زحام شديد . فمنهم من أدركته الفرنج عند باب السدرة فقتلته، ومنهم من أسرته ومنهم من نزل من السور بوساطة الحبال والعمائم — ثم صعد الفرنج على أعلا باب

السدرة ونصبت عليه الصلبان — وامتلأت الحقول بالأهالى — ونهب بعضهم العربان . أما الفرنج فقد استباحوا كل شىء فى المدينة . وقتلوا كل شيخ عاجز أو طفل رضيع وفتكوا بالنسوة . وظلوا ينهبون ويغنمون طوال عصر يوم الجمعة إلى آخر يوم السبت ، واحرقوا الحوانيت والأسواق والفنادق والوكائل والمدارس والمساجد وكذلك الدور . وقدر المؤرخ ميشو عدد القتلى من أهالى اسكندرية عشرين ألفاً

وبينما كان الملك بطرس على رأس جماعة من رجاله فى طريقهم لحرق قنطرتين على الخليج وقد غادروا باب السدرة فاجأهم كمين من المصريين قوامه عدة آلاف من المجاهدين ونشبت معركة حامية بين الجانبين جرح فيها الملك واستطاعت الجماعة العودة إلى قواتهم بدون أن يحققوا مآربهم .

ثم أمر الملك بتوزيع رجال الحراسة عند الأبواب وفوق الأسوار لمقاومة أى هجوم مضاد ينهض به المصريون ، وانصرف بعد ذلك للراحة فى أحد الأبراج ولكن لم يذق طعم الاستجمام . ففى الليل تسربت قوه من المسلمين إلى داخل المدينة بعد اقتحامها أحد الأبواب الجنوبية وقام الملك لتنظيم رحى المعركة التى نشبت فى خط النهار وانتهت بعد قتال عنيف برد الإسكندريين عن المدينة .

فظائع القبرصيين فى الثغر

بالغ المعتدون فى اقتراف الفظائع . فقد احرقوا فندق الكتيلانيين والجنويين وفندق الموزه وفندق المارسيليين . ثم كسروا حوانيت الشماعين والباعة بعد نهب قياسر البزازين وتحطيم ما فيها من الأوعية والأوانى . كما نهبوا حوانيت الصاغة وأخذوا ما فيها من مال وحلى . كذلك نهبوا حوانيت القماش والنسيج والحرير وغنموا ما فى الدور من الأموال والمتاع والفرش والمصاغ والبسط والأوانى النحاسية ونزعوا باب المنار وشبابيك إحدى القباب التى بالجزيرة ، وأحرقوا سقوف الربط التى بها وكسروا قناديلها وقناديل المزارات ، وأفسدوا قصور الجزيرة ومقابرها . وصعدوا صومعة المدرسة النابلسية فوجدوا فيها جمال الدين بن مشيدها مختفياً منهم بها . وكان شيخاً كبيراً ضعيف البنية . فألقوه على رأسه من أعلاها إلى الأرض

فاندقت عنقه فمات شهيداً . وقتلوا من وجدوه بالمساجد . وقتلوا الناس بالدور والحمامات والطرق والخانات والكنائس . وكانت الفرنج تخرج بالغنائم من الإسكندرية إلى مراكبهم على الإبل والخيل والبغال والحمير . فلما فرغوا من النهب وقضوا أربهم من الثغر طعنوها بالرماح وعرقبوها بالصفاح فصارت مطروحة بالجزيرة والبلد . فهلكت وجافت فاحرقتها المسلمون بالنار لتزول رائحة جيفها .

ومن حسن الحظ أن الفرنج لم تصل أيديهم إلى قصر السلاح [١] قيل أنه احتوى ستة آلاف سهم وآلاف السيوف والرماح والمزاريق والترس والخوذو القنابر والزرد والزرديات والأطواق والقرقلات والسواعد والركب والساقات والأقدام الحديدية والقسي الملولبة والأعلام والمدافع وقاذفات النفط وما إليها . فلو علمت به الفرنج لاحرقته سريعاً . وكانوا قد وصلوا إلى بابه فظنوه أحد أبواب المدينة وخافوا من كسر بابه مخافة أن يكون خلفه كميناً يطبق عليهم .

ولقد قال الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد حارس القصر المذكور ويعرف بابن قراجا ما يلى « كنت فيه بمفردى لما دخل الفرنج الإسكندرية . فأغلقت بابه وقرأت حزب سيدى الشيخ الصالح أبو الحسن الشاذلى وإذا بالفرنج أتوا إلى الزريبة « دار السلاح » فيهم خيالة ومشاة ، وكنت صعدت أعلا القصر فصرت أنظر اليهم من شقوق حائطه . فطلع بعضهم على زلاقة بابه وصاروا يتشاورون فى أمره — وكنت أعددت لنفسى مكاناً أختفى إن دخلوه لكن خفت أن يحرقوه فأهلك بالنار فوقفوا ساعة وتركوه ومضوا . فرأى أحدهم صبياً بالزريبة يعدو سريعاً عند معاينته لهم . فعدا الفرنجى خلفه — فلما أحس به الصبى وقف باهتا من الخوف فضربه الفرنجى بسيفه فتلقى الصبى الضربة بيده اليسرى . فطارت إلى الأرض ثم ضربه أخرى على عاتقه فوقع على شقه الأيمن مستقبلا القبلة ومضى وتركه . وما أمكننى النزول من القصر اليه خوفاً من رجوع الفرنج إلى الزريبة . فصار الصبى مطروحاً على الأرض إلى أن مات شهيداً »

وحرق الفرنج أبواب البحر الأول والثانى وأبواب الباب الأخضر الثلاثة وباب الخوخة وأحرقوا أيضاً دار الطراز والديوان بعد أن أخذوا ما فى دار الطراز . كما أحرقوا قلعة ضرغام.

---

(١) كان يعرف موضعه بالزريبة .

وقد وصف النويرى ما أتاه الفرنج من فظائع فى فيض من الإسهاب . ومما ذكره أن الفرنج كانوا يذبحون المرأة ويذبحون طفلها على صدرها . إلى غير ذلك . وقد استخلص تلك الفظائع فى سطرين المؤرخ عزيز سوريال عطية فى كتابه المعروف بقوله :

"Acts of cruelty of the worst type were committed without scruple and without regard to age or sex. The city became a scene of horror and open grave. The occupation of the city lasted only seven days, yet it is staggering to realise howin a period so short, the hand of ruin could disspate so vast an accumulation of wealth and prosperity - the outcome of centuries of peace and industry.(١)

والآن وقد انتهى الأمر بالاستيلاء على الإسكندرية . استدعى الملك بطرس كافة أمرائه وبارونابه ورؤساء الحملة . لاجتماع فى الجزيرة للمشاورة فى الموقف الجديد . وانقسمت الآراء . فقد رأى الملك وبطرس توماس وفيليب ميزيير عدم الجلاء عن المدينة والعمل على بقائها فى أيديهم — وكان رأى الأغلبية وعلى رأسهم الفيكونت دى تورين معارضاً فقد أوضح للمجتمعين استحالة الدفاع عن المدينة وهم قلة ، بينما أبواب المدينة مهددة بهجوم يقوم به المسلمون وهم كثرة وقد اتفق معه على هذا الرأى رجال الوحدات الأجنبية الذين كانوا يهدفون إلى الغنم والنهب — وها هم قد حققوا مأربهم بما استولوا عليه من النفائس وما تلفون فى المدينة . وفى أثناء تلك الحوادث وصلت إلى الفرنج الأخبار بأن سلطان مصر يتقدم من القاهرة على رأس جيش كبير لاستخلاص المدينة .

ومما يثير الدهشة أن بعض أمراء الجيش القبرصى انضموا إلى الرأى الثانى وعارضوا مليكهم . ورأوا إخلاء الإسكندرية والعودة على سفنهم بعد ما امضوا سبعة أيام ينهبون ويغنمون ويأسرون فقد بلغ عدد من أخذوه إلى سفنهم خمسة آلاف من المسلمين والمسلمات واليهود والمسيحيين الشرقيين الذين وزع أكثرهم على ملوك الدول المسيحية ، ولم يعد منهم إلا القليلون الذين افتدوا بالمال بعد مفاوضات عقيمة بين قبرص ومصر .

(١) Aziz Suryal Attiya : page 367.

وأخيراً رأى ملك قبرص وحفنة من رجاله المخلصين فى يوم الثلاثاء ١٦ اكتوبر ١٣٦٥ أنهم لا يستطيعون وحدهم تحقيق حلمهم الجميل . بل كيف يتهيأ لهم اتخاذ أى قرار وتنفيذ أى خطة والجند قد تخلوا عن مراكزهم العسكرية وعادوا يحملون الغنائم فرحين ، وقبعوا فى سفنهم يحتسون و يتسامرون و يستعدون للعودة إلى جزيرتهم .

طلائع النجدة المصرية

و بينما كان الفرنج يستعدون لركوب السفن كانت طلائع الجيش المصرى على مقربة من ضواحى الثغر بقيادة الأمير كتبغا المصرى والأمير كندق وخليل ابن توسون فأسرع قباطنة السفن فى فك الأشرعة والإبحار من المياه المصرية دون أن يصيبهم خطر من سفن المصريين التى أصابها التلف .

ولقد كان من أهم أسباب تأخر وصول النجدات ارتفاع مياه النيل وانسيابها على أراضى الطرق ، مما جعل رجال النجدة يتبعون طريق الصحراء الغربية إلى الإسكندرية . وهناك سبب آخر يقول بأن يلبغا الخاصكى أتابك الجيش — وكان مكروهاً من جماعة من رؤساء المماليك — اعتقد فى بادىء الأمر عند ما وصلت إليه أخبار الاعتداء من جنفرة أنها مكيدة مدبرة للتخلص من نفوذه بالقرب من السلطان و إبعاده إلى الإسكندرية . فتلكأ بضعة أيام حتى صحت لديه الأنباء وشاهد بنفسه أفواج اللاجئين والهاربين من الإسكندرية .

وتشاء الصدف أن يصل إلى مصر صلاح الدين بن عرام حاكم الإسكندرية عائداً من الحج ، فأمر الأتابك أن يقصد الثغر فى الحال على رأس الجيش . فدخلها فى ٢٥ المحرم (١٢ اكتوبر ١٣٦٥) ونزع ما كان على أسوار المدينة من أعلام صلبان النصارى ونصب عليها أعلام المسلمين و وجد أسطول الفرنج محصنا بالبحر ، فتيقن العدو أن النجدة وصلت الثغر . ثم رأى أن يتصل بالملك للاتفاق على إعادة الأسرى ومبادلتهم بالمسيحيين الذين فى دمنهور . فأرسل فى ١٤ اكتوبر يهودياً اسمه يعقوب فى قارب و يقص علينا هذا الرسول أنباء مهمته قائلا :

« لما أرسلنى الأمير صلاح الدين لملك قبرص فتشنى الفرنج ثم كتفونى

وصار على رأسى أفرنجيان معهما سيفان مجردان أحدهما عن يمينى والآخر عن شمالى ماشيان معى . فتخطوا بى أربعين غراباً (سفينة) ملصقة بعضها ببعض . وأنا أشاهد أسارى الإسكندرية المسلمين واليهود والنصارى الزمنيين الرجال منهم والنسوة والإماء والأطفال والصبيان إلى أن وصلت إلى الملك فى آخر الغربان . وإذا به جالس فى خيمة كبيرة لها شبابيك محيطة بها ينظر منها إلى البحر وعن يمينه راهب وعن يساره آخر — فلما أوقفونى بين يديه . قال من هو هذا . قالوا رسول أتى من عند الأمير صلاح الدين بن عرام نائب السلطان بالإسكندرية . فقام عند ذلك على قدميه . وقامت الرهبان لقيامه ثم جلس الملك وجلسا بجلوسه . ثم قال الملك اجلس فجلست وإذا بين يدى الملك من نساء الإسكندرية جماعة كبيرة حسان الوجوه — وعلى رأس الملك تاج من الذهب بأعلاه جوهرة مضيئة وعليه الجوخ الرفيع المزرر بأزرار الذهب واللؤلؤ المنظوم . فقال لى فيم أتيت — فقلت — يقول لك نائب السلطان إن عندنا ثمانية وأربعين إفرنجياً بجاراً أعطنا المسلمين ونعطيكم — فقال سلم على نائب السلطان وقل له يكتب لنا كل واحد منهم كتاباً بخطه الرومى يعرفنا اسمه واسم أبيه واسم أمه وكم فى الشهر الرومى من يوم . فإذا صح لنا ذلك علمنا أنهم بالحياة نفديهم بأسارى الإسكندرية . وما لنا إقامة إلا إلى غد العصر ونرحل . قال اليهودى فرجعت . وأعلمت نائب السلطان بذلك »

فلما طلبوا الأسارى من دمنهور كان وصولهم إلى الإسكندرية بعد قيام سفن العدو ورحيلها .

رحل الملك بطرس وبعد رحلة شاقة وصلت السفن إلى ثغرى قبرص — ليماسول و فاماجوستا . ثم أقيم احتفال كبير فى نيقوسية للابتهاج بالنصر الكبير وتناثرت أنباء الظفر على جميع الدول المسيحية التى اشتركت فى الحملة . وبارك البابا هذا النصر المسيحى .

ولكن قابلت البندقية قيمة هذه النتيجة بعدم الارتياح . نظراً لما قد يؤثر على علاقتها التجارية بمصر ، فاسرعت إلى إرسال وفد إلى السلطان للاعتذار عن اشتراك بعض البنادقة فى الحملة . وطلب صاحب البندقية من سلطان مصر أن يعفو عن

هذه الزلة راجياً عودة الصفاء بين البلدين كما كانت عليه العلاقات من مودة — ولكن رفض السلطان الشاب رفضاً باتاً الاتفاق مع أية دولة مسيحية ما زال فى حالة حرب مع قبرص ، وأصر على أن الصلح ينبغى أن يتم أولا مع ملك قبرص . فعاد الوفد الى قبرص ليطلب من الملك فتح مفاوضات الصلح مع السلطان .

العودة إلى إسكندرية

لما دخل الأمير الأتابكى يلبغا الخاصكى إسكندرية وشاهد ما آل أمرها إليه من الهدم والحريق والقتلى المطروحة بظاهرها وباطنها ، حزن على ما أصابها وأصاب أهلها فى أيام عزه وحكمه . فلام نفسه على عدم البقاء بها حين بلغه أن العمارة بجزيرة قبرص — وأمر حينذاك الأمير صلاح الدين بدفن القتلى . فدفنها — وأمده بالأموال لعمارة ما خرب منها — فاجتهد فى العمارة وشق خندقاً الى جانب السور الذى توصلت منه الفرنج إلى إسكندرية — وهذا الخندق الجديد كان محاذياً للموضع المسمى من داخل السور بدار الصناعة وديوان الخمس — ومجارى الأقنية ، وصله بالخندق الأصلى ، أوله ساحل بحر السلسلة والباب الأخضر إلى قلعة ضرغام — فزاد من القلعة المذكورة إلى أن وصله بخليج الميناء الشرقية — وكانت مياه البحر قديماً تضرب فى السور إلى قرب قلعة ضرغام ، ولذلك ترك المتقدمون ذلك المكان بغير خندق ثم انطرد البحر عن السور بعد ذلك فصار ذلك المكان بغير خندق (١)

وملخص القول أن الأمير صلاح الدين عنى بتحصين الإسكندرية بما شيده أو جدد بناءه من الأبواب والأسوار والأبراج لكى لا تحدث نكبة أخرى . وقد كوفئ على همته هذه بأن ولاه الأمير الأتابكى فى منصب شاد الدواوين « وزير الأشغال » وولى الأمير سيف الدين الأكز الإسكندرية ولكنه بعد أن أقام فيها سنة واحدة عزله من ولاية الثغر وأعاد إليه الأمير صلاح الدين .

---

(١) أقام الأمير المذكور أبواب دار الصناعة الشرقية وأبواب الديوان وسد الباب الأخضر وباب الخوخة .

المفاوضات بين مصر وقبرص

قامت المفاوضات بين مصر وقبرص فى دورين – ففى الدور الأول ثبت من المحادثات التمهيدية التى دارت بين المفوضين أن هناك بارقة أمل من النجاح وكان يرأس مندوبو مصر الأتابكى يلبغا الخاصكى الوصى على عرش مصر فى عام ١٣٦٦.

وكان ملك قبرص قد صرف الجنود الأجنبية من بلاده ولم يعد ينتظر أية معاونة خارجية تتأتى له من دول الغرب. وأرسل ثلاثة من الكتاليين يمثلون قبرص لدى السلطان، وهم جان دا ألفونسو اليهودى المتنصر، وجورج ستيكا وبول دى بيلونيا – ولما وصلوا كانوا يحملون أوراق الاعتماد والهدايا النفيسة ونزلوا فى اسكندرية ثم سافروا إلى القاهرة حيث استقبلهم السلطان – وكان أول سؤال له أن طلب منهم رجاء سيدهم فى إعادة الأسرى الذين حملهم القبرصيون معهم. ولكى يبرهن الملك على حسن نيته أجاب مطلب السلطان بالموافقة وبعودة الأسرى على سفينة خاصة فى حراسة بول دى بيلونيا. وكان عدد الذين بقوا فى الجزيرة قليلا، لأن الملك كان قد وزع معظمهم على الدول الغربية – وكانت عودة الأسرى من قبرص دليلا واضحاً على إجابة الشرط الأول الذى طلبه السلطان. كما أعاد الجنوبيون ستين أسيراً كانوا عندها. ولما اتضح للسلطان حسن نية القبرصيين وحلفائه ماطل فى عقد الصلح النهائى. بالرغم من استمرار المفاوضات ووقفها عدة مرات فى خلال أربع سنوات. اعتدى فى خلالها قراصنة قبرص على سواحل مصر والشام، وذلك بقصد إرغام السلطان على توقيع الصلح النهائى وتهديده بين حين وآخر. ومن المحتمل أن المماليك كانوا يهدفون من وراء المماطلة إطالة الوقت ليكسبوا الوقت، ولكى ينشئوا قوة بحرية يحرزوا بها التفوق على خصومهم.

وقد نشط الأمير يلبغا فى بناء بحرية مصرية. فأصدر تعليماته إلى جميع الخشابين فى الديار الشامية والمصرية لقطع الأخشاب الصالحة، كما أمر رجال دور الصنعة بالعمل ليل نهار فى صنع السفن الحربية. واستطاع فعلا إعداد مائة وخمسين سفينة حربية ونقالة.

ولما لاحت نية السلطان شجع ملك قبرص قراصنته على الاعتداء على نهب السواحل الشامية، ثم أقدم فى عام ١٣٦٦ بنفسه على رأس حملة بحرية اشتملت على ١١٦ سفينة شراعية و ١٦ سفينة صغيرة و ٥٦ سفينة حربية و ٦٠ سفينة كبيرة . ولكن عصفت زوبعة بهذا الأسطول فأفسدت خطته ولم تصل إلا خمسة عشر سفينة إلى طرابلس الشام بقيادة فلوريمونت دى لزيار ونهب المدينة وعاد إلى قبرص .

وفى عام ١٣٦٧ وصل إلى القاهرة وفد قبرصى جديد للمفاوضة برئاسة جاك دى نوريز ولكن كان نصيبه الفشل وارتد خائباً إلى فاماجوستا . وكان الرد أن هوجمت طرابلس ثانية فى سبتمبر . وفى هذه الغزوة انتقم الطرابلسيون من القراصنة وأعطوهم درساً قاسياً وتغلبوا عليهم . فركبوا سفنهم واتجهوا نحو ثغر طرطوسة بالشام ونهبوا المدينة وحرقوا أخشاباً كثيرة كانت معدة لصناعة السفن وأتلفوا مقادير كبيرة من القطران والحديد والمسامير ثم ألقوها فى البحر، ثم قصدوا ثغر اللاذقية ولكن منعهم الريح الشديد والحصون الساحلية، واستولى اللاذقيون على ثلاث سفن فى الميناء وقتلوا بحارة أحداها .

ولم تنته حالة التوتر بين قبرص ومصر حتى قتل بطرس الأول على يد بعض أمرائه الذين ثاروا عليه وكان ذلك فى عام ١٣٦٩ .

وفى أول عام من حكمه خلفه بطرس الثانى (١٣٦٩ — ٨٢) استمرت الاعتداءات على شواطىء مصر وبنفس الأسلوب الذى تبعه قراصنة سلفه . وفى يونية ١٣٦٩ اعتدت أربع سفن تحت أمرة جان دى مورف على صيداء وطرطوسة واللاذقية، كما اعتدى على الإسكندرية فى رابعة النهار وأرسل قائد إحدى السفن إنذاراً إلى السلطان ومطالبته بالاتفاق النهائى ولما كان الجواب بالنفى اقتحموا الميناء القديم وهاجموا سفينة شراعية كانت آتية من مراكش . ثم اتجهوا نحو رشيد ولكن الريح العاصفة قاومتهم فلم يستطيعوا النزول إلى البر فغادروها قاصدين إلى صيداء وبيروت وتقاتلوا ثم عادوا إلى قبرص .

واستمرت التهديدات بين يوم وآخر موجهة ضد ثغور إمبراطورية السلاطين المماليك، ولكن لم تكن الحالة الداخلية فى مصر صالحة للانتقام

ــ فقد كانت فئة كبيرة من المماليك تعارض الأتابكى يلبغا ويشنون عليه عصا الطاعة . وانقسم رجال البحرية على بعضهم قسمين وانتهى الأمر بمقتل يلبغا .

لم يتحسن الموقف بل ازداد سوءاً وارتكبت التجارة المصرية وضعف الإيراد، وأخيراً اضطر السلطان تحت رزح الحالة السيئة التى وصلت إليها البلاد إلى الدخول جدياً فى مفاوضة ملك قبرص .

ففى ٢٩ سبتمبر ١٣٧٠ وصل وفد المفاوضة المصرى إلى قبرص وبعد أسبوع كانت الموافقة على شروط الصلح قد تمت وأعلن إخلاء سبيل الأسرى الإفرنج فى مصر والشام .

ولكن لم ينس المصريون الخراب الذى أصاب الإسكندرية من خصمهم اللدود « قبرص »، واستمر سلاطين مصر يعملون على الانتقام وإنزال العقاب الصارم بأسرة لوزينيان وبجزيرتهم . فلما تمت لهم العدة قاموا بضربتهم وهزموا القبرصيين وأتوا بملكها جانوس لوزينيان بعد معركة شيروكيتا . وهكذا غسل السلطان برسباى (١٤٢٤ ــ ١٤٢٦) هزيمة الإسكندرية بعد أن استعد لها ودون اسمه بحروف لماعة على صفحات تاريخ مصر الإسلامى .

باءت حملة القبرصيين أو الصليبيين بالفشل، فلم ينالوا هدفهم بالاستيلاء على الأرض المقدسة . ووقفت مصر تعد قوة برية وبحرية للانتقام والأخذ بالثأر . وتدرع سلطانها وحكامها بالصبر أعواماً طوالا .

لقد أصيبت الإسكندرية وجرح كبرياؤها كعروس البحر المتوسط . ولكن أعاد السلاطين إليها رواءها بعد أعوام .

لقد نهبها وخربها الفرنج الذين وفدوا عليها من الغرب فلماذا لا يكون إصلاحها على يد الفرنج القاطنين فى الشرق الإسلامى ؟

فما كاد السلطان برسباى يقبض على ناصية الظفر حتى أصدر مرسوماً سلطانياً بمصادرة أموال وممتلكات الفرنج والمسيحيين فى مصر والشام لإصلاح ما تخرب فى الإسكندرية . . .

عبد الرحمن زكى

الجيش المصرى فى يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

لم يكتب بعد تاريخ الجيش فى الفترة التى جاءت فى أعقاب الحرب المصرية التركية التى انتهت بمعركة نزيب (١٨٣٩) إلى عام ١٨٨٢ . وهى فترة طويلة . تخللتها الأحداث العسكرية المعروفة . وتولى مقاليد الحكم فى خلالها أربعة من الحكام هم : عباس وسعيد وإسماعيل وتوفيق .

ويتصل تاريخ الجيش فيما بين الأعوام ١٨٥٠ و ١٨٨٢ بمشاكل وأحداث وتطورات كثيرة نذكر من أهمها :

١ ـ اشتراك الجيش فى حروب خارج الحدود المصرية دفاعاً عن الدولة العثمانية ولنجدتها فى حربها ضد روسيا وتعرف بحرب شبه جزيرة القرم (١٨٥٣ – ١٨٥٥) . وحرب المكسيك (١٨٥٧ – ١٨٦١) . وثورة العسير واليمن (١٨٦٣ – ١٨٦٦) . وحرب الجبل الأسود (١٨٦٢) وثورة كريت (١٨٦١ – ١٨٦٥) . وحرب الصرب (١٨٧٦) والحرب الروسية التركية الثانية (١٨٧٧) . ثم الحرب المصرية الحبشية (١٨٧٥ – ١٨٧٦) وكانت لسبب إختلافات بين البلدين عن الحدود .

ولم يعد على مصر من وراء اشتراكها فى تلك الحروب المضنية أية فائدة إذا استثنينا تدريب قواتها على أساليب القتال التى استحدثت فى أثناء الثلث الثانى من القرن التاسع عشر .

٢ ـ اشتراك الجيش فى كثير من الأعمال العسكرية فى أرجاء القارة الأفريقية ولا سيما فى شرق السودان وغربه واندفاع القوات المصرية السودانية إلى مناطق أعالى النيل بغية ضم الأقاليم الاستوائية إلى مصر .

وقد سبق تلك الأعمال الحربية سيل من أعمال الكشف والريادة والاستطلاع

العلمى وانشاء الطرق الصحراوية وحفر آبار المياه ورسم الخرائط وانشاء المواقع العسكرية وغيرها مما دعم الحكم المصرى فى المناطق المذكورة .

٣ ــ إدخال النظم الأميركية بعد الفرنسية واستبعاد الكثير من النظم التركية فى أعمال الإدارة العسكرية والتنظيم والتعليم والتسليح وقد لاقت هذه المستحدثات عراقيل شديدة من قادة الجيش من الشراكسة والأتراك المحافظين .

٤ ــ نهوض طبقة جديدة من الضباط المصريين الذين تلقوا معظمهم التعليم الحربى فى ألمانيا والنمسا وفرنسا ــ وقد وصلوا إلى المراتب العسكرية الوسطى (صاغ ــ بكباشى ــ قائمقام) . وكان ينظر إليهم القادة الجراكسة بعين الحسد وبدأت المشاحنات بين الطرفين وفقد التعاون بينهما . مما مهد إلى قيام عرابى وأعوانه المصريين للعمل على تصحيح الموقف .

٥ ــ ومما زاد الطين بلة تطور الحالة المالية إلى ما يشبه الكارثة مما أدى إلى إفلاس الخزينة المصرية . وتخفيض عدد القوات وتسريح عدد وفير من الضباط والجنود وإغلاق المعاهد العسكرية ــ والاقتصاد فى نفقات الجيش بل وايقاف صرف مرتبات المدنيين والعسكريين عدة شهور ؛ مما أدى إلى مطالبتهم بحقوقهم بالقوة (١٨ فبراير ١٨٧٩) .

وأدت الحالة المالية المزعزعة إلى تخفيض الجيش إلى ١٢,٠٠٠ ضابط وجندى وكان ذلك فى سبتمبر ١٨٨١ .

٦ ــ صدور عدة قوانين رآها قادة الجيش من الضباط المصريين أنها ليست فى صالح الجيش . وأهمها قانون القرعة العسكرية الذى صدر بتوجيه اللواء عثمان رفقى ناظر الحربية فى ٣١ يوليو ١٨٨٠ وكان بموجبه منع الترقى من تحت السلاح فأدى إلى تذمر اللواء عرابى باشا ورفقائه الذين ترقوا من الصفوف . وكان أن تقدموا بمطالب كثيرة . قبلها الخديوى جميعها . وأصدر أمراً فى ٢٠ أبريل عام ١٨٨١ بتنفيذها [١] .

٧ ــ إطراد نمو قوة الحزب العسكرى برياسة اللواء أحمد عرابى وتعيين اللواء

---

(١) إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ج ٣ ص ٣٧٧ .

محمود سامى البارودى لرئاسة الوزارة وتقليد عرابى وزارة الحربية والبحرية واللواء محمود فهمى — الأشغال . وفى عهد هذه الوزارة(٢ فبراير ١٨٨٢) زادت القوة العددية للجيش إلى ما سيراه القارئ فى البيان المنشور فى الإحصاء التاريخى .

يبين هذا الإحصاء ما وصلت إليه أسلحة الجيش وأسماء قادة الجيش والألوية والآلايات والكتائب (الأورط) — فى عام ١٨٨٢ وهو العام الذى حدثت فيه المعارك المعروفة والتى انتهت باعتداء الأسطول البريطانى على الإسكندرية ثم تحوله إلى موانئ قناة السويس ونشوب الوقائع فى شرق الدلتا تلك التى يعرف القارئ نتائجها على البلاد حتى كتابة هذا المقال .

عبد الرحمن زكى

الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

ضباط فرق	وصف ضباط اواءات	وجنود آلايات	كتائب (أورط)	المشاة
				الفرقة المشاة الأولى :
١				الفريق راشد حسنى (باشا)
٣٠				أركان حرب وتوابع الفرقة
	١			اللواء على فهمى (باشا) اللواء الأول واللواء الثانى
	٢٠			أركان حرب وتوابع اللواء
				اللواء المشاة الأول
			١	أميرالاى أحمد فوج (بك)
			١	قائمقام :
			١٨٣	أركان حرب وأقسام الآلاى
			١٥٥٧	بكباشي الكتيبة الأولى : محمود أحمد
			١٣٩٥	بكباشي الكتيبة الثانية : عباس فهمى
		٤٤٣٠	١٢٩٣	بكباشي الكتيبة الثالثة : محمد الصياد
				اللواء المشاة الثانى
			١	أميرالاى : خليل كامل
			١	قائمقام : أحمد عفت بك
			١٠٥	أركان حرب وأقسام الآلاى
			١٣٣٩	بكباشي الكتيبة الأولى : عبد المجيد سعودى
			١٣٨٧	بكباشي الكتيبة الثانية : محروس شلش
٣١	٨٩١٦	٤٤٨٦	١٦٥٣	بكباشي الكتيبة الثالثة : محمد فوده
	٨٩٣٧			اللواء المشاة الثالث
	١			لواء طلبة عصمت (باشا) : لواء ٣ و ٤ مشاة
	٢٠			أركان حرب وتوابع اللواء

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

ضباط فرق	وصف ضباط لواءات	ضباط آلايات	كتائب	المشاة
			١	أميرالاى على يوسف (بك)
				قائمقام
			١٣٧	أركان حرب وأقسام الآلاى
			١٢٤٥	الكتيبة الأولى : عبدالله شكرى
			١٥٤٣	الكتيبة الثانية : محمد درويش
		٤٦١٤	١٦٨٧	بكباشي الكتيبة الثالثة : محمد عاكف
				اللواء الرابع المشاة
			١	أميرالاى عيد محمد (بك)
			١	قائمقام
			١٢٤	أركان حرب وأقسام الآلاى
			١٣٤٧	الكتيبة الأولى : بكباشي أحمد عبد الرحمن
			١٣٥٣	الكتيبة الثانية : بكباشي رزق حجازى
١٧٦٨٦	٨٧٢٨	٤١١٤	١٢٨٨	الكتيبة الثالثة : بكباشي حسن عزام
١٧٧١٧	جملة الفرقة المشاة الأولى			٢ ــ الفرقة المشاة الثانية
١				فريق إسماعيل كامل (باشا) :
٣٠				أركان حرب وتوابع الفرقة
	١			لواء خورشيد طاهر (باشا) اللواء الأول (٥ جى)
	٢٠			أركان حرب وتوابع اللواء
				اللواء الأول (٥ جى) مشاة
			١	أميرالاى : مصطفى عبد الرحيم بك
			١	قائمقام .. .. ..

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

ضباط فرق	وصف ضباط لواءات	وجنود آلايات	كتائب	المشاة
			١٧١	أركان حرب وأقسام الآلاى
			١٣٠	الكتيبة الأولى : بكباشى يوسف السيد أفندى
			١٣٠٠	الكتيبة الثانية : بكباشى عبد الرحمن سليم
		٤٠٧٣	١٣٠٠	الكتيبة الثالثة : بكباشى سليمان ثعيلب
				اللواء الثانى (٦ جى) المشاة
			١	أميرالاى سامى بك
			١	قائمقام
			١٣٠	أركان حرب وأقسام الآلاى
			١٣٠٦	الكتيبة الأولى : بكباشى على رمزى أفندى
			١٣٣٣	الكتيبة الثانية : بكباشى فرج يوسف أفندى
	٨١٦١	٤٠٨٨	١٣١٧	الكتيبة الثالثة : بكباشى أحمد نجيب
٣١	٨١٨٢			اللواء المشاة الثالث
	١			لواء عبد العال حلمى (باشا) لواء ٣ جى (٧جى)
				و ٤ جى (٨ جى) مشاة
	٢٠			أركان حرب وتوابع اللواء
				٣ جى (٧ جى) مشاة
			١	أميرالاى : حامد أمين بك
			١	قائمقام : على داود بك
			١٤٤	أركان حرب وأقسام الآلاى
			١٥٤٧	الكتيبة الأولى : بكباشى عثمان شريف
			١٣٢٦	الكتيبة الثانية : أحمد البيار

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

ضباط فرق	وصف ضباط لواءات	وجنود وآلايات	وكتائب	المشاه
			١٤٨٦	الكتيبة الثالثة : بكباشى محمد عمار
		٤٥٠٥		
				اللواء المشاة الرابع
			١	أميرالاى خضر بك
			١	قائمقام
			١٢٣	أركان حرب وأقسام الآلاى
			١٣٩١	الكتيبة الأولى : بكباشى محمد عارف
			١٣٩١	الكتيبة الثانية : بكباشى أحمد عبد القادر
١٦٩٦٥	٨٧٦٢	٤٢٥٧	١٣٥٠	الكتيبة الثالثة : بكباشى موسى دياب
١٦٩٩٦	جملة الفرقة المشاة الثانية			
				٣ — الفرقة الثالثة المشاة
١				فريق راشد حسنى (باشا)
٣٠				أركان حرب وتوابع الفرقة
	١			لواء خالد (باشا) : اللواء الأول (٩ جى) ٢ ص
	٢٠			(١٠ جى) مشاة
				أركان حرب وتوابع اللواء
				اللواء الأول (٩ جى) مشاة
			١	أميرالاى إبراهيم فوزى
			١	قائمقام محمد شكرى
				أركان حرب وأقسام الآلاى
			١٣٣٤	الكتيبة الأولى : بكباشى إسماعيل رسمى
			١٢٩٠	الكتيبة الثانية : بكباشى عبد الدايم سلامة

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

المشاة	الكتائب	وعسكر آلايات	وصف ضباط لواءات	ضباط فرق
الكتيبة الثالثة : بكباشى محمد عزت	١٤٠٢			
		٤١٦٩		
اللواء المشاة الثانى (١٠ جى)				
ميرالاى محمد عبيد بك	١			
قائمقام على عصمت بك	١			
أركان حرب وأقسام الآلاى	١٢٨			
الكتيبة الأولى : بكباشى إمام بكر	١٣٠٠			
الكتيبة الثانية : بكباشى خورشيد نفعى	١٣٠٠			
الكتيبة الثالثة : بكباشى محمد خليل	١٣٠٠	٤٠٣٠	٨١٩٩	
			٨٢٢٠	٣١
اللواء المشاة الثالث (١١ جى) (١٢ جى)				
			١	
أركان حرب وتوابع اللواء الثالث (١١ جى)			٢٠	
أميرالاى حسن جاد بك	١			
قائمقام	١			
أركان حرب وأقسام الآلاى	١٢٠			
الكتيبة الأولى : بكباشى	١٣٠٠			
الكتيبة الثانية : بكباشى	١٣٠٠			
الكتيبة الثالثة : بكباشى	١٣٠٠			
		٤٠٢٢		
اللواء الرابع (١٢ جى) المشاة				
أميرالاى : عبد القادر عبد الصمد	١			
قائمقام : محمد عوض	١			

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

المشاة	كتائب	وجنود آلايات	وصف ضباط لواءات	ضباط فرق
أركان حرب وأقسام الآى	١٣٦			
الكتيبة الأولى : بكباشي سلمان الحداد	١٣٤١			
الكتيبة الثانية : بكباشي محمد صبرى	١٣٠٤			
الكتيبة الثالثة : بكباشي إبراهم عاصم	١٤٨٥	٤٢٦٨	٨٢٩٠	١٦٥٣١
	جملة الفرقة المشاة الثالثة			١٦٥٦٢
٤ — الفرقة المشاة الرابعة				
فريق				١
أركان حرب وتوابع الفرقة				٣٠
اللواء الأول (١٣ جى) واللواء الثانى (١٤ جى)		١		
أميرالاى على عيسى بك	١			
قائمقام : محمد خورشيد بك	١			
أركان حرب وأقسام الآلاى	١٢٢			
الكتيبة الأولى : بكباشي إبراهم رأفت	١٩٠٩١			
الكتيبة الثانية : بكباشي سالم شحاته	١٠٢٧			
الكتيبة الثالثة : إسماعيل هدايت	١٠٦٩	٣٣١١		
اللواء الثانى (١٤ جى) مشاة				
أميرالاى أحمد كامل	١			
قائمقام مصطفى شفيق	١			
أركان حرب وأقسام الآلاى	١٣٨			
الكتيبة الأولى بكباشي رسول فيض	٩٣٦			
الكتيبة الثاتية : بكباشي شاكر هدى	١٠٠٠			
الكتيبة الثالثة : بكباشي عباس شوقى	١٠٠٠	٣٠٧٦	٦٣٨٧	
			٦٤٠٨	٣

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

المشاة	كتائب	وعسكر آلايات	وصف ضباط لواءات	ضباط
اللواء المشاة الثالث				
لواء ٣ جى ، ١٥ جى ، ٤ جى ، ١٦ جى مشاة			١	
أركان حرب وتوابع اللواء			٢٠	
٣ جى (١٥ جى) بيادة				
أميرالاى : فرج عبد العال	١			
قائمقام : أحمد علام	١			
أركان حرب وأقسام الآلاى	١١٩			
الكتيبة الأولى : بكباشى محمد عبد المنعم	١٠٠٠			
الكتيبة الثانية : على منصور	١٠٠٠			
الكتيبة الثالثة : بكباشى	١٠٠٠	٣١٢١		
اللواء المشاة (١٦ جى) الرابع				
أميرالاى : محمد حلمى	١			
قائمقام : على عمران	١			
أركان حرب وأقسام الآلاى	١٢٢			
الكتيبة الأولى : بكباشى محمد عريف	١٤٠٢			
الكتيبة الثانية : بكباشى حسين الشونى	١٤٠٢			
الكتيبة الثالثة : بكباشى بدوى سرى	١٤٠٢	٤٣٣٠	٧٤٥١	١٣٨٨٠
	جملة الفرقة المشاة الرابعة			١٣٩١١
الفرقة المشاة الخامسة				
فريق				
أركان وتوابع الفرقة				١
اللواءالأول (١٧ جى) واللواء الثانى (١٨جى مشاة)		١		٣٠

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

ضباط فرق	وصف ضباط لواءات	وجنود آلايات	كتائب	المشاة
		٢٠		أركان حرب وتوابع اللواء
				اللواء الأول ، (١٧ جى) مشاة
			١	أميرالاى إبراهم طعيمة
			١	قائمقام
			٩٨	أركان حرب وأقسام الآلاى
			١٠٠٠	الكتيبة الأولى : بكباشى
			١٠٠٠	الكتيبة الثانية : بكباشى
		٣١٠٠	١٠٠٠	الكتيبة الثالثة : بكباشى
				اللواء المشاة الثانى (١٨ جى)
				أميرالاى : محمد الزمر بك
			١	قائمقام :
			٩٨	أركان حرب وأقسام الآلاى
			١٠٠٠	الكتيبة الأولى : بكباشى
			١٠٠٠	الكتيبة الثانية : بكباشى
			١٠٠٠	الكتيبة الثالثة : بكباشى
	٦٢٠٠	٣١٠٠		
٣١	٦٢٢١			اللواء الثالث المشاة (١٩ جى) والرابع المشاة
	١			(٢٠ جى)
	٢٠			أركان حرب وتوابع اللواء الثالث (١٩ جى)
			١	أميرالاى : محمد نجم
			١	قائمقام :
			٩٨	أركان حرب وأقسام الآلاى

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

ضباط	وصف ضباط لواءات	وجنود آلايات	أورط	الفرسان
			١٠٠٠	الكتيبة الأولى : بكباشى
			١٠٠٠	الكتيبة الثانية : بكباشى
		٣١٠٠	١٠٠٠	الكتيبة الثالثة : بكباشى
				اللواء الرابع (٢٠ جى)
			١	أميرالاى : فوده حسن بك
			١	قائمقام :
			٩٨	أركان حرب وأقسام الآلاى
			١٠٠٠	الكتيبة الأولى : بكباشى
			١٠٠٠	الكتيبة الثانية : بكباشى
١٢٤٤٢	٦٢٠٠	٣١٠٠	١٠٠٠	الكتيبة الثالثة : بكباشى
١٢٤٧٣	جملة الفرقة المشاة الخامسة			

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

ضباط فرق	وصف ضباط لواءات	وجنود آلايات	كتائب	الفرسان
				٢ ــ الفرسان
		١		لواء : محمد رضا باشا :
		٢٠		أركان حرب وتوابع اللواء السوارى
				اللواء الفرسان الأول
			١	ميرالاى : أحمد عبد الغفار بك
			١	قائمقام
			١	بكباشي : إبراهيم خليل : ١ جى بكباشي
			١	بكباشي : مصطفى راشد : ٢ جى بكباشي
			١٠٣	أركان حرب وأقسام الآلاى
			٤٦٠٥	٩ كتائب وقائد الكتيبة : ويوزباشي
		٤٨٤٨	١٣٧	بلوك الإدارة
				اللواء الفرسان الثانى
			١	ميرالاى : أحمد نير
			١	قائمقام : محمد عاطف
			١	بكباشي : حسن حسنى : ١ جى بكباشي
			١٠	بكباشي : عثمان حلمى : ٢ جى بكباشي
			٦١	أركان حرب وأقسام الآلاى
	٦٢١٦	١٣٦٨	١٣٠٣	٦ أورط وقائد الكتيبة يوزباشي
	٦٢٣٧			اللواء الفرسان الثالث
			١	ميرالاى : عبد الرحمن حسن
			١	قائمقام : على عثمان
			١	بكباشي : عبد الله أحمد

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

ضباط فرق	وصف ضباط لواءات	جنود آلايات	كتائب	الفرسان
			١	بكباشي : جاد حسنين ٢ جى بكباشي
			٥١	أركان حرب وأقسام الآلاى
			٣٩٢٢	٧ كتائب وقائد الكتيبة يوزباشي
		٢٩٧٧		
				اللواء الفرسان الرابع
			١	ميرالاى
٩				
			١	قائمقام : السيد إبراهم
			١	بكباشي : محمود الرشيدى ١ جى
			١	بكباشي : إبراهم عويس : ٢ جى
			٤٣	أركان حرب وأقسام الآلاى
١٣١٩٩	٦٩٦٢	٢٩٨٥	٢٩٣٨	٦ كتائب وقائد الكتيبة يوزباشي
١٣١٩٩				

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

ضباط فرق	وصف ضباط لواءات	وجنود آلايات	كتائب	المدفعية البرية
	١			لواء حسن مظهر (باشا) : لواء المدفعية
	٢٠			أركان حرب وتوابع اللواء
				آلاى المدفعية الأول
			١	ميرالاى : بدوى منسى بك
			١	قائمقام :
			٦٢	أركان حرب وأقسام الآلاى
				الكتيبة الأولى : بكباشى عثمان سرى
			١٧٢	: ٤ بطاريات
				الكتيبة الثانية : بكباشى مصطفى عبد الحلم
				: ٤ بطاريات
				الكتيبة الثالثة : بكباشى محمد حشمت
				: ٤ بطاريات
		٢٢٠٠		
				آلاى المدفعية الثانى
			١	ميرالاى : حسن رأفت بك
			١	قائمقام
			٧٥	أركان حرب وأقسام الآلاى
				الكتيبة الأولى : بكباشى شحاته يوسف
			٦٨٠	: ٤ بطاريات
				الكتيبة الثانية : بكباشى محمد لبيب أفندى
			٧٨٠	: ٤ بطاريات
				الكتيبة الثالثة : بكباشى محمد فريد

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

ضباط فرق	وصف ضباط لواءات	وعسكر آلايات	كتائب	المدفعية البرية
			٧٨٢	: ٤ بطاريات
	٤٩٤٣	٢٧٤٣	٣٢٤	ورشة الصنايع
	٤٩٦٤			
				آلاى المدفعية الثالث
			١	أميرالاى : محمد بهجت
			١	قائمقام : على أنور
				١ جى أورطة : يكباشي يوسف محمد
			٧٤٠	: ٤ بطاريات
				الكتيبة الثانية : بكباشي محمد طاهر
			٧٤٠	: ٤ بطاريات
				الكتيبة الثالثة : بكباشي محمد شريف
		٢٢٩٩	٧٤٢	: ٤ بطاريات
				آلاى المدفعية الرابع
			١	ميرالاى : محمد نجاتى
			١	قائمقام :
			٧٥	أركان حرب وأقسام الآلاى
				الكتيبة الأولى : بكباشي عبد الله حلمى
			٧٢٠	: ٤ بطاريات
				الكتيبة الثانية : بكباشي محمد رفعت
				: ٤ بطاريات
				الكتيبة الثالثة : بكباشي محمد أنور
				٤ بطاريات

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يو م ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

ضباط فرق	وصف ضباط لواءات	وعسكر آلايات	كتائب	مدفعية السواحل
٩٥٠٠	٤٥٣٦	٢٢٣٧	٧٢٠	
٩٥٠٠	جملة المدفعية البرية			
				مدفعية السواحل
	١			لواء : حسن مظهر باشا : لواء سواحل
				أركان حرب وتوابع اللواء
				لواء مدفعية سواحل إسكندرية (الأول)
			١	ميرالاى : إسماعيل صبرى (بك)
			١	قائمقام : محمد نسيم (بك)
			٥٤	أركان حرب وأقسام الآلاى
			٦٧٨	الكتيبة الأولى : بكباشى عبد العال أبو العلا
			٦١٦	الكتيبة الثانية : بكباشى سيف النصر
			٦٧٦	الكتيبة الثالثة : بكباشى محمد شرمى
		٢٠٢٦		
				لواء مدفعية السواحل الثانى (رشيد)
			١	أميرالاى : محمد أمين بك
			١	قائمقام : عباس وهنى بك
			٦٠	أركان حرب وأقسام الآلاى
			٦٣٦	الكتيبة الأولى : بكباشى سلمان جودى
			٦١٨	الكتيبة الثانية : بكباشى صالح رأفت
	٣٨٧٥	١٨٤٩	٥٣٣	الكتيبة الثالثة بكباشى صالح
	٣٨٩٦			

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

ضباط فرق	وصف ضباط لواءات	وعسكر آلايات	كتائب	مدفعية السواحل
				لواء مدفعية السواحل الثالث (دمياط)
			١	أميرالاى إسماعيل ذهنى
			١	قائمقام سلمان نجاتى
			٩٠	أركان حرب وأقسام الآلاى
			١٧٥٧	الكتيبة الأولى بالطوبخانة : بكباشى سلمان زغيب [1]
			١٤٧٥	الكتيبة الثانية : بكباشى عمر طمان
٨٣٠٣	٤٤٠٧	٤٤٠٧	١٠٨٣	الكتيبة الثالثة : بكباشى محمد حبيب
٨٣٠	جملة مدفعية السواحل			

(١) مركز التدريب والمخازن

مجموع الفرق واللواءات

١ — المشاة

فرق	آلايات	
		الفرقة الأولى
	٧٣	قيادة وأركان حرب الفرقة واللواءين
	٤٤٣٠	اللواء الأول : أميرالاى محمد فرج
	٤٤٨٦	اللواء الثانى : أميرالاى خليل كامل
	٤٦١٤	اللواء الثالث : أميرالاى على يوسف
١٧٧١	٤١١٤	اللواء الرابع : أميرالاى عيد محمد
		الفرقة الثانية
	٧٣	قيادة وأركان حرب الفرقة واللاواءين
	٤٠٧٣	اللواء الأول (٥ جى بيادة) أميرالاى مصطفى عبد الرحيم
	٤٠٨٨	اللواء الثانى (٦ جى بيادة) : أميرالاى سليمان سامى
	٤٥٠٥	اللواء الثالث (٧ جى بيادة) : أميرالاى حامد أمين
١٦٩٩٦	٤٢٥٧	اللواء الرابع (٨ جى بيادة) : أميرالاى خضر خضر
		الفرقة الثالثة
	٧٣	قيادة وأركان حرب الفرقة واللواءين
	٤١٦٩	اللواء الأول (٩ جى بيادة) : أميرالاى إبراهيم فوزى
	٤٠٣٠	اللواء الثانى (١٠جى بيادة) : أميرالاى محمد عبيد
	٤٠٢٢	اللواء الثالث (١١ جى بيادة) : أميرالاى حسن جاد
١٦٥٦٢	٤٢٦٨	اللواء الرابع (١٢ جى بيادة) : أميرالاى عبد القادر عبد الصمد
٥١٢٧٥		
		الفرقة الرابعة
	٧٣	قيادة وأركان حرب الفرقة واللواءين
	٣٣١١	اللواء الأول (١٣ جى بيادة) : أميرالاى على عيسى

مجموع الفرق واللواءات

تابع المشاة

فرق	آلايات	
	٣٠٧٦	اللواء الثانى (١٤ جى بيادة) : أميرالاى أحمد كامل
	٣١٢١	اللواء الثالث (١٥ جى بيادة) : أميرالاى عبد العال
١٣٩١١	٤٣٣٠	اللواء الرابع (١٦ جى بيادة) : أميرالاى محمد حلمى
		الفرقة المشاة الخامسة
	٧٣	قيادة وأركان حرب الفرقة واللواءات
	٣١٠٠	اللواء الأول (١٧ جى بيادة) : أميرالاى إبراهيم طعيمة
	٣١٠٠	اللواء الثانى (١٨ جى بيادة) : أميرالاى محمد الزمر
	٣١٠٠	اللواء الثالث (١٩ جى بيادة) : أميرالاى محمد نجم
١٢٤٧٣	٣١٠٠	اللواء الرابع (٢٠ جى بيادة) : أميرالاى فودة حسن
٧٧٦٥٩	جملة المشاة	
		٢ — الفرسان
	٢١	قيادة وأركان حرب اللواء
	٤٨٤٨	الآلاى الأول : أميرالاى أحمد عبد الغفار
	١٣٦٨	الآلاى الثانى : أميرالاى أحمد نير
	٣٩٧٧	الآلاى الثالث : أميرالاى عبد الرحمن حسن
	٢٩٨٥	الآلاى الرابع : أميرالاى السيد إبراهيم
	١٣١٩٩	جملة الفرسان
	آلايات	٣ — المدفعية (البرية)
	٢١	قيادة وأركان حرب اللواء
	٢٢٠٠	١ جى طوبجية : أميرالاى بدوى منسى
	٢٧٤٣	٢ جى طوبجية : أميرالاى حسن رأفت

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

فرق	آلايات	
	٢٢٩٩	٣ جى طوبجية : أميرالاى محمد بهجت
	٢٢٣٧	٤ جى طوبجية : أميرالاى محمد نجاتى
	٩٥٠٠	جملة المدفعية
		مدفعية السواحل
	٢١	قيادة وأركان حرب اللواء
	٢٠٢٦	١ جى سواحل : أميرالاى إسماعيل صبرى
	١٨٤٩	٢ جى سواحل : أميرالاى محمد أمين
	٤٤٠٧	٣ جى سواجل : أميرالاى إسماعيل ذهنى
	٨٣٠٣	جملة مدفعية السواحل

مجموع قوة الجيش

٧٧٦٥٩	المشاة
١٣١٩٩	الفرسان
٩٥٠٠	المدفعية البرية
٨٣٠٣	المدفعية الساحلية
١٠٨٦٦١	

توزيع قوات الجيش يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ على ميادين القتال

جملة	فرق	آلايات	
			١ – فرقة الخط الشرقى (التل الكبير)
			الفريق : راشد حسنى باشا : فريق ١ جى ، ٣ جى فرقة
			لواء على فهمى باشا ١ جى
			لواء خالد باشا ٢ جى
			الاثنان الأولان جرحا فى واقعة القصاصين الثانية يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ونقلا إلى مصر وتعين بدل الأول اللواء على باشا الروبى قائد فرقة مريوط وهذا القائد وصل إلى التل الكبير يوم ١٢ سبتمبر أى اليوم الذى قبل الهزيمة .
		١١٠	قيادة وأركان حرب الفرقة واللواءين
			المشاة
		٣٤٣٠	أميرالاى ٢ جى مشاة فرقة : ميرالاى أحمد فرج بك
		٤٦١٤	أميرالاى ٣ جى « فرقة : ميرالاى على يوسف بك
		٤١١٤	أميرالاى ٤ جى « فرقة : ميرالاى عيد محمد بك
		٣٠٣٠	أميرالاى ٢ جى ، ١٠ جى بيادة ٣ جى فرقة : محمد عبيد بك ميرالاى
		٢٨٢٢	أميرالاى ٣ جى ، ١١ جى بيادة ٣ جى فرقة : حسن جاد بك ميرالاى
		٣٠٦٨	أميرالاى ٤ جى ، ١٢ جى بيادة ٣ جى فرقة : عبد القادر عيد ميرالاى
			أميرالاى عبد الصمد بك
			أميرالاى ٢ جى ، ٦ جى بيادة ٢ جى فرقة :
		٢٦٣٩	أميرالاى سليمان سامى بك
			أميرالاى ٤ جى ، ٨ جى بيادة ٢ جى فرقة :
		٢٧٨٤	ميرالاى خضر خضر بك كتيبتان سودانيتان

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

جملة	فرق	آلايات	
			المدفعية
٢٨٧٣٢	٢٨٧٣٢	٢١٢١	أميرالاى ٣ جى ، ١٥ جى بيادة ، ٤ جى فرقة : فرج عبد العال باك أميرالاى أورطتان
			القوة المرتبة أصلا لهذا الخط كانت مكونة من ال ٦ آ لايات الأولى التابعة إلى ١ جى و ٣ جى كما يؤيد ذلك وظيفة قائد هذا الخط الفريق راشد حسنى باشا . ولكن لما اشتدت الحالة الحربية فيه أحضروا الوحدات الأخيرة من الفرق الأخرى .
			الخيالة
		٣٣٤٨	أميرالاى ١ جى فرسان أحمد عبد الغفار بك
٦٣٢٥	٦٣٢٥	٢٩٧٧	أميرالاى ٢ جى فرسان عبد الرحمن حسن بك
			المدفعية البرية
		٢٧٤٣	أميرالاى ٢ جى مدفعية برية أميرالاى حسن رأفت بك
٥٠٤٢	٥٠٤٢	٢٢٩٩	أميرالاى ٣ جى مدفعية برية أميرالاى محمد بهجت بك
٤٠٠٩٩	جملة فرقة الخط الشرقى		

فرقة الخط الشرقى

٢٨٧٣٢	المشاة
٦٣٢٥	الخيالة
٥٠٤٢	المدفعية
٤٠٠٩٩	

فرقة الصالحية

القائد : اللواء محمود سامى باشا البارودى

قيادة وأركان حرب الفرقة

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

جملة	فرق	آلايات	
			المشاة
		١٤٤٩	أميرالاى ٢ جى (٦ جى) بيادة ٢ جى فرقة : سليمان سامى بك
		٣١٠٠	أميرالاى ٣ جى (١٨ جى) بيادة ٥ جى فرقة : محمد الزمر بك
٧٧٠٢	٧٧٠٢	٣١٠٠	أميرالاى ٤ جى (٢٠ جى) بيادة جى فرقة : فوده حسن بك
			الخيالة
١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	سوارى من ١ جى سوارى
			المدفعية
١٤٩٣	١٤٩٣	١٤٩٣	أميرالاى محمد نجاتى بك ٨ بطاريات من ٤ جى مدفعية
١٠١٩٥	جملة فرقة الصالحية		

قوة فرقة الصالحية

٧٧٠٢
١٠٠٠
١٤٩٣
―――
١٠١٩٥

٣ — فرقة دمياط

جملة	فرق	آلايات	
			لواء القائد : اللواء عبد العال حلمى باشا
		٥٣	قيادة وأركان حرب اللواء

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

	آلايات	فرق	جملة
المشاة			
أميرالاى ٤ جى ، ٨ جى بيادة ٢ جى فرقة : أميرالاى خضر خضر بك	١٤٧٣		
أميرالاى ٤ جى ، ١٦ جى بيادة ٤ جى فرقة : أميرالاى محمد حلمى بك	٣١٣٠	٤٦٥٦	٤٦٥٦
الكتيبتان الأخيرتان من آلاى خضر خضر نقل إلى التل الكبير بأمر عرابى باشا فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٨٢ (راجع مذكرات عرابى باشا ص ٣٨٤) وهذا الآلاى هو الآلاى السودانى			
الخيالة			
فرسان من ١ جى خيالة	٥٠٠	٥٠٠	٥٠٠
المدفعية			
أميرالاى ٣ جى سواحل ميرالاى سليمان نجاتى بك	٢٠٠٠		
١ بطارية من ٤ جى مدفعية	١٨٦	٢١٨٦	٢١٨٦
	جملة فرقة دمياط		٧٣٤٢

قوة فرقة دمياط

٤٦٥٦
٥٠٠
٢١٨٦
———
٧٣٤٢

٤ — قوة أبى قير ورشيد

	آلايات	فرق	جملة
اللواء القائد : اللواء خورشيد طاهر باشا			
قيادة وأركان حرب الفرقة	٥٣		

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

	الآلايات	فرق	جملة
المشاة			
أميرالاى ٣ جى ، ٧ جى بيادة ٢ جى فرقة م أميرالاى حامد أمين بك	٤٥٠٥		
أميرالاى ١ جى ، ٩ جى بيادة ٣ جى فرقة أميرالاى ابراهيم فوزى بك	٤١٦٩		
أميرالاى ١ جى ، ١٣جى بيادة ٤ جى فرقة أميرالاى على عيسى بك	٣٣١١	١٢٠٣٨	١٢٠٣٨
الخيالة			
فرسان من ٣ جى خيالة	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠
المدفعية			
أميرالاى ٢ جى سواحل : أميرالاى محمد أمين بك	١٨٤٩		
٢ بطاريات من ٣ جى طوبجية	٣٧٢	٢٢٢١	٢٢٢١
جملة فرقة أبى قير ورشيد			١٥٢٥٩

فرقة أبى قير ورشيد

المشاة	١٢٠٣٨
الخيالة	١٠٠٠
المدفعية	٢٢٢١
	١٥٢٥٩

٥ ــ فرقة كفر الدوار

	الآلايات	فرق	جملة
اللواء القائد : اللواء طلبة عصمت باشا			
قيادة وأركان حرب الفرقة	٥٣		

	آلايات	فرق	جملة
المشاة			
أميرالاى ٢ جى بيادة ١ جى فرقة ميرالاى خليل كامل بك	٣٤٨٦		
أميرالاى ١ جى ، ٥ جى بيادة ٢ جى فرقة : ميرالاى مصطفى عبد الرحيم بك	٤٠٧٣	٧٦١٢	
الخيالة			
سوارى من ٤ جى سوارى	٩٠٠	٩٠٠	٩٠٠
المدفعية			
أميرالاى ١ جى طوبجية برية : ميرالاى بدوى منسى بك	٢٢٠٠	٢٢٠٠	٢٢٠٠
جملة فرقة كفر الدوار			١٠٧١٢

فرقة كفر الدوار

٧٦١٢
٩٠٠
———
١٠٧١٢

٦ — فرقة مريوط

	آلايات	فرق	جملة
اللواء القائد : اللواء على باشا الروبى			
قيادة وأركان حرب الفرقة	٥٣		
البيادة			
أميرالاى ٢ جى ، ١٤ جى بيادة ٤ جى فرقة : ميرالاى أحمد كامل بك	٣٠٧٦	٣١٢٩	٣١٢٩
الخيالة			
فرسان من ٤ جى خيالة	٩٠٠	٩٠٠	٩٠٠

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

	آلايات	فرق	جملة
المدفعية			
١ بطاريات من ٤ جى مدفعية	١٨٦	١٨٦	١٨٦
	جملة فرقة مريوط		٤٢١٥
قوة فرقة مريوط ٣١٢٩ المشاة ٩٠٠ الخيالة ١٨٦ المدفعية ٤٢١٥			
٧ — قوة عجرود أمام السويس			
أميرالاى ١ جى (١٧ جى) بيادة ٥ جى فرقة : ميرالاى إبراهيم طعيمة باك	٣١٠٠		
٨ — فرقة القاهرة			
اللواء القائد : اللواء محمد رضا باشا			
قيادة أركان حرب اللواء	٥٣		
المشاة			
بكباشى ١ جى بيادة ١ جى فرقة : بكباشى رمضان صدقى	١٠٠٠		
بكباشى ٢ جى بيادة ١ جى فرقة : بكباشى أحمد كامل	١٠٠٠		
٢ جى (١٠ جى) بيادة ٣ جى فرقة : كتيبة فى العباسية	١٠٠٠		
٣ جى (١١ جى) بيادة ٣ جى فرقة : « فى العباسية	١٢٠٠		
٤ جى (١٢ جى) ٣ بيادة جى فرقة : « فى العباسية	١٢٠٠		
٣ جى (١٥ جى) بيادة ٤ جى فرقة : « فى العباسية	١٠٠٠		
٤ جى (١٦ جى) بيادة ٤ جى فرقة : « فى العباسية	١٢٠٠		
أميرالاى ٣ جى (١٩ جى) بيادة ٥ جى فرقة : أميرالاى محمد نجم	٣١٠٠	١٠٧٥٣	١٠٧٥٣
فى القلعة : الآلاى الأخير كان تقرر سفره إلى الصالحية			

(تابع) الجيش المصرى وتوزيعه يوم ١٢ سبتمبر ١٨٨٢

	آلايات	فرق	جملة
الخيالة			
أميرالاى ٢ جى فرسان : أميرالاى أحمد نير بك	١٣٦٨		
أميرالاى جى فرسان : أميرالاى السيد إبراهيم بك	١١٨٥	٢٥٥٣	٢٥٥٣
المدفعية			
٣ جى سواحل والباقى منه فى دمياط	٢٤٠٧	٢٤٠٧	٢٤٠٧
جملة فرق القاهرة			١٥٧١٣

قوة حامية فرقة القاهرة

المشاة	١٠٧٥٣
الخيالة	٢٥٥٣
المدفعية	٢٤٠٧
	١٥٧١٣

مجموع قوة الفرق المختلفة

فرقة الخط الشرقى (التل الكبير)	٤٠٠٩٩
فرقة الصالحية	١٠١٩٥
فرقة دمياط	٧٣٤٢
فرقة أبى قير ورشيد	١٥٢٥٩
فرقة كفر الدوار	١٠٧١٢
فرقة مريوط	٤٢١٥
فرقة عجرود أمام السويس	٣١٠٠
فرقة القاهرة	١٥٧١٣
	١٠٦٦٣٥
قوة ١ جى سواحل تشتت بعد تدمير الحصون	٢٠٢٦
	١٠٨٦٦١

إيضاحات

كان الجيش المصرى فى سنة ١٨٨١ مكوناً من ٦ آلايات مشاة وآلايين من الفرسان وآلاى من المدفعية البرية و ٣ آلايات من مدفعية السواحل . وكان مجموع هذه القوة ٢٢٢٣٤ ضابطاً وصف ضابط وجندياً .

وعند ما تعين محمود سامى باشا البارودى لرئاسة الحكومة فى ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ م واستولى العرابيون على زمام الحكم زادوا آلايات المشاة آلايين لتكون ثمانية أى فرقتين كما زادوا المدفعية البرية آلاياً لتكون لواء .

وقرروا أيضاً جمع جنود الاحتياط رقم (١) و (٢) و (٣) لزيادة الآلايات جميعها ولكن لم يجمع منها فى عهد هذه الوزارة إلا الجنود رقم (١) فبلغت قوة الجيش فى ذلك الوقت زهاء ٣٥٠٠٠ جندى .

وفى ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢ م استقال محمود سامى باشا من رئاسة الوزارة وبعد ذلك بأيام قلائل رفع عرابى باشا الى الخديو توفيق باشا طالبا إنفاذ الأوامر الصادرة فى عهد الوزارة المذكورة بجمع باقى جنود الاحتياط رقمى (٢) و (٣) فأجابه الخديو إلى ذلك فبلغت قوة الجيش قبل ١٠ يوليه سنة ١٨٨٢ م زهاء ٤٥٠٠٠ جندى وتقرر فى الجلسة التى انعقدت فى هذا اليوم تحت رئاسة الخديو فى سراى رأس التين جمع ٢٥٠٠٠ جندى آخرين . وقد تم ذلك بالفعل .

وبعد وقوع الحرب مع الإنجليز قرر المجلس العرفى يوم ١٢ اغسطس سنة ١٨٨٢ م وقد قضت ضرورة الحرب بتأليف هذا المجلس فى ذلك الوقت وجمع ٢٥٠٠ نفر من خفراء البلاد لتجنيدهم وقد نفذ ذلك فعلا . وفى يوم ٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م قررت نظارة الجهادية جمع ١٥٠٠ نفرا آخرين فبلغت هذه القوة المستجدة ٤٠٠٠ نفر وبذلك أصبحت القوات كالآتى :

٤٥٠٠٠ قوة الجيش قبل يوم ١٠ يوليه سنة ١٨٨٢ م

٢٥٠٠٠ تقرر جمعهم فى جلسة ١٠ يوليه سنة ١٨٨٢ م تحت رئاسة الخديوى فى قصر رأس التين .

٢٥٠٠٠ تقرر جمعهم بقرار من المجلس العرفى فى جلسة ١٢ أغسطس سنة ١٨٨٢ م

١٥٠٠٠ تقرر جمعهم بقرار من نظارة الجهادية فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ م

١١٠٠٠٠ الجملة

وعند ما كون العرابيون بعد ضرب الاسكندرية الجيش بهذا العدد العظيم أعادوا إليه نظام فرقه وآلاياته كما كان فى عهد الخديو اسماعيل مع حذفهم منه فرقة الحرس . وأثباتاً لحشد العرابيين هذا الجيش العرمرم نسوق للقارىء فما يلى صورة برقية أرسلها يعقوب سامى باشا وكيل الجهادية بمصر إلى اللواء على باشا الروبى قائد فرقة مريوط ذكر فيها أن عدد هذا الجيش قد زاد على المائة ألف وها هى البرقية المذكورة :

صورة تلغراف من وكيل الجهادية بمصر الى قائد مريوط بتاريخ ٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢ .

الى سعادة قومندان مريوط على الروبى باشا

لا يخفى على سعادتكم عدم وجود العبى والكبابيد بالمخازن حالة ما كانت القوة العسكرية أحد عشر ألف نفر . وفى الزمن القريب بلغت قوتنا المصرية بعناية الله الملك المعين زيادة عن المائة الف . فيا أخى اعذرنى نظراً لبرودة موقع مريوط التى نعرفها نحن وخلافنا قد جمعنا كافة الأحزمة الموجودة بسوق المغاربة بمصر فيكل اجتهاد تحصلنا على ١٩٠٠ حرام وها هم مرسولين صباح باكر لإدارة كفر الدوار يتعين من طرف سعادتكم من يلزم لاستلامهم من هناك افندم .

وكيل الجهادية بمصر
يعقوب سامى

وقد كان عدد جنود الآلايات الفرسان فى الثورة العرابية يزيد كثيراً عن عددهم المعتاد . ويغلب على الظن أن معظم جنود آلايات هذا السلاح فى اثناء الثورة كانت مشاة ولم تكن لها جياد [1] .

قائمقام عبد الرحمن زكى

---

(١) من مذكرات خاصة للمرحوم عمر طوسون .



احتلال بحر الغزال

مضى على احتلال بحر الغزال عشرة أعوام[١] ولا تزال آثار تلك الرحلة خالدة فى النفس فرأيت أن أكتب شيئاً عنها مما لا يزال عالقا فى ذاكرتى أو دونته فى مفكراتى أوكتبت به فى رسائلى إلى أهلى وأصدقائى . عشرة أعوام مضت ولكن ذكرى الرفقاء الذين تركناهم فى تلك البلاد لم تنقض . رفقاء الشدة والخطر والتعب والمرض والجوع والعطش . بعضهم خير من لقيت من الفتيان . كرام بواسل لا يهابون الموت . منهم من يقتحم الأسد فى عرينه أو يقتل الفيل على بعد عشر خطوات أو يقف وحده أمام العدو فيرد على أعقابه حتى يجمع الجنود شملهم ويعودوا لإنقاذه فيجدونه مضرجاً بدمائه وحوله جثث الأعداء . قبورهم منتشرة فى تلك البلاد وواحد منهم لا يعرف له قبر فإن الأعداء لم يتركوا له أثراً وآخر حملته منيته إلى بلاده فمات بين أهله . وسيأتى ذكر كل واحد منهم لكننى سأبدأ أولا بذكر شئ عن تاريخ هذه البلاد قبل احتلالها الأخير فأقول :

بحر الغزال نهر كبير يمد النيل من غربيه إلى الجنوب من فشوده وبه سميت البلاد التى يخرج منها وهى الآن مديريتى السودان يحدها شمالا دارفور وكردوفان وجنوبه ولاية الكنغو الحرة وشرقاً النيل الأبيض ويعرف هناك بحر الجبل نسبة إلى الجبل الرجاف وغرباً الكونغو الفرنسوى .

وهى بلاد واسعة الأرجاء واقعة بين الدرجة الخامسة والدرجة العاشرة من العرض الشمالى ولم يكن يعرف شئ عنها عند الأوربيين قبل أواسط القرن الماضى ولا يعلم أول من دخلها من العرب ولم أرلها ذكراً فى ما وقفت عليه من المؤلفات العربية وربما كانت طوائف لملم ودمدم وتميم أونمم التى ذكرها الإدريسى وشمس الدين الدمشقى من سكان هذه البلاد أو ما يجاورها فقد جاء عن هؤلاء

---

(١) نشر هذا المقال فى مجلة المقتطف فى المجلدين ٣٩ و ٤٠ عام ١٩١١ و ١٩١٢ . لما كان كاتبه طبيباً برتبة اليوزباشى فى الجيش المصرى .

١٨٢٠

الأقوام أنهم من أكلة لحوم البشر وأنهم يتعاملون بالخرز والنحاس كما يتعامل سكان بحر الغزال فى أيامنا . وذكر الإدريسى نهراً يجرى من منابع النيل غرباً ولعله النهر المعروف بنهر الولى وهو من السواعد الكبرى التى تمد نهر الكنغو .

وأول من دخل بحر الغزال من الأوربيين رجل من ويلس يدعى جون بترك وكان ذلك سنة ١٨٥٦ ، ثم كثر الرواد بعده وأشهرهم المدموازل تينه Tinne وهى سيدة هولاندية كانت على جانب عظيم من الثروة سافرت إلى بحر الغزال سنة ١٨٦٣ ومعها والدتها وخالتها وجماعة من العلماء منهم البارون فون هوغلن . ومن مشاهير العلماء الذين دخلوا تلك البلاد العالم النباتى المشهور الدكتور شوينفورث قضى فيها ثلاث سنوات وكتب فى وصفها كتاباً سماه « قلب إفريقة » هو أحسن ما كتب عن تلك البلاد حتى الآن . ووصل فى رحلته إلى بلاد النمانم آكلة لحوم البشر واكتشف نهر الولى المذكور آنفاً . ومن الذين دخلوا بحر الغزال وكتبوا عنه جسى باشا الإيطالى ويونكر الألمانى وغيرهما .

تجارة الرقيق

اشتهر بحر الغزال فى تجارة الرقيق والعاج فكان تجار مصر والسودان يسيرون إليه العصابات المسلحة فى كل عصابة مئة رجل وأكثر فإذا وصلت العصابة إلى مكان رأت فيه مغنماً حفرت لنفسها خندقاً وأقامت حوله زريبة من الشوك وأخذت تجمع العاج والريش من الأهالى مقايضة بالخرز ورؤوس الحراب وأساور النحاس لأن لهذه الأشياء قيمة كبيرة فى تلك البلاد كما سيجئ . ثم إذا رأى رجال الزريبة فرصة هجموا على القرى والناس فيها غافلون فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال وساقوهم عبيداً وباعوهم فى أسواق الرقيق فى السودان ومصر وبلاد العرب . هذه هى الحال التى كانت عليها تلك البلاد فى أواسط القرن الماضى . قال لى شيخ كبير لقيته هناك « أتعلم أن طربوشك الأحمر هذا مصبوغ بدم أولادى » وقال جسى باشا فى وصف رحلته أنه لم يكن فى حاجة إلى الأدلاء فإن عظام العبيد الذين كانوا يموتون على الطريق كانت خير دليل له .

الزبير باشا

وبقيت البلاد على هذا المنوال إلى أن تغلب الزبير باشا عليها وامتلكها فعينه الخديوى إسماعيل باشا سنة ١٨٧٣ حاكماً عليها. ثم افتتح الزبير دارفور واستدعاه الخديوى إلى مصر فخرج ابنه سليمان على الحكومة ، وبعد مواقع بينه وبينها اتفق مع جسى باشا على التسليم هو وعدد كبير من رجاله ثم قتلهم جسى باشا بعد تسليمهم لأسباب لا محل لذكرها هنا . ولا يزال الزبير يطالب بدم ابنه وأبناء أعمامه وأمواله إلى هذا اليوم . وكان مع سليمان بن الزبير عبد اسمه رابح أبى التسليم معه وسار غرباً ومعه بعض الرجال الذين كانوا على رأيه وأقام فى بورنو وصار سلطاناً عليها وأمره مشهور مع الفرنسويين حاربهم زمناً ثم قتل منذ بضع سنوات . ولما قتل سليمان الزبير عين لبتن بك من رجال البحرية الإنكليزية مديراً عاماً لبحر الغزال وساتى بك من أهالى دنقله مديراً ثم كانت ثورة المهدى فسافر ساتى بك إلى الخرطوم لجلب المؤونة والذخيرة فوجد الدراويش محيطين بالمدينة فدخلها وبقى فيها يحارب حرب الأبطال إلى أن قتل فى موقعة القطينة

الأمير كرم الله الكركاوى

أما لبتن بك فبقى فى بحر الغزال يرد غارات الدراويش تحت قيادة أميرهم كرم الله الكركاوى ثم سلم لهم بعد قتال ثمانية عشر شهراً وأسلم هو ومن معه من الأقباط على يد الأمير كرم الله فسماه كرم الله الأمير عبد الله ثم أرسله إلى المهدى فزجه المهدى فى السجن ثم أطلقه وتوفى بعد ذلك فى أم درمان وله فيها ابنتان لا تزالان هناك حتى الآن .

وبقى كرم الله فى بحر الغزال إلى سنة ١٨٨٦ ثم ارتحل عنه برجاله وعادت الأحكام فيه إلى سلاطينه وشيوخه . وقتل كرم الله فى الفاشر سنة ١٩٠٣ قتله على دينار سلطان دارفور وقد كان معه فى بحر الغزال أخ اسمه محمد سافر معنا إلى بحر الغزال سنة ١٩٠٠ ، قال لى محمد الكركاوى مرة وقد رأى جماعة

من أهالى البلاد هناك « انظر إلى هؤلاء الكلاب فقد كان كلهم عبيدى منذ سنوات » فكأنه يتمثل بقول الشاعر :

كان منا الملوك فى سالف الدهر وكنتم لنـــا قديماً عبيـــدا

تجريدة مرشان

وبقيت البلاد تحت سلطة شيوخها وسلاطينها إلى أن كانت سنة ١٨٩٤ فاتفقت حكومة فرنسا مع ولاية الكنغو على احتلالها واحتلت بعض المواقع . وفى أوائل سنة ١٨٩٦ سار الكولونل مرشان من الكنغو الفرنسوى ومعه ستة ضباط فرنسويين وطبيب ومترجم واثنا عشر صف ضابط فرنسوى ومئة وخمسون جندياً من جنود السنغال السود ومدفعيتان وثلاثة مراكب من الألومينيوم فاخترق البلاد من أولها إلى آخرها وبنى فيها الحصون والمعاقل وجعل قاعدته قلعة ديزاه (Fort Desaix) وتسمى الآن واو وهى عاصمة بحر الغزال . وبعد أن عانى ما لا يوصف من المشاق والأخطار وصل إلى فشودة فى العاشر من شهر يوليه سنة ١٨٩٨ أى قبل استيلاء الحكومة على أم درمان بأقل من شهرين فأرسل الخليفة سرية لقتاله معها مدفعيتان فردها مرشان على أعقابها بعد أن قتل عدداً كبيراً من رجالها . ثم كانت حادثة فشودة بين انكلترا وفرنسا على ما هو مشهور وانتهت بإخلاء الفرنسويين لبحر الغزال وفشودة .

عزم الحكومة على احتلال بحر الغزال واستعداد التجريدة للسفر

وعادت الفوضى إلى بحر الغزال إلى أن عزمت الحكومة السودانية على احتلاله فأنفذت لذلك قوة عسكرية بقيادة سباركس بك وكان ذلك فى أواخر سنة ١٩٠٠ فبلغنى أمر هذه التجريدة وأنا فى شندى وسمعت أن البكباشى هيمس من القسم الطبى قد عين رئيساً لأطبائها فكتبت إليه ولم يكن بيننا معرفة وسألته أن يطلب من رئيس أطباء الجيش إرسالى معه وبعد بضعة أيام أتانى تلغراف من حكيمباشى الجيش يأمرنى فيه بالسفر إلى أم درمان لمرافقة القوة المسافرة إلى بحر الغزال فتعرفت هناك بالضباط المسافرين مع هذه القوة وبقينا فى أم درمان

أياماً نستعد فيها للسفر ونشترى ما نحتاج إليه من الخرز والأسلاك والأساور والأنسجة وأسلحة الصيد . وأخذ بعضنا مؤونة سنة من السكر والشاى والبن والحبوب والفواكه اليابسة والأطعمة المحفوظة فى العلب وما أشبه . وفى التاسع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩٠٠ أبحرنا من أم درمان على ثلاث بواخر وسرنا ونحن لا ندرى من منا يرجع سالماً .

وكانت سريتنا مؤلفة من ١٦ ضابطاً ومترجم وكاتب و ٨٤ من الجنود المنظمة و ٢٦٦ من الجنود غير المنظمة و ٢١٦ من نساء العساكر وأولادهم وصحبنا من الأدلاء محمد الكركساى المذكور آنفاً ورجلان آخران معه ونحو مئة رجل وامرأة من مهاجرى البلاد العائدين إلى أوطانهم وكانوا قبلا عبيداً فى الخرطوم وما يجاورها . وأخذنا معنا حصاناً واحداً للتجربة وسبعة بغال و ٨٧ حماراً لحمل المؤونة . وكان معنا من البضائع لمقايضة الأهالى ما تبلغ قيمته ألف جنيه تقريباً أكثرها أنسجة وأساور نحاس وخرز . وأخذنا ٥٠٠ كيس من النسيج الكتيم الذى لا ينفذه الماء و ٧٥ صندوقاً صغيراً كلها مبطنة بالصفيح لا ينفذها الماء ولا تقرضها الأرض وهى كثيرة جداً فى تلك البلاد . وكان معنا عدد كبير من الكلل لاتقاء البعوض والمشمعات للوقاية من المطر والرطوبة وأدوات الزراعة والنجارة والحلاقة وتصليح السروج والسلاح وما أشبه . أما الأدوات الطبية فلم ينقصنا شىء منها . وهناك أسماء الضباط والموظفين الملكيين حسب رتبهم حينئذ .

ضباط التجريدة

الميرالاى سباركس بك قائد القوة وقد رقى بعد ذلك إلى رتبة ميرلوا ثم استقال من الجيش المصرى وتوفى فى بلاد الإنكليز .

البكباشى بلنوى من المدفعية وقد رقى بعد ذلك إلى رتبة قائمقام فميرالاى وعين مديراً لبحر الغزال وتوفى هناك سنة ١٩٠٥ .

البكباشى برى من السوارى رقى بعد ذلك إلى رتبة قائمقام واستقال من الجيش المصرى ثم استقال من الجيش الإنكليزى ولم يبق غيره حيا من الضباط

الإنكليز الذين رافقوا هذه التجريدة وهو الآن الماجور برى سكرتير نادى السباق فى هليوبوليس .

البكباشى هيمس من القسم الطبى جرح فى واقعة النمانم وتوفى فى مارس سنة ١٩٠٤ فى بحر الغزال .

اللفتيننت فل من البحرية الملكية كان قائد البواخر فى هذه التجريدة ولحق بنا فى التوفيقية جنوبى شنودة . وقد استقال من البحرية بعد انتهاء التجريدة فألحق بحكومة السودان ومنح رتبة قائمقام وتوفى فى بحر الغزال سنة ١٩٠٥ .

البكباشى فرج افندى أبو زيد من البيادة وهو الآن من الضباط المتقاعدين

اليوزباشى عباس افندى عثمان من البيادة وهو الآن من الضباط المتقاعدين

اليوزباشى مرسال أفندى نصرت من البيادة وقد بقى فى بحر الغزال زمناً ثم ارتحل عنها .

الملازم أول محمد أفندى صبرى من البيادة وقد توفى فى بحر الغزال سنة ١٩٠٢ .

كاتب هذه السطور وكان برتبة ملازم أول ثم رقى إلى رتبة يوزباشى واستقال من الخدمة .

الملازم أول نجيب أفندى شديد من القسم الطبى وقد رقى بعد ذلك إلى رتبة يوزباشى واستقال من الخدمة .

الملازم الثانى أحمد أفندى كامل من السوارى وقد رقى بعد ذلك إلى رتبة ملازم أول ثم إلى رتبة يوزباشى وهو الآن فى مصر القاهرة .

الملازم الثانى أحمد افندى درويش من البيادة وقد رقى إلى رتبة ملازم أول ثم إلى رتبة يوزباشى وهو الآن فى مصلحة الحفر .

الملازم الثانى ريحان أفندى عبد الله من البيادة وقد رقى إلى رتبة ملازم أول ثم إلى رتبة يوزباشى .

الملازم الثانى محمد أفندى على من البيادة وقد رقى إلى رتبة ملازم أول ثم إلى رتبة يوزباشى .

الملازم الثانى محمد أفندى أمين من البيادة وقد رقى إلى رتبة ملازم أول

ثم إلى رتبة يوزباشي وهو (الآن) مأمور تلودى فى كردفان .

يوسف أفندى صدقى مترجم التجريدة .

محمد بك عبد الغفار باشكاتب التجريدة .

وأربعة من هؤلاء الضباط سودانيون من سكان تلك البلاد فى الأصل لكنهم ربوا فى مصر أو ولدوا فيها وهم : فرج أفندى أبو زيد ، ومرسال أفندى نصرت وريحان أفندى عبد الله ومحمد أفندى أمين . وواحد تركى المولد والأصل وهو عباس أفندى عثمان . وأربعة مصريون وهم محمد أفندى صبرظى وأحمد أفندى كامل وأحمد أفندى درويش ومحمد أفندى على . واثنان سوريان وهما الدكتور نجيب شديد وكاتب هذه السطور والباقون إنكليز وكان معنا أيضاً جاويشان إنكليزيان ولحق بنا هناك ضباط آخرون أو جاءوا بعدنا وهم القول أغاسى على أفندى وهبى توفى هناك والبكباشى سكوت باوبر قتله الأهالى والقائمقام أرمسترنج بك داسته الأفيال والقائمقام وود بك وغيرهم .

القيام من أم درمان ووصف النيل الأبيض

وكان قيامنا من أم درمان فى التاسع والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٠٠ ومعنا ثلاث مدفعيات نيلية وهى الظافر والحفير والتوفيقية ومع كل مدفعية صندلان وقياستان أو ثلاث مربوطة فيها « الصنادل والقياسات من مراكب النيل » فسارت البواخر بنا فى النيل الأبيض جنوباً أم درمان عن يميننا والخرطوم عن شمالنا . ولم تكن البلاد التى سرنا فيها أولا مجهولة عند الكثيرين منا لأننا مررنا فيها قبل ذلك بسنة لمحاربة الخليفة . وكانت البواخر تسير بنا ليلا ونهاراً ولم نكد نسير يومين أو ثلاثة حتى وصلنا إلى قوز أبى جمعة وهى آخر محطة كان فيها مكتب للتلغراف فى تلك الأيام فلما تركناها وراءنا شعرنا كأننا انقطعنا عن العالم . وكان مأمور قوز أبى جمعة المرحوم اليوزباشي محمد شريف . وأن لسانى ليعجز عن وصف ما رأيته منه من كرم الأخلاق وحسن الضيافة ولاأزال أذكر حادثة جرت أمامى بينه وبين الأهالى أظهر فيها ما جبل عليه من اللين

وطول الأناة . ولم تمض على ذلك بضع سنوات حتى قتله الأهالى غدراً فى الكاملين المشهورة . ومن الأماكن التى مررنا بها جزيرة أبا وهى المكان الذى أقام فيها المصرى ونشر دعوته منه وعلى مقربة منها مكان فى النيل يعرف بمخاضة أبى زيد يزعم أهالى السودان أن أبا زيد الهلالى خاض النيل منها فى رحلته إلى المغرب والنيل هناك واسع جداً فإذا جاء زمن انخفاضه قل الماء فيه كثيراً فلايزيد عمقه فى أعمق مكان على قدمين .

الوصول إلى فشودة والتوفيقية

وكنا كلما نفد الوقود منا نقف قرب غابة من الغابات نحتطب منها ثم وصلنا بعد أيام إلى مكان يسمى الرنك فكان آخر عهدنا بالعرب هناك وأول عهدنا بالسود والبعوض. وبعد مسير تسعة أيام وصلنا إلى فشودة فوجدناها تكاد تكون خراباً ليس فيها إلا أطلال المعاقل التى بناها الكلونل مرشان . وفقدنا هناك أول رجل من رجالنا كان يستقى من النيل فسقط الدلو منه فنزل لانتشالها فى مكان لايزيد عمق الماء فيه على ذراعين فلم يكد يصل إلى الماء حتى اختفى كلمح البصر كأن تمساحاً جذبه من قدمه وجرّه تحت الماء .

ثم أقلعنا من فشودة إلى التوفيقية فلقينا فيها جماعة من الأصدقاء الأوفياء منهم الدكتور اسكندر القيم فأحسنوا وفادتنا وبتنا تلك الليلة فى ضيافتهم ثم تركنا الظافر والحفير وانتقلنا منهما إلى مدفعيتين آخريين اسمهما أبو طليح وخيبر ولحق بنا هناك اللفتننت فل واستلم قيادة البواخر .

قبيلة الشلك

وكنت أود أن أكون شاعراً لأصف تلك البلاد وأهاليها ومعظمهم من قبيلة الشلك وهم طائفة من السود طوال القامة أشداء سلاحهم الرماح والدرق والدبابيس ولرجالهم عناية كبيرة بشعور رؤوسهم يضفرونها أشكالا وأكثرهم عراة وقد يستتر

بعضهم بمئزر من الجلد أو النسيج . أما النساء فيحلقن شعورهن أو يقطعنها ويستترن بمآزر الجلد . وقبيلة الشلك كبيرة جداً منتشرة على ضفة النيل الغربية من بحيرة نوالى الكاكا ويقيم عدد قليل منها فى نواحى فاشودة والتوفيقية على الضفة الشرقية . وعليهم ملك يكاد يكون مستقلا فى الأماكن البعيدة عن مراكز الحكومة .

دخولنا فى بحر الغزال

أقلعنا من التوفيقية فى التاسع من شهر ديسمبر وبعد مسير يوم وليلة وصلنا إلى بحيرة نو حيث يلتقى بحر الغزال وبحر الزراف وبحر الجبل لذلك يسميها العرب مقرن البحور . وهى بطيحة من بطائح النيل تكثر فيها النباتات المائية كالبردى والنيلوفر والعنبج . وفيها من الطيور المائية نوع من اللقلق غريب الشكل جداً له منقار كبير منعقف كالحذاء العربى لذلك يسميه العرب أبا مركوب وقد أخذ الإنكليز هذا الاسم عنهم وسموه (Shoe-bill) . وأفراس النهر والتماسيح كثيرة جداً هناك . ويصعب النزول إلى البر فى هذه البحيرة وفى بحر الغزال لكثرة النباتات المائية ويكاد الرائى لا يعرف أين ينتهى البر ويبتدء الماء فإذا رأى شجراً عرف أن الشجر فى البر لا فى الماء . والبر بعيد جداً عن مجرى الماء لأن بحر الغزال بحيرة أو مستنقع كبير يجرى الماء فى وسطه فقط وسائره مغطى بالنباتات وهو كثير هناك وهذا شأن أكثر الأنهار التى تمد النيل فى أعاليه ومتى اشتبكت هذه النباتات المائية بعضها ببعض انفصلت من جذورها وطفت على وجه الماء وكأنها عائمة سدت النهر كله فيسحبها الملاحون بالسد . ويعسر حينئذ سير المراكب والبواخر وربما اجتمع السد حولها وحبسها كما يحبس الجليد السفن فى الأصقاع الشمالية . وقد حبس السد جسى باشا ورجاله سنة ١٨٨٠ نحو شهرين فى بحر الغزال ، فعضهم الجوع ومات عدد كبير منهم وأكل بعضهم لحم القرود التى كانت معهم . والنباتات المائية التى هناك أنواع كثيرة منها البردى والنيلوفر والبوص . ومنها نبات يشتبك بعضه ببعض يسميه العرب أم صوف (panicum pyramidale) ومنها نجم شائك يدعى العنبج (Herminiera elaphroxylon)

متى جف خشبه صار أخف من الفلين فيصنع السود منه أرماثاً وقوارب يركبونها فى النهر ، فإذا خرج الواحد منهم من الماء أخرج رمثه أو قاربه وحمله إلى بيته . ومن الأشجار الغريبة شجر الدليب وهو نوع من النخل يشبه الدوم لكنه ذو ساق واحدة لا فروع بها وله ثمر أصفر اللون يشبه الأناناس فى طعمه لكنه شديد الصلابة . ولا وجود للدوم هناك فيحل الدليب محله، وهو مثله لا ينبت إلا على مقربة من الماء . والأماكن التى ينبت فيها الدوم والعشر يكون الماء فيها قريباً من سطح الأرض . والقرى على ضفاف مقرن البحور قليلة جداً وبيوتها متفرقة بعيدة عن مجرى الماء وهى منازل قبيلة من السود تعرف بالنوير . أما بحر الغزال فلا أذكر أننى رأيت ما يدل على وجود الإنس بقربه فكأن البلاد هناك خالية خاوية على أننا رأينا مرة جماعة من السود مجتمعين على جثة فرس نهر وهم يقطعون اللحم منها ويقددونه فى الشمس .

وكان شوقنا عظيما ونحن سائرون لرؤية الأفيال . وفى مساء يوم رأينا أربعة منها فلما رأتنا وقفت تتفرج علينا لكنها كانت بعيدة عنا ولم نجد مكاناً ننزل منه إلى البر لنطلق الرصاص عليها عن قرب فتركناها وشأنها .

الوصول إلى مشرع الريك

وفى الرابع والعشرين من شهر ديسمبر وصلنا إلى مشرع الريك وهو آخر مكان تصلح الملاحة فيه ، فأرست بنا البواخر قرب جزيرة هناك فنزلنا فيها وجعلناها قاعدة أعمالنا . وفى اليوم التالى أضرمنا النار فى العشب ثم نصبنا خيامنا وأنزلنا أمتعتنا وبضائعنا، واختط العساكر والمهاجرون أماكن لنزول عائلاتهم وأخذوا يبنون المنازل فيها، ولم تمض أيام قلائل حتى صار ذلك المكان قرية عامرة . ولا أنس الساعة التى أنزلنا الحمير فيها من الصنادل بعد أن حبست فيها ستة عشر يوماً ، ثم أطلقناها تسرح وتمرح وتتمرغ وتنهق غير عالمة بما قدّر لها وأنها ستكون كلها طعماً للثعالب والضباع فى بضعة أشهر . وكان حمارى أشدها حبوراً . ولهذا الحمار قصة غريبة ، فإنه بعد أن خدمنى خدمة صادقة أكثر من ستة أشهر

أنقذنى من الإفلاس بعد موته كما سيأتى ذكره فى حينه .

كانت الجزيرة التى نزلنا فيها موحشة جداً ليس فيها ما يدل على وجود الإنس بل كانت خاوية كأن لم يدخلها بشر قبلنا . وكان الماء حولها مغشى بورق النيلوفر لا يرى الماء تحته حتى يخيل للناظر أن السفن راسية فى البر لا فى الماء . ورأينا هناك طائراً من طير الماء قدر الحامة يمشى على ورق النيلوفر كأنه يمشى على اليابسة وهناك أيضاً نوع من دجاج الماء أسود اللون صغير الجثة جميل جداً يرى سائراً بين البردى على جانب من الماء . والطيور المائية الأخرى كثيرة جداً منها الحوصل وأبو منجل والغواص والغماسة والبط والأوز وما أشبه ذلك.

منشور الأمان

وبعد وصولنا بيومين جاء بعض أهالى القرى المجاورة وبينهم شيخ عشيرة تعرف باللو فجمعهم سباركس بك وتلى عليهم منشور الأمان وقد جاء فيه : إننا قادمون لإعادة الأمن إلى البلاد واحتلالها باسم الحكومة، فكانوا يؤمنون وهم لا يفهمون شيئاً مما تلى عليهم . ثم وزع الهدايا عليهم وخلع على شيخ اللو خلعة سنية مما يخلع عادة على سلاطين السودان وملوكه وهى حلة حمراء مزركشة بالقصب . وقلده سيفاً عربياً ووضع عمامة حمراء على رأسه فخرج فرحاً مسروراً يجر سيفه تيها وعجباً ويكاد يعثر بأطراف ثوبه .

الخرز والنحاس والعاج

ولما أمن الأهالى جانبنا وعلموا أننا لم نأت للنهب ولا نريد بهم سوءاً أخذوا يفدون علينا ومعهم الغنم والدجاج واللبن والسمن واللوبياء والبامية والذرة والسمسم والفول السودانى المعروف فى الشام بفستق العبيد، فكنا نشترى ما نحتاج إليه مقايضة بالخرز والنحاس والأنسجة نشترى الخروف بأسوار من النحاس لا تزيد قيمته على قرش واحد، والدجاجة ببضع خرزات ثمنها مليم أو نحو أربع بارات .

وكان معنا من الخرز أنواع كثيرة مما يرغب فيه أهالى البلاد أشهرها نوع يعرف بالجنتور وهو أسود أو أحمر منقط بالبياض الحبة الواحدة منه قدر الحمصة وثمن الألف حبة نحو خمسين قرشاً . أما النحاس فله قيمة كبيرة فى تلك البلاد ولشدة رغبة الأهالى فيه كان بعض العساكر يقايضونهم بخرطوش البنادق بعد تفريغ الرصاص والبارود منه، فصدر أمر مشدد يحظر ذلك عليهم . وقد رأيت مرة دجاجة مع أحد الأهالى فقلت له أتبيعها قال أبيعها فتناولت سلكاً من النحاس طوله نحو شبر ووضعته على كفى ووضعت جنيها على الكف الأخرى وقلت له خذ إحدى هاتين القطعتين ثمن دجاجتك، فأخذ ينظر تارة إلى السلك وتارة إلى الجنيه كأنه يقدر وزنهما فرأى أن السلك أكبر حجماً فأخذه . وأخذت واحداً منهم مرة إلى إحدى البواخر وأريته ما فيها من أدوات النحاس الضخمة فكان ينظر إليها مندهشاً من غنى الحكومة . واشترى بعضهم نابين من العاج بأساور وأنسجة ونقود من الفضة تبلغ قيمتها كلها ٤٥ قرشاً، وكان وزن الناب الواحدة منهما ١٣٥ ليبرة والأخرى ١٣٨ ليبرة وثمن النابين نحو مئة وخمسين جنيها وهما أكبر ما رأيت من الأنياب . وقد يزيد وزن الناب الواحدة على ذلك كثيراً فقد أهدى إلى ملك الإنكليز الحالى لما زار منبسة منذ سنوات ناب من العاج وزنها ١٨٤ ليبرة، وقرأت بعد عودتى من بحر الغزال أن بيتاً من البيوت التجارية الأميركية اشترى نابين وزن الواحدة منهما ٢٢٣ ليبرة والأخرى ٢٢٥ ليبرة وهما أكبر الأنياب المعروفة . ويظهر أن رغبة السود فى النحاس قديمة جداً، فقد ذكر الدمشقى (القرن السابع للهجرة) فى كتاب نخبة الدهر أن أهل الحبشة العليا يختارون الصفر على الفضة ويتحلون به دونه ودون الذهب، وقال عن بعض طوائف السود ما نصه (والكفار وللملم تميم ودمدم فمن قارب المسلمين يسترون أبدانهم بجلود ، ومن بعد منهم يأكلون من وقع إليهم من الناس من غير جنسهم لشدة توحشهم من الناس وهم دمدم . والذهب فى بلادهم كثير لكنهم لا يستعملونه وإنما يستعملون النحاس يحمل إليهم فيترك على أطراف أرضهم فإذا رأوه اشتغلوا بنهبه والقتال عليه ، فيأخذ جالبوه ما قدروا عليه من الذهب ويهربون) .

قبيلة الدنكا

ويعرف السود الذين فى تلك الجهات بالدنكا، وهم عشائر كثيرة أشهرها الجانق . لونهم أسود حالك وهم كالشلك والنوير وغيرهما من القبائل السود التى تقيم قرب الأنهار والمستنقعات فى أعالى النيل، طوال الأعناق والأطراف يشبهون الطيور المائية فى عاداتهم وأشكالهم . قال شوينفورث فى وصفهم ما تعريبه :

« من النواميس الطبيعية أن الأقاليم المتشابهة تنشأ فيها أشكال متشابهة من الحيوانات على أنواعها، كما يتضح بأجلى بيان فى هذه البلاد . ومما لا شبهة فيه أن بين الإنسان والحيوان مشابهة كلية فى الشكل والعادات فى كثير من الأماكن التى تختلف اختلافاً بيناً عما يجاورها من الأقاليم، فإقامة الشلك والنوير والدنكا فى السهول التى تكثر فيها المستنقعات على مقربة من النيل جعلت فرقاً كبيراً بينهم وبين السود المقيمين بين الصخور والآكام فى داخل البلاد، فنسبتهم إلى سائر البشر كما قال هوغلن كنسبة الطيور المائية إلى غيرها من ذوات الريش . وقد أحسن كثيراً فى هذا التشبيه فإن الواحد منهم يقف ساعة من الزمان على رجل واحدة ويسند الأخرى عليها فوق ركبتها كما تفعل الطيور المائية . وإن خواتهم الطويلة وسيرهم على مهل بين الحلفاء لأشبه بخطوات اللقلق وسيره . ومما يزيدهم شبهاً بهذه الطيور نحافة أطرافهم ودقة أعناقهم وصغر رؤوسهم » انتهى .

ورجال الدنكا كلهم عراة لا يستترون بشيء، وسلاحهم الحراب والدرق والدبابيس ويصنعون درقهم من الخشب أو جلود البقر والجواميس البرية، ويحملون أحياناً عصياً قصيرة ضخمة مصنوعة من خشب الطلح أو الأبنوس أو الخرتيت وهو قرن الكركدن . ويتزينون بالخرز وأساور العاج والنحاس، وأكثر ما يلبسون أساور العاج فى العضد تحت الكتف وأساور النحاس فى العضد والمعصم . أما نساء تلك البلاد فسأفرد لهن فصلا خاصاً يليق بهن لأن بعضهن على جانب عظيم من الجمال .

البعوض فى مشرع الريك

وكان بين الجزيرة التى نزلنا فيها وبين البرخوراو مستنقع عرضه نحو مئة متر وعمق الماء فيه يزيد على قامة الإنسان فجعلنا فوقه طريقاً أو جسراً (كبرياً) من النباتات المائية وكان الجسر طافياً على وجه الماء ونحن نسير عليه ذهاباً وإياباً . ولم يمض زمن حتى جف الماء من المستنقع فصرنا نسير على اليابسة، لكن جفاف الماء لم يخفف وطأة البعوض وهو كثير جداً هناك. فكنا إذا غربت الشمس نجلس تحت الكلل هرباً منه ولا نخرج من تحتها قبل شروق الشمس، وربما أكلنا وشربنا وكتبنا رسائلنا تحت الكلل . وقد كتبت مرة كتاباً وكنت كلما سقطت بعوضة على وجهى أقتلها وأضعها فى علبة كبريت فارغة كانت أمامى فامتلأت العلبة قبل أن أنتهى إلى آخر الكتاب . وأنواع البعوض هناك كثيرة ، منها بعض الأنواع التى تنقل الحمى الملاريا فلا عجب أننا أصبنا كلنا بهذا الداء، أما الأهالى فيبنون منازلهم بعيداً عن المستنقعات هرباً من البعوض . وفيهم فضلا عن ذلك مناعة من الملاريا فلا تصيبهم كما تصيب البعض .

احتلال التونج

وبعد وصولنا ببضعة أيام أخذ سباركس بك فصيلة من الجنود وبعض الضباط ومنهم البكباشى جيمس والدكتور نجيب شديد وأحمد أفندى كامل وغيرهم وساروا إلى نهر التونج على ١٢٠ ميلا من مشروع الريك قرب مكان يسمى جور ، غطاس فوصلوا إليه بعد مسير ثمانية أيام على أقدامهم، وكان هذا سيراً فى بحر الغزال دائماً لا فرق فى ذلك بين الضباط والعساكر فإن الدواب كانت قليلة ومعدة لحمل الذخيرة والمؤونة فقط . وكان مع هذه السرية بعض المهاجرين بينهم ثلاثة رجال وامرأة من أهل البلاد رآهم لورد كرومر فى أم درمان فألبسهم الحلل الحمراء وقلدهم السيوف . وأهدت لادى كرومر إلى المرأة بعض الملابس

ومظلة حمراء . وقد أخبرنى صديقى الدكتور نجيب شديد أن هؤلاء الرجال كانوا يسيرون معهم وهم عراة ثم إذا اقتربوا من إحدى الحلل لبسوا ثيابهم وتقلدوا سيوفهم وفتحت المرأة مظلتها ولو كان الوقت بعد الغروب . فكان الشخص منا إذا تعب من المسير ورأى أن المرأة قد نشرت مظلتها عرف أنهم صاروا على مقربة من الحلة التى ينزلون فيها فتتجدد قواه .

ووصلت السرية إلى حلة التونج فى آخر يوم من شهر ديسمبر سنة ١٨٩٩ فرفعت العلم المصرى والعلم الإنكليزى عليها ، ولم يكن معها غير بروجى واحد فتقدم وضرب السلام الخديوى ونادت العساكر « افندى مزجوق يشا » لأول مرة فى تلك البلاد بعد مضى خمس عشرة سنة .

قرى الدنكا

لم يبق فى مشروع الريك إلا النساء وعدد قليل من الضباط والجنود ، ثم رجع البكباشى بلنوى بعد أيام من التونج فقلت له قد بلغت روحى التراقى وأحب أن أخرج من هذه الجزيرة أصطاد وأحرك قدمى . فقد بلغنى أن قطيعاً من الأفيال يأتى إلى الحلة المجاورة كل يوم ، فقال اذهب وقل لشيخها إننى أحب أن أرى سحنته ، وقد أرسلت فى طلبه مراراً ولم يحضر . فأخذت معى دليلا من المهاجرين ورجلا اسمه بلال وعسكريا من القسم الطبى اسمه عبد الجليل ، فلما اقتربنا من الحلة رأينا أشجاراً مكسرة وأغصانها مبعثرة فى كل ناحية ، فأخذ الدليل غصناً وأرانى لعاب الفيل عليه وكان جديداً . ثم تقدمنا قليلا فرأينا آثاراً أخرى تدل على أن الأفيال كانت هناك منذ زمن قريب . ومن عادة الأفيال أنها إذا مرت فى غابة كسرت الأشجار وفتحت طريقاً لها وربما كسرت الأغصان فقط وأكلت الورق الذى على أطرافها . وقد رأيت أشجاراً مكسرة أو مقلوعة من عروقها يبلغ قطر جذع الواحدة منها أكبر من شبر .

ولما وصلنا إلى الحلة ورآنا النساء والأولاد هربوا منا ثم رأينا رجلا سألناه عن منزل الشيخ فأرانا إياه وإذا بالشيخ جالس أمام منزله تحت شجرة أهليلج

ومعه بضعة عشر رجلا من قومه كلهم عراة، أما هو فكان قد علم بقدومنا ولبس الحلة التى أهداها إليه سباركس بك . وبعد أن أخذنا نصيبنا من الراحة سألناه عن الأفيال فقال مر بنا قطيع منها منذ ساعتين ، ثم أرسل غلامين من غلمانه يفتشان عليها فعادا بعد ساعة وقالا إنهما لم يجداها، فقال الشيخ ابق هنا إلى المساء فلابد أن تأتى الأفيال لترد الماء بقربنا، فقلت لابد لى من العودة إلى المعسكر والمبيت فيه طبقاً للأوامر، قال أنا أتوسط لك عند البك فلا يتغير خاطره عليك، قلت إليك فى التونج ، قال أنا شيخ هذا البلد وصاحب الأمر فيه قلت لا بل أنا صاحب الأمر هنا وأن البكباشى بلنوى أمرنى أن أخبرك أنه كثير الشوق إلى رؤية سحنتك فاحضر إلى المعسكر غداً . قال : أشغالى كثيرة لا تسمح، لى قلت نعم هى النوم تحت هذه الشجرة، فضحك ثم وعدنى بالحضور إلى المعسكر وقام ودخل منزله وخرج بعد ذلك وعليه حلة قديمة كان أهداها إليه الكلونل « مرشان » كأنه يرينا أنه فى غنى عن ملابسنا . ثم قدم لنا قرعة فيها قليل من اللبن الحامض فقزت نفسى منه وكان بلال صائماً فلم يشرب شيئاً، أما عبد الجليل فكان جائعاً وعطشاناً فشرب وأصيب بإسهال شديد وبقى طول الطريق يلعن الشيخ وضيافته .

ورأيت أن أسأل القوم شيئاً عن معتقداتهم الدينية فقلت للشيخ هل تعرفون الله خالق هذا الكون ومدبره؟ قال لا ، قلت بماذا تؤمنون إذا قال : نؤمن بمن نسميه « دنغ ديت » أى إله المطر قلت هل تدعونه أو تصلون إليه؟ قال لا قلت أين هو؟ قال لا ندرى ، قلت وأين مصيركم بعد الموت قال نضمحل نحن وسائر المخلوقات وكلنا فى ذلك سواء ، ثم أشار إلى كلب هناك وقال نموت كما يموت هذا الكلب، وحانت بعد ذلك صلاة الظهر فقام بلال وصلى فكانوا ينظرون إليه معجبين، فقلت لهم أتدرون ما يفعل؟ قالوا لا ، قلت إنه يصلى إلى الله خالق السموات والأرض وما عليها، وإنه لم يشرب شيئاً من اللبن الذى قدمتموه لأنه صائم فإننا فى شهر رمضان وهو شهر الصوم عند المسلمين ، فاستغربوا ذلك كثيراً . وكنت أكلمهم بلسان الترجمان لأنهم لا يفهمون العربية . والحلة التى كنا فيها اسمها « لو » وهى كبيرة جداً وبيوتها بين الأشجار، وهى أكواخ مستديرة جدرانها مبنية بالخشب

والطين وسقوفها مخروطة الشكل ومبنية بالخشب وعيدان القنا ومغطاة بالحشيش طبقة فوق الأخرى فلا ينفذمنها ماء المطر مطلقاً . وربما رفعوا أرض البيت على خشبات يغرزونها فى الأرض وقاية من الأرضة والرطوبة فإن الأرضة كثيرة جداً فى تلك البلاد .

ويقتنى الدنكا من الحيوانات الأهلية البقر والضأن والمعز والكلاب . وبقرهم دربانية أى من ذوات الأسمنة ، والضأن عندهم غريب الشكل له شىء كالعرف على عنقه وكتفيه فهو بذلك شبيه بالأروى أى الضأن الجبلى . وكلابهم خليط بين الكلاب البلدية والسلوقية وهى تنبح على البيض فقط لغرابة شكلهم فى تلك البلاد ، وأعجب من هذا أننى رأيت ظليما عند أحد الضباط فى التوفيقية كان يهجم على البيض أما السود فكان لا يلتفت إليهم ولا يؤذيهم . والدنكا لا يذبحون بقرهم بل يأكلون لحمها إذا ماتت وتكاد تكون مقدسة عندهم وغاية ما يتمناه الواحد منهم أن يكون عنده قطيع منها ، فإذا جاء المساء جمع هو وجيرانه ما عندهم من الماشية وأدخلوها فى زريبتها ثم جمعوا روثها وأحرقوه وجلسوا على الرماد يتمرغون فيه ، ولعل هذا التمرغ فى الرماد دليل الغنى بكثرة الماشية .

ولما حان العصر تركنا الحلة وعدنا إلى المعسكر ، ولم نكد نسير بضعة أميال حتى وصلنا إلى غابة من شجر الطلح رأينا فيها أربع زرافات لم يكن بيننا وبينها أكثر من مئة متر فوقفنا نتفرج عليها . وحدثتنى نفسى أن أرمى واحدة منها ، على أننى رأيت ألا لذة فى صيدها أو بالحرى قتلها على هذه المسافة ولا فائدة منها فلا نقدر أن نحمل لحمها ، ولا وقت عندنا لسلخها وأخذ جلدها هذا فضلا عن أن السردار أذن لنا فى صيد ما شئنا من الحيوان إلا الزراف والنعام فأطعت الأمر فى ما يتعلق بالزراف وخالفته فى صيد النعام كما سيجىء لأن الإنسان ضعيف الإرادة فى بعض الأحيان ويقدر أن يخفى ريش النعام أما جلد الزراف فكبير جداً ويصعب إخفاؤه . فتركنا الزرافات وشأنها وسرنا ، وإذا بأربعة تياتل قد اعترضت طريقنا فرميت واحداً منها وحملنا رأسه وشيئاً من لحمه إلى المعسكر والتيتل نوع من بقر الوحش كثير جداً فى تلك البلاد وكان أكثر صيدنا منه .

* * *

سرية اللادوا

وأخذ سباركس بك سرية من العساكر الذين كانوا فى التونج وسار بها جنوباً إلى أن بلغ كرو عاصمة اللاد وكانت تابعة لحكومة الكنغو ، فأحسن البلجيكيون وفادته وأكرموه غاية الإكرام. ثم عاد ومن معه بحراً إلى مكان على ساحل النيل يقال له «شامبى» وسار فى البحر إلى التونج فبلغها فى أول أبريل . وحدث وهو عائد برجاله أن أحد العساكر انقطع عن رفقائه وجلس يستريح فى مكان لا تراه فيه الساقة فلما نزل الجنود للمقيل لم يجدوه بينهم فعاد جماعة منهم يفتشون عنه فوجدوه مقتولا طعناً بالحراب وقد أخذ القتلة ما عليه من أدوات النحاس كالأزرار والأبازيم وما أشبه. وربما كان قتلهم إياه طمعاً فيها . فلما وصل سباركس بك إلى التونج أرسل البكباشى بلنوى ليقتص من القتلة فجمع البكباشى شيوخ تلك الناحية وطالبهم بدم القتيل فجاءوا بالقتلة وعرضوا عليه الديه فرفضها وعقد مجلساً عرفياً جعل الشيوخ من أعضائه فحكم المجلس على المتهمين بالقتل رمياً بالرصاص. ولما جىء بهم لتنفيذ الحكم وجد أن أحدهم قد فر فنفذ الحكم فى الاثنين الباقين وأظن الثالث لا يزال هارباً .

وسار البكباشى جيمس من التونج إلى «واو» ومنها إلى الحصن الذى بناه مرشان على ثلاثة أميال منها وهو فى أحسن موقع هناك. ثم بعد أيام احتلته جنودنا وجعلت حوله زريبة من الخشب والشوك. وأخذت فى إقامة المنازل داخل الزريبة وأطلقنا على المكان اسم « واو » وهو الآن عاصمة البلاد وعامر بالسكان .

من مشرع الريك إلى التونج

وكنت لا أزال فى مشرع الريك والبكباشى بلنوى وأحمد كامل أفندى يسيران منه إلى التونج ذهاباً وإياباً ومعهم الدواب لنقل المؤونة والذخيرة. فقال لى البكباشى بلنوى مرة لعلك سئمت الإقامة هنا فسآخذك معى هذه السفرة لترى البلاد ثم نعود معاً . فاتفقنا على ذلك وبقينا فى المشرع أياماً ننتظر وصول البريد وكان

قد مضى اثنان وخمسون يوماً على سفرنا من أم درمان لم نسمع فيها شيئاً عن العالم . ولما وصلت الباخرة التى تحمل البريد أخذنا رسائلنا وملأنا جيوبنا بها وسرنا للالتحاق بالعساكر والدواب . وكانوا قد سافروا قبلنا بليلة فكنا نقرأ ونحن سائرون لانبالى بالحفر التى نقع فيها أو الأشجار التى نصطدم بها ، وبعد مسير عشرة أميال وصلنا إلى قرية «اللو» التى مر ذكرها فسألنا رجل رأيناه هناك أن يسير أمامنا يدلنا على الطريق فأسرع إلى بيته ثم خرج وعليه ثياب امرأة وسار أمامنا فقلنا له كيف جئت بهذه الثياب قال هى هدية من الإفرنج يريد بهم مرشان وجماعته ، ولعلهم أهدوها إلى امرأته فاغتصبها منها .

ولما كان المساء وصلنا إلى ماء رأينا الجنود قد نزلت عليه للمبيت فبتنا هناك ، ثم قمنا قبل طلوع الفجر وأخذنا فى المسير نحن والجنود والدواب إلى أن كانت الساعة التاسعة ، فقال لنا الدليل إن أمامنا على مسير ساعة بركة ماء يكتنفها الشجر ويحسن بنا المقيل عليها ، فقال لى البكباشى ليسبقنا الجنود والدواب ومعهم الباشجاويش ونقف هنا قليلا نأكل شيئاً ثم نلحق بهم . فجلسنا فى ظل شجرة وبقى معنا أحد الجنود واسمه عبد الرحمن فبعد أن أكلنا ودخن كل منا سيجارته سرنا لنلحق بالعساكر ، فلم نكد نسير ساعة حتى رأينا غصناً أخضر ملقى على الطريق أمامنا فلم ننتبه إلى أنه إشارة معروفة فى تلك البلاد يراد بها أن لايجتازها السائر وكان الدليل قد وضع الغصن ليخبرنا أنهم مالوا عن الطريق إلى بركة الماء التى هناك .

ولما كنا نجهل هذه العلامة اجتزنا الغصن وبقينا سائرين ونحن لا نرى أثراً للعساكر ولم ندر أننا تركناهم وراءنا . وبعد مسير نحو ساعتين عثرنا على أحدهم واسمه محمد القفاص وكان تائها مثلنا لكنه كان فى أشد التعب وقد نفد الماء منه وكان معى فى راويتى بقية من الماء فسقيته قليلا وقلت له إياك أن تميل عن الطريق بل اجلس هنا فاما أن يمر بك العساكر إذا كانوا وراءنا أو نرسل من يأتى بك إذا اهتدينا إليهم . وبقينا نجد فى السير حتى اشتد الحر وبلغ بنا العطش مبلغه . فجلسنا فى ظل شجرة على مقربة من الطريق وإذا القصاص مقبل من بعيد يسير آونه ويجلس أخرى . فلما وصل إلينا انطرح فى ظل شجرة

وهو فى حالة يرثى لها من التعب والعطش وبعد أن أخذ نصيباً من الراحة قام ومشى فقلت له إلى أين قال « حابي » ثم اختفى وراء الشجر ولما لم يرجع قمت أفتش عنه فإذا به قد أخرج حربة بندقيته « السونكى » وأخذ يحفر بها فى الأرض فقلت ماذا تعمل قال أحفر لعلنى أجد ماء قلت قم لا ماء هنا . والمكان الذى حفر فيه جئت إليه بعد أيام وحفرت فيه بئراً عمقها ٤٢ قدماً دون أن أصل إلى الماء .

واشتد بنا العطش كثيراً وكانت الشمس قد أوشكت أن تغيب فحننت إلى جبل لبنان وتاقت نفسى إلى شربة ماء من نبع حين وهو يتدفق من تلك الحجارة البيضاء، فأخذت أصفه للبكباشي بلنوى وقلت حبذا شربة ماء منه أو على الأقل من السبلندديا فى مصر ، هذا إذا لم نقل زجاجة مثلجة من مياه روسياك قال كفى فقد زدتنى عطشاً . ولم ينته من كلامه حتى رأينا الجنود مقبلين يتقدمهم حمارى وعليه قربتان من الماء العكر الآسن فكدت أن أنسى حنين وماءه البارد العذب . أما القصاص فشرب شربة لا أظنه ينساها .

الحراج فى بحر الغزال

ولا أسهل من أن يضل المسافر فى تلك البلاد فكلها سهول منبسطة لا يرى فيها أكمة قط لكن فى بعض الأماكن شيئاً من الهبوط والارتفاع فإذا نزل المطر اجتمع الماء فى الأماكن المطمئنة مصارت مستنقعات كبيرة جداً . ولا معالم تميز المكان الواحد عن الآخر فالأماكن كلها متشابهة والأرض مغطاة بالعشب والحراج كبيرة جداً وهى ملتفة الأشجار ضيقة المسالك يسير فيها المسافر أياماً بلا انقطاع . ويطول العشب فى فصل المطر حتى يبلغ أغصان الشجر فيختفى الفيل الكبير وراءه . لا يرى على بضع خطوات منه ومتى جاء فصل القيظ وهو فى تلك البلاد من شهر نوفمبر إلى شهر مارس جف العشب وأحرقه الناس أو احترق من نفسه باحتكاك الأغصان اليابسة بعضها على بعض وامتدت النار مئات من الأميال واحترق الحشيش كله ولم يبق غير الشجر . وقد كان سيرنا

هذه المرة فى فصل القيظ بعد احتراق العشب وكان العشب الجديد قد ارتفع قليلا فبلغ طوله فى بعض الأماكن نحو الذراع والشجر هناك ضروب وألوان لا يعرف لأكثرها أسماء عربية لكن بعضه ينبت فى بلاد العرب والسودان العربى كالطلح والسلم والهشاب . وغيرها من أنواع السنط وهى أشجار كبيرة شائكة من الفصيلة القرنية كان العرب يسمونها العضاة وهى كثيرة جداً فى السودان ولايزال عرب السودان يعرفونها بأسمائها العربية التى كثر الشعراء من ذكرها . منها الطلح الذى قال فيه المعرى :

وأبغضت فيك النخل والنخل يانع وأعجبنى من حبلك الطلح والضال

الضال ضرب من السدر أما الطلح فأعظم العضاة المعروفة فى بلاد العرب له شوك ضخام طوال . ونور أصفر طيب الريح وفى السودان صنفان منه الأحمر والأبيض ومنها السمر وفيه يقول امرؤ القيس :

كأنى غداة البين حين تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل

ومنها السلم ويصنع منه أهالى السودان عصياً عقفاء كثيراً ما نراهم يحملونها فى مصر وبه سمى ذو سلم فى الحجاز الذى قال فيه الشاعر :

وهل أراك على وادى الأراك وهل يعود تسليمنا يوماً بذى سلم

ومنها القتاد ويقال له الهشاب فى السودان ويعرف منه صنفان فى بلاد العرب أحدهما شجر كبير شائك والآخر قضبان مجتمعة كل قضيب منها ملآن ما بين أعلاه وأسفله شوكاً وفى المثل . . من دون ذلك خرط القتاد .

ومنها السنط وهو أشهرها فى بلاد العرب وثمره القرظ يدبغ به لكثرة ما فيه من المادة العفصية وبه سمى القارظان وهما رجلان من عنزة خرجا فى طلب القرظ فلم يرجعا فضرب بهما المثل فقالوا لا يأتيك أو يؤوب القارظ

ولا يزال أهالى السودان يدبغون بالقرظ ويخرجون لجمعه ويسمونه القرظ أو القرض ويستخرج الصمغ العربى المعروف بالأقاقيا من هذه الأشجار كلها وأجوده صمغ الهشاب ثم الطلح ثم السنط وقد كان القدماء يستخرجونه من السنط

فقط وله فى بلاد السودان تجارة واسعة وهو من أهم صادرات البلاد وللحكومة عناية كبيرة بأشجاره وقد سنت نظماً لحمايتها وبعض هذه الأشجار تنبت فى الشام لا سيما فى غور أريحا وهى السيال والسمر والطلح أما القتاد أو الهشاب فخاص باليمن والسودان المصرى والسودان الفرنسوى .

ومن أشجار بحر الغزال الحمر أو التمر الهندى وأهل السودان يتداوون به ويسمونه العرديب وكثيراً ما تألفه القرود وتأكل ثمره وهو معروف فى اليمن .

ومنها أشجار المطاط أى اللستك وهى أربعة أنواع فى تلك البلاد أحدها نوع من التين كبير جداً بين التين والجميز والتين الهندى يرسل من أغصانه عروقاً تنبت فى الأرض كما تنبت عروق التين الهندى وله ثمر يؤكل يشبه ثمر الجميز لكنه يخرج متفرقاً بين الأوراق كالتين لا عناقيد على الأغصان الكبيرة كالجميز والأنواع الأخرى من شجر المطاط لا أسماء عربية لها وهى عصبات أى أشجار متسلقة تنمو على غيرها من الشجر ويستخرج المطاط منها بأن تخرج بفأس ويلتقط ما ينزل منها من اللثى ويكون لثاها مائعاً عند نزوله ثم يجمد .

ومنها شجرة تعرف عند عرب السودان باللؤلؤ وهى من الأشجار التى يستخرج منها الكوتابرخا لها ثمر يؤكل يشبه التفاح فى طعمه لكنه ليس فى حلاوته داخله نوى يعصر منها زيت طيب الطعم كنا نفضله على كل الزيوت ما عدا زيت الزيتون وربما كان اللولو شجر الريكان الذى ذكره الدمشقى فى وصف بلد السودان فإن وصفه له يشبه وصف هذا الشجر .

والمرخ والعفار نوعان من الشجر يقتدح بها ولا يزال المرخ يعرف باسمه هذا فى السودان العربى وفى بلد العرب وغوراريحا وقد رأيت السود يخرجون النار منه كما تفعل العرب وطريقتهم فى ذلك لا تختلف عن طريقة هؤلاء قط وأحسن وصف لها رأيته فى كتاب بلوغ الأدب فى أحوال العرب للسيد محمود شكرى الألوسى من علماء بغداد خاصة كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى .

ومنها الأراك وهو شجر يستاك به أى تتخذ من فروعه وعروقه هذه المساويك لتنظيف الأسنان قال الشاعر :

تخـــير من نعمان عود أراكه ‏ ‏ ‏ لهـــند ولكن من يبلغـــه هندا

أراد الشاعر بنعمان موضعا قرب مكة كثير الأراك يقال له نعمان الأراك قيل إنه من مواقف عرفه .

والأراك كثير جداً فى السودان ومصر و بلاد العرب وغورار يحا وهو من مراعى الإبل والماشية قيل إنه يجعل لبنها طيب الرائحة .

ومنها السدر وثمره النبق وهو شبيه بالعناب وكنا نأكله و يظن بعض الباحثين أنه اللوطس و به سميت قبيلة فى برقة زعم اليونان أن طعامها النبق فسموها لوظوفاغوى أى أكلة النبق . وقد ذكر هوميروس فى الأوذيسية أن عولس لما وصل إلى تلك البلاد وأكل رجاله النبق نسوا بلادهم وأبو العودة إليها وقد كان اليونان والرومان يزعمون أن أكل النبق ينس الإنسان أهله ووطنه . ويقال أيضاً إن إكليل الشوك الذى وضع على رأس المسيح كان من السدر لذلك يسميه الإفرنج شوك المسيح . والسدر كثير فى بلاد السودان كلها وفى مصر وفى بلاد العرب وغور الأردن إلى بانياس شمالا .

ومنها التنضب وهو نوع من الكبر (القبار فى الشام) له شوك وثمر مثل العنب يؤكل وهو أحمر التنضب كثير فى السودان والحجاز وغوراريحا فى مكان يعرف بسيسبان ويعرف فى هذه الأماكن كلها باسمه هذا .

ومنها الأهليلج السودانى والهيلج بلغة أهل السودان وهو شجر كبير شائك من فصيلة الأزادرخت له ثمر كالعنب أخضر شديد المرارة فإذا نضج اصفر لونه وصار فيه شىء من الحلاوة فيأكله السود إذا عضهم الجوع ويتداوون به من الحمى وفيه بعض الخواص التى فى الأهليلج الهندى المعروف عند الأطباء وينبت الأهليلج السودانى فى مصر وبلاد العرب وغوراريحا ويعرف فى فلسطين بالزقوم ويستخرج منه أهالى أريحا وهنا يقال له دهن الزقوم يتداوى به وزعم بعضهم أن بنى أمية غرسوا الأهليلج الكابلى فى فلسطين فتغير بطول الزمن وصار زقوماً . والحقيقة أن الزقوم أى الأهليلج السودانى خلاف الأهليلج المعروف عند الأطباء فهذا ثمر هندى يؤتى به من عدة أنواع من الشجر تنبت فى الهند وأفغانستان منها الأهليلج الكابلى الذى يؤكل الأهليلج الأسود المعروف عند عامتنا بالهندى شعيرى لكنه لشدة الشبه بين هذه الأثمار أطلق أهالى السودان اسم

الأهليلج على الزقوم وزعم بعضهم أن الزقوم هو الأهليلج الكابلى .

ومن أشجار بحر الغزال شجرة يسميها عرب السودان أم الشطور وهى من كبار الشجر يتدلى منها ثمر كثير جداً يشبه اللوف لكنه شديد الصلابة ربما شج رأس الإنسان أو سقط عليه . وفى حديقة الأزبكية شجرة منه مجلوبة من تلك البلاد يراها الداخل من الباب الجنوبى مقابل دار الأوبرا .

ومنها الأبنوس السودانى وهو كثير هناك . وضرب من الماهوغنى يسميه عرب السودان الحمراية والدليب وهو شبيه بالدوم . والعشر وهو نجم عريض الورق يحمل تفاخات كبيرة داخلها شىء كالحرير تحشى به الوسائد وهو كثير فى السودان ومصر وبلاد العرب وغواريحا وحيث يكون العشر والمرخ والدوم والدليب يكون الماء قريباً من سطح الأرض . والعشر يقتدح به كالمرخ وهما من فصيلة واحدة . وهو مشهور عند العرب كانوا يستمطرون به فى زمن الجاهلية فإذا احتبس الغيث ربطوا العشر ونبتاً آخر اسمه السلع بأذناب البقر وحدروها من الجبال وأشعلوا النار فى السلع والعشر ومنه قول الشاعر :

لا در در رجال خـــاب سعيهم — يستمطرون لدى الأزمات بالعشر
أجاعل أنت بيقورا مســلعة — ذريعــة لك بين الله والمطر

ومنها نوع من الغربيون أى اللبانة وهو شبيه بالصبر ينبت صعداً فى الهواء ويخرج منه لبى أبيض كاللبن إذا وضع على الجلد أحدث فيه التهاباً شديداً فيفرز السود سهامهم فيه فيسمها بما يعلق عليها من لثاها لكن سمه موضعى ومتى جف على النصال خف فعله كثيراً ومنها عود القنا وهو كثير جداً فى بعض الأماكن والجوغان وهو نوع من الأبنوس والزيتون وهو نوع من الساج أى خشب التلك وله ثمر يؤكل وغير ذلك من الأشجار المختلفة .

والحراج متسعة جداً وهى فى الأماكن أدغال مشتبكة الشجر يتعذر السير فيها . والطرق التى كنا نسير عليها ليست سوى مداعس ضيقة طرقتها أقدام السلة بين العشب والشجر لا تكاد ترى على بعد خطوات قليلة فإذا جاء المطر نبت فيها العشب أو محا السيل آثارها . وكان سيرنا هذه المرة سريعاً جداً فلم نصب

من الصيد إلا أربعة ثياتل . وبعد مسير سبعة أيام قطعنا فيها مئة وعشرين ميلا على أقدامنا وصلنا إلى التونج فنزلت فيها ضيفاً على صديقى الدكتور نجيب شديد .

أفراس النهر

وبقينا فى التونج أياماً قلائل طلباً للراحة ثم قفلنا عائدين إلى مشرع الريك ومعنا دواب النقل . وبعد أن قطعنا نحو ثلاثين ميلا وصلنا إلى نهر صغير يكاد أن يكون جافاً لكننا رأينا فيه بطيحة قد اجتمع فيها عدد كبير من أفراس النهر فوقفنا نتفرج عليها وهى تغطس فى الماء ثم تعود إلى سطحه وترفع رءوسها لاستنشاق الهواء وكانت الإناث حاملة صغارها على ظهورها ومنظرها من أجمل المناظر التى رأيناها فى تلك البلاد . ثم وقفنا على جرف رأينا تحته فرساً كبيراً تدل هيئته على أنه ذكر ولم يكن بيننا وبينه أكثر من خمسة عشر متراً فطلب منا الأهالى أن نقتله فقتلناها وتركناها فى الماء فنزلوا بعد انصرافنا وحملوه إلى البر وأخذوا لحمه .

وأفراس النهر كثيرة جداً فى تلك البلاد وقد كانت كثيرة فى مصر لكنها انقرضت منها منذ ثلاث مئة سنة قتل آخر واحد فى فرع دمياط سنة ١٦٠٠ ويندر أن يرى واحداً منها الآن شمالى الخرطوم .

ويظن بعض علماء التوراة أن فرس النهر هو البهيموت الذى ورد ذكره فى سفر أيوب قال « انظر إلى بهيموت الذى صنعته معك أنه يأكل الخضر مثل البقر . قوته فى متنيه وشدته فى عضل بطنه يشول بذنب كالأوز وأعصاب فخذيه مجبوكة . عظامه قضب من نحاس وغضاريفه حديد مطرق . فالجبال تخرج له الرتعة وحوله تلعب جميع الوحوش . يربض تحت السدر وفى ستر القصب فى المستنقع . يخيم عليه السدر بظله ويكتنفه صفصاف الوادى إن طغى عليه النهر لم يجفل . هو مطمئن ولو اندفق الأردن فى فيه (أيوب ٤٠ — ١٠ — ١٨) فهذا الوصف ينطبق تمام الانطباق على فرس النهر الذى لا يزال حتى الآن يربض تحت السدر وراء القصب فى مستنقعات أواسط إفريقية ولا يستبعد أنه كان موجوداً

فى الأردن حيث يكثر السدر والقصب أو فى بحيرة الحولة كما أشار إلى ذلك الأب لامنس اليسوعى فى كتابه « تسريح الأبصار فى ما يحتوى لبنان من الآثار » أما وصف هذا الحيوان بكثرة أكل العشب فلا يعرف مقداره من الصحة إلا أهالى السودان فإنه إذا خرج ليلا على زرعهم أتلف الزرع فى فدان من الأرض أو كثر من ذلك وقد قيل لى أنه يأكل فى ليلة واحدة زراعة ربع فدان من الذرة .

وأهالى السودان يأكلون لحمه فإذا أظفروا بواحد منه وقتلوه ربطوه بحبل وجروه إلى ضفة النهر ثم قطعوا لحمه قددا وجففوه فى الشمس أو أضرموا النار وغرزوا خشبات حولها ونشروا القدد عليها ودخنوها . أما الجلد فثخين جداً يقدونه قطعاً طوالا ويصنعون منها هذه العصى والسياط التى يقال إنها مصنوعة من أذناب الفيلة وهى فى الحقيقة من جلد هذا الحيوان .

الأفيال

وبعد مسير أربعة أيام وصلنا إلى بركة ماء فنزلنا عليها للمقيل ولما مالت الشمس إلى المغيب أخذت بندقيتى وخرجت من المعسكر فى طلب الصيد إلى مكان مرتفع وقفت عليه وأخذت أجول ببصرى لعلى أرى صيداً فى السهل أمامى وإذا رجل من الأهالى قد جاء إلى وأخذ يشير بيده إلى غابة تبعد عنى نحواً خمسمائة متر فالتفتت وإذا بفيلان كبيران جداً يسيران الهوينا فلم أكد أصدق نظرى لشدة الفرح فأفهمت الرجل بالإشارة أن يسرع إلى المعسكر ويخبر البكباشى بلنوى وبقيت واقفاً أرقب الفيلين حتى اختفيا وراء الشجر . ولم تكن إلا بضع دقائق حتى جاء البكباشى مسرعاً ومعه المستر سيرس الجاويش الإنكليزى فمشينا نحن الثلاثة إلى الجهة التى سار فيها الفيلان فرأيناهما قد نزلا فى خور يشربان ويغتسلان وكانت الشمس قد غابت فأخذنا نزحف على بطوننا حتى صرنا على ثلاثين متراً منهما ولم يمكننا التقدم أكثر من ذلك لأنه لم يبق شىء بيننا وبينهما نستتر وراءه . ثم جلسنا نستريح واتفقنا أنه إذا هجم الفيلان علينا لا نحاول ردهما بل يختبئ كل منا فى أى مكان يراه موافقاً . ولا سبيل للنجاة من الفيل

إذا هجم إلا بهذه الطريقة لأنه قصير البصر جداً لكنه قوى الشم متى كان تحت الريح أما سيره فأسرع من سير الإنسان كثيراً . ولا يمكن رده بإطلاق الرصاص عليه مواجهة ما لم يصبه الرصاص فى ركبته ويصعب ذلك فى مكان كثير العشب لأن ركبة الفيل لا تعلو كثيراً عن الأرض فيخفيها العشب ثم انتقينا أكبر الفيلين وقال لى البكباشى لِنَنْصُوب بنادقنا نحن الثلاثة جاعلين غرضنا من الفيل بين صماخ أذنه وعينيه واضرب أنت أولا لأنك صاحب الصيد ونحن نتبعك قلت لا بل أضرب أنت أولا لأنك أسد رماية منى وغايتنا قتل هذا الفيل فاتفقنا على ذلك وأطلقنا الرصاص ثلاث دفعات أى أن كل واحد منا رماه بثلاث رصاصات فرفع الفيل خرطومه وأخذ ينظر إلى الجهة التى سمع الصوت منها ثم حول وجهه وولى هارباً لا يلوى على شىء ودخل أجمة فى الجانب الآخر من الخور واختفى فيها وتبعه الفيل الآخر . ثم سمعنا صوتاً عن شمالنا كصوت الأبواق فالتفتنا وإذا قطيع من الأفيال يبلغ عددها نحو الثلاثين وهى رافعة خراطيمها فوق رؤوسها ومسرعة إلى الغابة . وكان الظلام قد خيم فعدنا خائبين ولا أدرى أينا كان أشدنا غيظاً وقد توسلت إلى البكباشى بلنوى أن نبقى هناك إلى اليوم التالى ونقتفى أثر الفيل ونجهز عليه إذا كان لم يزل حياً فأبى وقال إن بقاءنا هناك يؤخرنا عن الوصول إلى المشرع فلا تصل المؤونة إلى التونج فى الوقت المعين قلت دعنى أبقى أنا وحدى قال أنا المسؤول عن سلامتك ولا أقدر أن أسمح لك بالبقاء . ولم يكن البكباشى بانوى أقل منى أسفاً لضياع هذا الفيل لكنه على شدة ولعه بالصيد كان يرى أن إيصال حمل واحد من المؤونة إلى التونج أهم كثيراً من صيد عشرة أفيال . وقد لقيت كثيرين من الضباط ذوى النشاط والهمة لكننى لم أر مثل البكباشى بانوى فى صدق حذوته وشدة غيرته على مصلحة الحكومة وتفانيه فى قضاء الواجب إلى أن مضى لسبيله مع من مضى من رفقاء تلك الرحلة .

ووصلنا بعد يومين إلى بركة ماء فنزلنا عليها وكان الحر شديداً فجلست فى ظل شجرة على حافة الماء ثم جاء أحمد كامل أفندى وجلس معى ووضعنا أمتعتنا هناك ونمنا فلما مضى هزيع من الليل جاء محمد أفندى أمين وأيقظنى

وقال قم وانظر فقمت وإذا فيلان هائلان فى البركة أمامنا لا يبعدان عنا أكثر من عشرين متراً ، وأراد أمين أفندى أن يوقظ كامل أفندى فقلت له دعه نائماً لأنه تعب جداً اليوم ووقفنا ننظر إلى الفيلين بقدر ما يسمح لنا ظلام الليل وكانا يشربان . ثم أخذا يخوضان الماء كأنهما يريدان الانصراف أو التقدم إلى جهتنا فخفت أن يمر من المكان الذى كان كامل أفندى نائماً فيه فأيقظته وأخذت بندقيتى وذهبت إلى المكان الذى كان فيه البكباشى بلنوى فرأيته واقفاً وبندقيته فى يده فقلت له ما رأيك قال ليس من الصواب أن نطلق الرصاص عليهما فى هذا الظلام الدامس وأخاف أننا إذا فعلنا ودخل فيل منهما بين العساكر واختلط الحابل بالنابل أن يصيب العساكر بعضهم بعضاً أو يعثر أحد الفيلين بجندى نائم فيقتله . فتركناهما وشأنهما وهما لا يباليان بلغط العساكر وكانوا قد استيقظوا من نومهم فشربا حتى ارتويا ثم انصرفا آمنين .

وربما كان بعض الكلام فى وصف الفيل الأفريقى لا يخلو من فائدة فى هذا المقام فلايخفى أن الفيل نوعان هندى وأفريقى وأكثر الفيلة التى نراها فى حدائق الحيوان هندية . والفرق بين الاثنين أن الهندى أصغر جثة وأكثر ذكاء من الأفريقى . وهو ألين عريكة وأسهل انقياد أما الأفريقى فشرس جداً وأصعب مراساً وأكبر جثة يبلغ علو الكبير منه اثنى عشرة قدماً عند كتفيه .

ويختلف الأفريقى عن الهندى أيضاً بكبر الأذنين وطول النابين وضخامتهما ففى المتحف البريطانى ناب فيل أفريقى طولها عشر أقدام وعقدتان ووزنها ٢٢٦ ليبرة وأظنها إحدى النابين اللتين ذكرتهما فيما سبق . وفيه ناب فيل هندى طولها ثمانى أقدام وتسع عقد ووزنها ٩٠ ليبرة وهى أطول الأنياب الهندية هذه أهم الفروق بين الفيلين الأفريقى والهندى . وقد كان القدماء يذللون الفيل الأفريقى ويقاتلون به كما كان الهنود يقاتلون بالفيل الهندى فكان البطالسه يأتون بالأفيال من شرق أفريقية وقد قاتل بها القرطاجنيون فى حروبهم المشهورة مع الرومانيين وآخر من حاول إذلال الفيل الأفريقى إسماعيل باشا الخديوى الأسبق فإنه أرسل فيلين من الأفيال الهندية إلى الإسماعيلية المعروفة الآن بقوندوكورو وذلك لعليم الأفيال الأفريقية وتربيتها ووصلنا إلى مشرع الريك

فى الثامن من شهر فبراير ووصلت الباخرة التى تحمل البريد من أم درمان فى اليوم نفسه فأخذت رسائلى وجلست فى خيمتى أقرأها وكان فى المحطة علمان مرفوعان دائماً وهما العلم العثمانى والعلم الإنكليزى فألتفت وإذا بالبكباشى بلنوى يخفضهما فسألت عن الخبر فقيل لى إن البريد جاء ينعى الملكة فكتوريا وكانت وفاتها فى الثانى والعشرين من شهر يناير فلم نعلم بها إلا بعد مضى سبعة عشر يوماً .

واتفق بعد وصولنا إلى مشرع الريك ببضعة أيام أن جماعة من السود وجدوا فيلا ميتا فأكلوا لحمه وحملوا نابيه إلى المشرع يريدون بيعها وكان اللحم لايزال عليهما فقال لى أحد الضباط لعل هذا الفيل فيلكم الذى رميتموه بالأمس فسألت الجماعة فقالوا إنهم عثروا عليه فى مكان لا يبعد كثيراً عن المكان الذى رميناه فيه ثم عادوا وقالوا إنهم وجدوا حربة مكسورة فى بطنه ثم أنكروا ذلك وادعوا أنه صيدهم . ورأيت من العبث أن أقف منهم على الحقيقة فحاولت أن أفهمهم أن الخلاف ليس بيننا وبينهم بل بيننا وبين الحكومة فإذا كان هذا الفيل صيدنا أمكننا أن نشترى النابين منهم بالثمن الذى نتفق عليه وإذا كان صيدهم اشترتهما الحكومة ولم نستطع نحن أن نشتريهما . ثم رأى البكباشى بلنوى أن الأدلة عندنا تثبت أن الفيل فيلنا فاشترى النابين للحكومة ودفع الثمن خرزاً ونحاساً وأنسجة وكان وزنهما ١٨٠ ليبرة وثمنهما فى أم درمان نحو ٩٠ جنيهاً .

فصل الجفاف وكثرة الصيد والضباع

وكان فصل الجفاف قد بلغ أشده ونحن فى شهر فبراير فنضبت المياه فى الآبار والفيران والمستنقعات الصغيرة وصارت الحيوانات تأتى إلى الأنهار لترد الماء فكثر الصيد فى مشرع الريك وكانت الثياتل تختلط بالحمير وهى ترعى خارج المعسكر فكنا نصيدها على أهون سبيل وهى آمنة ودخل مرة قطيع منها إلى جزيرة متصلة بالبر فرميت أربعة منها قبل أن وجدت منفذاً تخرج منه وكان وزن الكبير منها مئة أقة . وكنت مرة مع أحد الضباط فرمى ثيتلا أصابه الرصاص

فى إحدى قوائمه وكان من النوع المعروف بالدمدم فسحقها سحقاً وفر الثيتل ولم نقف له على أثر وظننا أنه لا يعود إلى تلك الناحية مهما بلغ منه العطش ولا يرى وجهه لأحد من البيض لكن لم يمض على ذلك شهر حتى رأيناه مقبلا إلى المشرع وهو يخمع فى مشيه ووراءه اثنتان من زوجان وكانت الحمير ترعى خارج المعسكر فدخل بينهما فرميته فسقط وإذا هو بالتيتل الذى جرحناه بالأمس وكان عظمه قد جبر ساقه قد ضمدت لقلة الاستعمال .

وكثرت الضباع حولنا فكانت تقتحم المعسكر ليلا وتأكل ما تعثر عليه وقد أكلت مرة حبلا من الجلد وعظاماً جافة وورقة من جلد الجاموس اختطفتها من خيمتى . ولا أدرى أيها أكثر عدداً وأشد وقاحة وأكلب على الجوع أضباع كسلا أم ضباع مشرع الريك . وقد كان لضباع كسلا ناد قرب منازلنا تجتمع فيه معظم الليالى وتحرمنا لذة النوم لا سيما إذا عثرت على بعض العظام واشتد اللجاج والنزاع بينهما بسببها .

والضبع فى السودان نوعان الضبع المخططة وهى عرفاء ومثل الضبع الأسيوية تماماً والضبع الرقطاء وهى أكبر جثة ولا عرف لها وكلتاهما على جانب عظيم من الجبن .

حفر الآبار

وطلب منى البكباشي بلنوى أن أتعهد الآبار التى بين مشرع الريك والتونج وأنزحها حيناً بعد آخر وأحفر آباراً جديدة فى بعض الأماكن فكنت أستصحب معى كل مرة جماعة من العساكر وأغيب بضعة أيام وأعود إلى المعسكر ولم يكن فيه من المرضى ما يوجب بقائى فيه دائماً . ونزلت مرة على بئر وكان هناك رجل من السود معه قطيع من الغنم فقلت له بعنى خروفاً فقال أنا فقير لا أملك شيئاً قلت لمن هذه الخرفان إذاً قال هى لرجل ذهب فى حاجة وقد تركها هنا فقلت هل لك أن تسير معنا وتدلنا على البركة التى أمامنا وتأخذ أجرتك فالتفت إلى قطيع الغنم وقال لا أقدر أن أترك غنمى وأسير معكم ثم انتبه لنفسه وضحك إما أن تبيعنا خروفاً أو تسير معنا ففضل السير معنا وأوصى

امرأته بخرفانه فى غيابنا .

وأسرينا تلك الليلة حتى وصلنا إلى بركة الماء وهى فى مكان يقال له مركوك فأخذت أحفر بئراً فى مكان غير بعيد عنها وكان الماء فى البركة قليلا جداً والغنم والماشية ترده كل يوم وأقرب ماء بعده يبعد نحو خمسة عشر ميلا فخفت أن يجف الماء فى البركة قبل الانتهاء من حفر البئر فقلت لكبير القوم النازلين هناك وكان شيخاً هرماً كم يكفيكم الماء الذى فى البركة قال يومين أو ثلاثة قلت ماذا تفعلون بعد ذلك قال نرحل إلى مكان آخر قلت هذا الماء يكفى العساكر الذين معى أسبوعين ونحن نحفر بئراً لنستقى منها وتستقوا أنتم السنة كلها فحبذا لو ارتحلتم الآن وتركتم الماء لنا وحدنا فإنكم راحلون لا محالة بعد ثلاثة أيام على الأكثر . قال الماء لنا ولأجدادنا من قبل ولا نتركه . قلت نحن لا ننازعكم ملككم قال بلى ويظهر لى أنكم لا تختلفون عن النخاسين الذين كانوا يغزون بلادنا قبلكم قلت نحن فى بلادكم منذ ثلاثة أشهر ولم يعتد أحد منا عليكم وقد جئنا إلى هذه البلاد لإصلاح حالكم ورفع الظلم عنكم ومنع الغزو بينكم فلا يقتل بعضكم بعضاً ألا ترى فرقاً بيننا وبين النخاسين . قال نحن فى غنى عنكم وعن إصلاحكم المزعوم فقد عشنا فى هذه البلاد التى عاش فيها أجدادنا قبلنا وهم يغزون بعضهم بعضاً ويقتتلون فاتركونا وشأننا ولا رغبة لنا فيكم . ثم أخذ يرتعش وقال أتعلم أن طربوشك الأحمر هذا مصبوغ بدم أولادى . فقلت فى نفسى من يدرى المصائب التى توالت على هذا الرجل وهو مقيم فى هذا المكان على طريق القوافل بين مشرع الريك وداخل البلاد فأخذت ألاطفه وأغريه حتى أقنعته أننا لم نأت للقتل والنهب وقلت له إن الماء له فإذا شاء بقى وإذا شاء ارتحل واتفقنا أنه يرتحل بقومه وغنمه وماشيته فى اليوم التالى بعد ورود الماء .

مرض الأينهم

ومر بنا ونحن هناك أحد المهاجرين الذين قدموا معنا من أم درمان وكان معه رجلان فلما رآنى قال كنت مسافراً إلى مشرع الريك لأريك ابن عمى

وأظنه مصاباً بالجذام وقد جئت بهذا الخروف هدية إليك قلت أنت أحق منى بالهدية لأنك قد أريتنى مرضاً لم أره قبلا . وكان الرجل مصاباً بداء خاص بالسود يقال له « الأينهم » ولم أره إلا فى هذا الرجل وفى رجل آخر فى كسلا وهو اختناق فى أصابع القدم وأكثر ما يصيب الخنصر فى قدم واحدة أو فى القدمين معاً ثم تسقط الإصبع بعد زمن ويعقبه اختناق وسقوط فى أصبع أخرى وربما امتد إلى المشط وسائر أجزاء القدم وهو شبيه جداً بالجزام لكنه على الراجح داء آخر ولا تزال أسبابه مجهولة وقد روى الدكتور ده برن من أساتذة المدرسة الطبية الفرنسوية فى بيروت أنه رأى إصابتين فى المستوصف الفرنسوى فى بيروت وهى أول مرة عثر عليه بين البيض فى ما أعلم .

الذباب والأمراض التى ينقلها

ذكرت أنه كان معنا عند وصولنا إلى بحر الغزال سبعة وثمانون حماراً وسبعة بغال وحصان واحد أما الحصان فمات بعد وصولنا ببضعة أيام ثم أخذت الحمير تموت الواحد بعد الآخر حتى فنيت كلها قبل مضى ستة أشهر وسبب موتها داء يصيب الحيوانات فى تلك البلاد يقال له مرض البهائم وهو حقيقة أكثر من داء واحد سببه احياء صغيرة شبيهة بالأحياء التى تسبب داء النوم فى الإنسان. وهذه الأمراض ليست خاصة ببحر الغزال بل منتشرة فى أكثر أنحاء السودان وفى جنوب أفريقيا وفى الجزائر حيث تصاب الإبل بمرض يقال له داء الذباب ولا يزال بعض هذه الأمراض غامضاً والحكومة مهتمة بها اهتماماً كبيراً وتسمى الأحياء التى تسببها تريبانوساماى الثاقبة للجسم فى داء النوم سببه نوع منها وينقله نوع من الذباب يعرف بذباب داء النوم ولم نعثر عليه مدة إقامتنا هناك على أنه عثر عليه بعد ذلك فى بعض أنحاء بحر الغزال وحدثت إصابات بداء النوم فى الجهات الغربية والجنوبية منه . وهناك نوع آخر من الذباب يعرف بذباب مرض البهائم هو شبيه بذباب داء النوم وأكثر منه انتشاراً وينقل مرض من الأمراض التى تصيب الماشية والدواب وربما نقل داء النوم أيضاً ومنها ذباب أيضاً يعرف بالسروت والشعراء وهو أنواع كثيرة لسعه مؤلم جداً وينقل بعض الأمراض إلى الإبل والدواب.

فى عرين الأسد

وتركت الجنود فى مركوك يحفرون البئر وعدت إلى المشرع وكنت أتفقدهم حيناً بعد آخر واتفق مرة وأنا هناك أن البكباشى هيمس مر بى فى طريقه إلى المشرع فقال مالى أراك هنا قلت أحفر بئراً قال هل وجدت ماء قلت لا قال دع البئر وشأنها وعد معى إلى المشرع قلت هذا ما أتمناه وجلسنا نتحدث فقلت له هل صدت الفيل فى هذه الرحلة قال لا قلت هل لقيت الأسد قال نعم وقد قتلت لبوة وهاك جلدها على الحمار ثم أخذ يقص علىّ كيف اصطادها فقال أقمت بضعة أيام فى واد وكانت الأسود تزأر كل ليلة وقت العشاء على مقربة منا والنهر بيننا وبينها فعبرت النهر يوماً وصنعت عرزالا فى شجرة هناك وكنت أذهب كل يوم نحو الغروب وأربط جدياً بجزع الشجرة وأجاس فى العرزال إلى منتصف الليل فلم أكن أسمع إلا ثغاء الجدى وزئير الأسود وهى لاتخرج من الأجمة لافتراسه فعدلت عن هذه الطريقة وتركت جماعة يترصدون الأسود نهاراً فجاءوا مرة وأخبرونى أن لبوة صادت بقرة وحشية من النوع المعروف بأبى عرف وحملتها إلى الأجمة وكانت الأجمة كثيفة مشتبكة لا يمكن الدخول إليها من مكان ضيق جداً وهو المكان الذى دخلت منه اللبوة فدخلت منه زحفاً على بطنى ولم أكد أدخل حتى خرج أسد من ورائى لكننى لم أره بل رآه الرجال الواقفون خارج الأجمة ولم أزل أتقدم حتى وصلت وسط الأجمة وإذا اللبوة فوق فريستها فلما رأتنى زمجرت ووثبت على وثبة واحدة ولم تكن المسافة بيننا أكثر من خمس عشرة قدماً فرميتها بالرصاص قبل أن تصل إلى فسقطت أمامى فهززتها برأس البندقية وكان لم يزل فيها طاقة أخرى فإذا هى ميتة لأن الرصاص أصابها فى جبهتها . ثم ناديت الجماعة فدخلوا وحملوها خارج الأجمة وأخرجوا البقرة الوحشية وأكلوا لحمها وهاك رأسها على الحمار مع جلد اللبوة .
فلما انتهى من كلامه قلت له لقد اقتحمت الأسد فى عرينه واستخلصت فريسته

منه وهذا يذكرنى بأحد أمراء العرب وقد هاج الأسد عن فريسته فهجم عليه الأسد فضربه بالسوط :

أمعفــر الليث الهزبر بســوطه　　لمن ادخرت الصــارم المصقولا

وترجمت له البيت فأعجبه كثيراً وقال الشعر حسن جداً لكن فيه شيء من المبالغة ولا أصدق أن هذا الأمير الذى تذكره ضرب الأسد بالسوط ، قلت كان الجيش محيطاً وأنقذه منه ثم رويت له بعض أبيات بشر بن أبى عوانة فى الأسد . ومنها قوله :

وأطلقت المهند من يمينى　　فقد له من الأضلاع عشرا

وقلت له إن بشراً قتله بالسيف قال إنى أصدق ذلك فإن كثيرين من عرب السودان يقاتلون الأسد بالسيف ويقتلونه لكن ضربه صاحبكم بالسيف طولا أو عرضاً حتى قد له عشر أضلاع قلت أظن القافية حكمت عليه فجعل الأضلاع عشراً .

أما عرب السودان فكثيراً ما يقتحمون الأسد بالسيف والدرقة فقط وبعض الفتيات من عرب كردفان لا تتزوج الواحد منهن شاباً ما لم يقتل فيلا أو أسداً أو جاموساً بالسيف أو بالحربة . ولا أدرى أى الحيوانات أشد خطراً على الإنسان الفيل أم الأسد أم النمر أم الجاموس وربما كان الجاموس أشدها فتكاً . فالثلاثة الأولى تهرب من الإنسان فى غالب الأحيان أما الجاموس فقلما يهرب وإذا رأى إنساناً هجم عليه حالا سواء اعتدى عليه الإنسان أو لم يعتد . ثم قص على حكاية أخرى عن الأسود قال : كنت سائراً بين واو والتونج فلقيت أسداً ولبوة على الطريق أمامى فرميت الأسد وجرحته فهجم علىّ فأطلقت عليه رصاصة أخرى أصابته لكنها لم تصده عنى ولم يكن فى بندقيتى رصاصة غيرها وتعذر على أن أحشوها لأن الأسد كان قد دنا منى كثيراً فوقفت فى مكانى لا أتحرك وأخذت أتفرس فيه فوقف ينظر إلى وأنا جامد فى مكانى ثم التفت يمنة ويسرة وتحول عنى وسار فى سبيله . وكانت اللبوة واقفة تنظر إلينا فلما رأت الأسد

قد تركنى أخذت تزمجر كأنها غضبت منه لتركه اياى تقدمت الى وكنت لا أزال واقفاً لا أتحرك فلما دنت مني وقفت كما وقف الأسد ثم تركتني ومضت . وبلغني بعد ذلك أن سباركس بك طلب منه أن لا يروى للضباط قصة دخوله عرين الأسد لئلا يقتدوا به ويصاب أحدهم بسوء .

هذا شيء يسير عن بسالة البكباشي هيمس فإن نوادره من هذا القبيل كثيرة جداً منها عبوره نهر الجور سباحة وهو يجر فيلا وراءه والنهر حافل بالتماسيح وقتله الفيل على عشر خطوات منه ووراءه فيل آخر يكاد يلمسه بخرطومه ووقوفه فى وجه العدو وحده . لم يرجع خطوة واحدة بل وقف يقاتل حتى سقط فى مكانه — الشجعان كثيرون ولكننى لم ألق فتى اجتمع فيه من محاسن الخلق والخلق ما اجتمع فى هذا الشاب فقد كان جميل الطلعة رضى الأخلاق لين العريكة رحب الصدر أنيس المحضر عزيز النفس حليما صبوراً جلوداً جريئاً مقداماً . لا أظنه أساء إلى أحد فى حياته بل كان كثير الاهتمام براحة الآخرين ومساعدتهم ويؤثر غيره على نفسه . مرض الأمباشي إبراهيم الزنكلونى من القسم الطبي فى واو واشتدت عليه الحمى فقال حبذا لو رأيت أمى قبل موتى فعمل له كرسياً وجاء باثنى عشر رجلا حملوه ثلاثة عشر يوماً من واو إلى مشروع الريك لكنه توفى هناك قبل أن يركب الباخرة فسار فى جنازته هو وسباركس باشا وسائر الضباط .

هذه بعض الأخلاق التى جبل عليها . لكن صفاته المكتسبة لم تكن أقل منها فقد كان طبيباً حاذقاً وجراحاً ماهراً وكان يحسن نظم الشعر والتمثيل والركوب والرماية والسباحة ولعب الكرة والصولجان وغيرهما من الألعاب الرياضية التى تعد من محاسن الشباب .

لست خائفاً أن ينسب إلى بعض القراء المبالغة فى تعداد مناقب هذا الشاب لكننى أخشى أن يتهمنى الذين عرفوه بالتقصير لا بالإفراط ولطالما حدثتنى نفسى أن أكتب شيئاً عنه اعترافاً بفضله فإذا كتبت الآن أكون قد قمت ببعض ما يجب على .

العودة إلى المشرع وقلة العمل

وعدت مع البكباشي هيمس إلى مشرع الريك فأقام هناك أياماً ثم ارتحل إلى واو وقال لى بعد سفره حبذا لو سرت معى بعضة أيام نقضيها فى الحديث والصيد وتكون فى ضيافتى أنت وحمارك قلت وما شأن الحمار فى هذه الدعوة، قال لحمل الزاد ، وإياك أن تأخذ معك شيئاً من الطعام أو الشراب ، بل ارسل إلىّ الحمار قبل سفرنا ، فأرسلته فحمله من الأطعمة ألواناً ومن الأشربة كل ما لذ وطاب وسرنا معاً ثلاثة أيام نصطاد ونأكل ونشرب ، فكان سيرنا نزهة لا سفراً ثم ودعته وعدت إلى المشرع وما فيه من الوحشة واستحوذ علينا الضجر هناك لقلة العمل وكان متوسط عدد المرضى فى المستشفى خمسة أو ستة ، والأمراض الغالبة الملاريا والدوسنتاريا وذات الرئة وكان المستشفى أربع خيم صغيرة من النوع الهندى المعروف بالجبلى ، وهى خيم مسنمة ذات سقفين بينهما مسافة قليلة وقد جعلت كذلك للوقاية من الحر وهى خفيفة الحمل لا يزيد وزن الواحدة منها هى وأعمدتها وأوتادها على ١٥٠ ليبرة أى ٥٤ أقة ويسهل نصبها وتقويضها وإذا كانت منصوبة فى أرض جافة صلبة لا تقوى الرياح على اقتلاعها وكانت الأدوات والعقاقير والأغذية الطبية فى صناديق صغيرة مرفوعة عن الأرض خوفاً من الأرضة وهى كثيرة جداً هناك .

المستر فل

وجاء المستر فل فى مساء أحد الأيام من بحر الجور لأخذ المؤونة للجنود الذين يعملون معه فى إزالة السد وكان قد مضى عليه نحو شهرين وهو مقيم فى باخرة بعيداً عن البر يكتنفه الماء والعشب من كل ناحية فصعدت إلى الباخرة لأراه فقال لى اجلس فقد مضى علىّ زمن لم أحادث فيه أحداً فجلست ولم أكن أقل سآمة منه فأخذنا نتسامر على ظهر الباخرة حتى لاح الفجر فانصرف كل

منا إلى فراشه. وكان المستر فل هذا من رجال البحرية الإنكليزية برتبة ملازم فاستقال منها بعد انتهاء هذه التجريدة وعين فى حكومة السودان برتبة البكباشى ثم رقى إلى رتبة قائمقام وقد شهد بعض الوقائع فى بلاد النمانم ثم توفى فى بحر الغزال مأسوفاً عليه من جميع عارفيه لما جبل عليه من اللطف وكرم الأخلاق وما أتاه من الأعمال فى تلك البلاد كإزالة السد فى أعالى النيل ونواصره وتعيين العرض والطول لأكثر المواقع .

بداءة فصل المطر

وبدأ فصل المطر فى شهر مارس وأخذت الحمى والملاريا تصيبنا الواحد بعد الآخر فلم ينج منها أحد من البيض لكنها لم تكن شديدة الوطأة فى أول الأمر وأخذت الطيور والقواقع تمر بنا فى انتقالها فمر بنا فى أحد الأيام سرب من الحواصل لا يحصى عدده فنزلت هناك وغطت النهر والغيران والمستنقعات وكان الماء فيها ضحضاحاً فأخذت تصيد السمك على مرأى منا لا تكاد تنجو سمكة منها ، وقد تركت كثيراً من السمك الميت مما لم تقدر على حمله فى حواصلها لكبره فجاء النساء وجمعنه وصدت ثلاثة طيور كبيرة منها بلغ وزن الواحد عشر أقات وكان فى حوصلة أحدها سمكة حية وزنها ٥٠٠ درهم وبقيت الطيور هناك يوماً كاملا صارت فيه من السمك ما شاءت ثم ملأت حواصلها به ليكون زادها فى السفر وارتحلت ورأيت هناك نوعاً من القلق يعرف عند عرب السودان بأبى سعن سمى بذلك لكيس متدل من عنقه كالسعن أى الجراب وهو قبيح المنظر لكن تحت أصل ذنبه ريش أبيض ناعم جداً يزين به الرجال رؤوسهم فى تلك البلاد وقد اقتدت بهم نساؤنا فاتخذنه للزينة وهو الطائر المعروف عند الإفرنج بالمرابو وصيده ممنوع فى السودان ، وكثر البط والأوز والقطا والقمرى فكنا نصيد هذه الطيور ونحن جالسون أمام خيامنا .

نفاد التبغ

ونفد منا السكر والبن والتبغ وتأخر وصول البريد فاستعضنا عن البن بالشاى وعن السكر بالعسل وأقراص السكرين . أما التبغ فلم يغننا شيء عنه وتوالت علىّ رسائل صديقى الدكتور نجيب شديد من التونج يطلب فيها أن أرسل إليه شيئاً من التبغ أو السكاير وهو يظن أننى فى نعيم من التبغ أتمرغ فى سكاير جنكليس ولا يدرى أننى كنت فى ضيق أشد من الضيق الذى كان فيه ثم وصلت الباخرة بعد أيام وعليها ألف سيكارة لى فأرسلت إليه بعضها مع كامل أفندى وأقسمت عليه أن يصفه لى بعد عودته وهو يدخن سيكارته الأولى ولا أدرى أينا كان أشد ولعاً بالتدخين من الآخر .

المسير إلى واو

وبقيت فى مشرع الريك ستة أشهر كأننى فى سجن فأرسلت كتاباً إلى البكباشى هيمس قلت له فيه إننى لم أعد أطيق الإقامة هناك فكتب إلىّ يقول إنه مسافر مع سباركس بك إلى بلاد النمانم وطلب منى المجيء إلى واو لاستلام أشغاله فى غيبته وأرسل البكباشى بلنوى كتاباً آخر طلب فيه من قائد المشرع أن يرسل معى عشرين حماراً محملة مؤونة وسبعة عشر جندياً لحراستها فقلت فى نفسى لقد ارتقيت من حفر الآبار إلى قيادة الحمير وسرت من المشرع فى الثانى من شهر يونيو وكانت الحمير محملة ذرة ودقيقاً وبقسماطاً ، الذرة فى أكياس من الخيش ، والدقيق والبقسماط فى أكياس من نسيج الكتيم الذى لا ينفذه الماء ، فقطعنا أربعين ميلا فى الأيام الثلاثة الأولى وكان سيرنا صعباً جداً لأن الدواب كانت مثقلة بالأحمال وهى هزيلة منهوكة القوى بسبب المرض والتعب ، وكان البكباشى بلنوى قد ألح علىّ بسرعة السير لأن الجنود كانوا فى أشد الحاجة إلى المؤونة فى واو . وكان فصل المطر قد بلغ منتهى الشدة والسيول قد غمرت

الطرق فى بعض الأماكن ، وفى اليوم الثالث عصفت رياح شديدة ثم اكفهرت السماء وقصفت الرعود وهطل مطر غزير لم أر مثله فى الشدة وكان ذلك أول عهدى بالأمطار الاستوائية فإنه قد يقع من المطر فى ساعة واحدة هناك قدر ما يقع فى يوم أو أكثر من يوم فى مكان مثل بيروت . ثم جرت السيول وغمرت الأرض أمامنا فكنا لا ندرى أين الطريق ولاحت لى قرية عن بعد فأسرعت بالدواب إلى أقرب بيت منا فرأيت فيه جماعة من السود جالسين حول النار فأنزلت الأحمال وأويت الحمير . وكنا قد رأينا قطيعاً من الثياتل قبل وصولنا إلى القرية فرجعت إليه وصدت ثيتلا منه فجاء العساكر وحملوه إلى القرية وبتنا ليلتنا هناك .

غرق الحمير فى الطين

ولما نهضنا للسير فى اليوم التالى وجدنا أحد الحمير قد رزح من التعب والمرض فأطعمت الحمير الأخرى ما عليه من الذرة وتركته عند الأهالى وطلبت منهم أن يعيدوه إلى المشرع متى قوى على السير فلحق بى رجل بعد يومين ومعه حافر من حوافره دليلا على موته . وكان سيرنا فى هذا اليوم أصعب من سيرنا فى اليوم الذى قبله لكثرة الماء والطين وكان السيل قد محا آثار الطريق فصارت الحمير ترتطم فى الطين فتغرق أحيانا إلى بطونها فننتشلها منه . ومررنا قرب بيت فخرج منه رجل وقال إنكم تائهون عن الطريق وسار أمامنا يدلنا عليها فعجبت لهذه المروءة التى لم أعهدها فى الدنكا وقلت لعل وراء الأكمة ما وراءها ولم نكد نسير غلوة حتى أخذت الحمير ترتطم فى الطين فقلت للرجل قد كنا سائرين على طريق أفضل من هذه وأقرب وعلمت من هيئته أنه خدعنا حتى لا نمر فى زرع له هناك فلما درى أن أمره قد افتضح أعطى ساقيه للريح .

الكوجور أى الساحر

وكان اليوم الخامس شديد الحر جداً والطريق التى سرنا عليها جافة لا ماء فيها وتعبت الدواب كثيراً فتركت الجنود معها يسيرون على مهل وأخذت غلاماً

كان يحمل بندقيتى وراويتى وسبقتهم أفتش عن مكان فيه ماء ننزل عليه وكان الغلام لا يفهم من العربية إلا كلمات قليلة ، ولاح لى بيت وجهت خطواتى إليه فرأيت هناك رجلا يعمل فى مزرعة فقلت له « فيو » ومعناها الماء بلغة الدنكا فلم يرد علىّ فكلمه الغلام بلغته وطلب منه أن يدلنا على الماء فقال « ألو » وهى أداة النفى عندهم ولطالما سمعتها منهم فكنا مهما طلبنا من الواحدمنهم يقول « ألو » فقلت للغلام قل له أن يدلنا على الماء ويأخذ أجرته فقال له قم دلنا على الماء فلم يتحرك فكلمته مغضباً وقلت له قم أرنا الماء فاحمرت عيناه ونهض واقفاً وكان فى يده اليسرى حربة وفى اليمنى دبّوس ضخم فهجم علىّ ورفع دبوسه فوق رأسى وأخذ يرغى ويزيد ويتكلم بكلام لم أفهمه وأظنه كان يصب لعناته علىّ وكانت هيئته تدل على شدة غيظه منى وهو يهز دبوسه كأنه يريد أن يهوى به على رأسى فقلت فى نفسى لعل الرجل معتوه أو ربما ظننى وحدى ورآنى أعزل فأحب أن ينتقم من الجنس الأبيض وهممت أن أضع يدى وراء ظهرى وآخذ البندقية من الغلام فإننى كنت إذا رأيت صيداً أضع يدى وراء ظهرى فيناولنى البندقية من غير أن أكلمه لكننى خشيت أننى إذا فعلت ذلك زاد هياج الرجل واضطررت أن أقتله دفاعاً عن نفسى فبقيت واقفاً أنظر إليه وقلت للغلام ماذا يريد هذا الرجل وماذا يقول ؟ قال « كوجور » قلت ما معنى كوجور قال كوجور ، فوقعت فى حيرة لا أدرى أأقتل هذا الرجل دفاعا عن نفسى أم أبقى تحت رحمة دبوسه فإنه لم يكن بيدى غير عصا صغيرة قد لا تقينى من ضربة الدبوس إذا نزل على رأسى ، وإذا امرأة خرجت من البيت وقبضت على الرجل وساقته فسار معها مكرها وهو يرغى ويزيد فتركته وسرت إلى بيت آخر فرأيت هناك رجالا دلونى على الماء وجاءوا بشيخ القرية فاعتذر عن الرجل وأرسل رجاله فجاءوا بالعساكر والدواب وعلمت بعد ذلك أن كوجور معناه ساحر أو ولىّ .

جمال الغابات

وكانت الغابات التى نسير فيها من اجمل ما وقعت عليه العين ولا أظن الجنان الأربع التى أكثر العرب من وصفها أجمل منها وكان المطر قد زادها جمالا فكانت الأرض كلها مغطاة بالأعشاب والبقول يسرح فيها بقر الوحش والزراف والنعام وتغرد الطيور المختلفة الأشكال فى الأشجارها . وضجرت من الصيد فكنت لا أقتل الثتيل ولو كان على الطريق أمامى ما لم أكن فى حاجة إلى لحمه لإطعام العساكر ونزلنا مرة للمبيت على بركة من الماء فرأينا هناك قطيعاً من الثياتل فلم نتعرض له ، ولما أظلم الليل أخذت الأسود تطربنا بزئيرها وبقيت تزأر الليل كله ، فلما أصبح الصباح إذا الثياتل باقية هناك فلم تبرح مكانها فكأن زئير الأسود راعها فبقيت هناك مستأنسة بنا وقد وصفت أشجار بحر الغزال فى رسالة سابقة لكننى رأيت من أنواع النباتات هذه المرة ما لم أره فى هذه البلاد قبلا منها نوع العنب البرى لم يكن أوان ثمره حينئذ فجمعت شيئاً من ورقه وطبخته كما نطبخه فى الشام ورأيت من البقول التى تنمو من نفسها البامية والملوخية والرجلة المعروفة فى الشام بالبقلة أو الفرفخين . وكان الريحان المعروف فى الشام بالحبق كثيراً جداً وأظن هذه الأصناف كلها أصلية فى بحر الغزال .

الشيخ أيُّوم

ووصلنا فى اليوم السادس إلى حلة الشيخ أيوم وكان شيخاً هرماً قديم العهد جداً لقيناه مستلقياً تحت شجرة كبيرة أمام منزله وحوله جماعة من رجاله فنزلنا هناك وكان الجنود قد قزت نفوسهم من لحم الصيد فطلبوا منى أن أشترى لهم خروفاً سميناً من خرفان الشيخ فقلت له أتبيعنى خروفاً قال عار علىّ أن أفعل ذلك بل أقدمه إليك هدية فقلت سبحان الله ماذا أصاب الرجل حتى حل به هذا الكرم الحاتمى ثم قلت فى نفسى لعل فى الدنكا ويين رجلا صالحاً

وقبلت الهدية منه وأهديت إليه ثوباً من الدمور فأخذه وقلبه بين يديه ثم نشره والتف رجاله حوله وأخذوا يتباحثون فيما بينهم فظننتهم معجبين بالثوب ثم طووه وأعادوه إلى وقالوا رد الخروف فإن هديتك لا توازى ثمنه وكان الجنود قد ذبحوا الخروف فلم أر بداً من إرضاء القوم فأضفت إلى الثوب ثلاثين خرزة فقبلوا الهدية وعلمت بعد ذلك أن الشيخ أيوم هذا كان له شأن مع الزبير باشا فى الزمن السالف فأمر الزبير بجلده وقد رأيت فى منزله نحو خمس عشرة امرأة قيل لى إنهن زوجاته وسألت عنه بعد عودتنا من بحر الغزال فقيل لى إنه توفى وانضم إلى آبائه .

قبيلة الجور

تركنا حلة الشيخ أيوم وراءنا وهى آخر منازل الدنكا فى تلك النواحى الصعداء فتنفسنا ودخلنا بلاد الجور وهم قبيلة من السود يظن أنها وقبيلة الشلك من أصل واحد لما بينهما من المشابهة فى اللغة والعادات . والجور على قلة عددهم وضعفهم أرقى كثيراً من الدنكا ولهم مهارة فى صيد البر والبحر وفى استخراج الحديد من مناجمه وعمل الحراب والقسى والسهام والفؤوس وأساور النحاس والصفر والحديد فيبيعون كثيراً من هذه الآلات والحلى للدنكا وجل اعتماد الدنكا فى الصناعة عليهم لأنهم لا يعرفون شيئاً منها وقصارى ما تعلموه من غزاة الدناقلة وغيرهم استخراج العرق من البوزة ولا أظنهم يختلفون الآن عما كانوا عليه فى زمن بترك وشوينفورث وأغرب ما فيهم أن سلاحهم فى البلاد التى أجلتها لا يتعدى الحراب والدرق مع أن الجور والبنتو على ريه سهم منهم وهم يتسلحون بالقسى والنبال منذ عهد بعيد .

زراعة التبغ

ونفد منى التبغ فاشتريت غليوناً (حجراً) وقليلا من تبغ تلك البلاد لكننى وجدته قوياً جداً فلم أقو على تدخينه . والتبغ هناك نوعان وهما التمباك والتبغ المعروف وهم يجمعونه رطباً ويجعلونه قوالب صغيرة شبيهة بقوالب السكر ثم يجففونه فإذا أرادوا التدخين سحقوه بين أصابعهم ودخنوه فى غلايين كبيرة جداً

قد يسع الواحد منها مائة درهم وبعضهم يمضغه مضغاً وهى عادة شائعة جداً فى السودان كله فإذا اكتفى الواحد منهم أخرج المدغة من فمه وألصقها وراء أذنه ثم عاد إليها متى اشتاقت نفسه إلى المضغ وقلما ترى أسود إلا وغليون فى يده أو مضغه فى فمه أو وراء أذنه . ولو عنى أهالى بحر الغزال بزراعتهم كلها عنايتهم بزراعة التبغ لأنبتت بلادهم من الحبوب ما يكفى السودان والقطر المصرى كله بل زاد على ذلك .

وللدكتور شوينفورث نزيل مصر الآن بحث فى تبغ تلك البلاد ذكر فيه أن أسماءه فى أكثر لغات القبائل هناك تشبه اللفظ الأفرنجى أى تباكو منها أه تُبُّو وتاب وتابـاً وتابديت وتم مما يدل على أنه دخيل فيها . أما التمباك فأسماؤه مختلفة وربما كان أصلياً فى أواسط أفريقية وسواء كان التمباك أصلياً فى الشرق أو دخيلا فيه كالتبغ فلا شبهة فى أن هذين اللفظين أى التبغ والتمباك دخيلان فى العربية وغيرها من اللغات الشرقية وهما مشتقان من لفظ تباكو الأمريكية لا أن لفظة تباكو من الطباق العربية كما يرى بعض كتابنا وعلمائنا الأفاضل . فالطباق يختلف كثيراً عن التبغ وهو من الفصيلة المركبة من طائفة حشيشة البراغيث ويعرف فى الشام بالطيون وفى الجزائر بالمكرمان ولا ينبت فى مصر فى ما أعلم وأشبه نبت به فى هذه البلاد رعراع أيوب . وهو مشهور ويختلف عنه بخلوه من اللزوجة . أما التبغ فمن الفصيلة الباتنجانية التى منها البطاطس والداتورا والحدق وعنب الدب والفلفل الأحمر وغيرها . ولا محل هنا للبحث فى هذه المسألة ومن شاء فليراجع وصف الطباق فى كتب اللغة ومفردات ابن البيطار وتذكرة داوود الأنطاكى وهذا توفى بعد دخول التبغ إلى الشرق بخمس سنوات فذكر الطباق ولم يذكر التبغ وقد ورد ذكر الطباق فى كتاب كشف الرموز لعبد الرزاق الجزائرى من أطباء القرن الثانى عشر للهجرة فوصفه وقال

---

(١) تلفظ القاف فى الأعلام السودانية والمغربية كالجيم المصرية رقد جريب فى كتابتها على طريقة أهل السودان والمغرب وأكثر المؤلفات العربية القديمة فيقال مثلا مملكة باقورنى ومدينة قورينا وقوز أبى جمعة الوادى الفارق وقبيلة الحلانفة وكيانقو سلطان القولو كلها بالقاف لا بالجيم .

إنه يسمى المكرمان فى الجزائر ولم يقل إنه التبغ وكان شائعاً جداً فى أيام ولا يعقل أنه كان يجهله .

الأرضه

ورأينا فى بلاد الجور نوعان من الأرضه لم نره قبلا وقد مر ذكر الأرضة فى ما سبق وهى حشرة صغيرة تعرف عند عامة الإنكليز والفرنسويين بالنملة البيضاء وهى معروفة عند العرب منذ عهد بعيد . قال الدميرى نقلا عن القزوينى ما نصه : « إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما وهى دابة الأرض التى دلت الجن على موت سليمان عليه السلام » . ثم ذكر أمر الصحيفة التى كتبها قريش على بنى هاشم وعلقوها فى الكعبة فأكلت الأرضة بعض ما كتب فيها .

والأرضة أنواع كثيرة أشهرها الأرضة المحاربة وهى كثيرة جداً فى السودان وبلادالعرب ومعروفة فى بعض أنحاء القطر المصرى. تبنى لها بيوتاً مخروطة الشكل قد يبلغ ارتفاع الواحد منها ٢٠ قدماً فى كل بيت أو قربه أربع طوائف منها وهى العملة والجند وذوات الأجنحة ثم الملك والملكة وهما الذكر والأنثى فإذا جاء فصل المطر خرجت ذوات الأجنحة من القرى فلا تلبث حتى تسقط أجنحتها فيلتقطها السود ويأكلونها ويقال إن طعمها لذيذ جداً . وقد سمعت نساء الجنود يسمينها بالزرازير وهى كثيرة الدهن فكن يقلينها بما كان يسيل منه متى وضعت على النار .

وهذه الحشرة أو بالحرى طائفة العملة منها كثيرة الأضرار بالجلد والأخشاب والأمتعة فقد تأكل السرج أو الحذاء فى ليلة واحدة وقد كنت مرة نائماً فى ظل شجرة فأكلت بعض الملابس التى علىّ والحكومة مهتمة بها كثيراً وقد جربت وسائل كثيرة لإهلاكها بغير جدوى على أن الأدهان التى فيها مركب

من مركبات الزرنيخ أو الرصاص تقى الأخشاب منها إذا دهنت بها — أما الأرضة التى رأيناها فى بلاد الجور فتختلف بيوتها عن بيوت الأرضة المحاربة فهى أصغر منها كثيرا لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثين عقدة وهى شبيهة ، فى شكلها بنبات الفطر .

الوصول إلى واو

وبعد مسير تسعة أيام أصبحنا بيننا وبين واو نحو ثلاثة أميال فقلت عسى أن نصيب صيداً قبل وصولنا فنحمله هدية إلى الجنود الذين فيها وإذا ثور وحشى عرض لنا على الطريق أمامنا ولم يكن بيننا وبينه أكثر من مئة متر فوقف ينظر إلينا كأنه يستفهم عن سبب قدومنا وإزعاجنا إياه فى مرتعه : ولا بد أنه استغرب شكلنا وشكل الدواب التى معنا لأنه لم ير مثلها قبلا وكان من النوع المعروف بأبى عرف وهو من أكبر أنواع البقر الوحشية فى السودان ولا يقل فى عظم الجثة عن الثور الأهلى . فأطلقت عليه رصاصة أصابت منه مقتلا ثم ألحقتها بغيرها حتى لا يقع بعيداً عنا فسقط فى مكانه فتركت ثلاثة من الجنود يسلخون جلده ويقطعون لحمه ولما وصلنا إلى واو أرسل البكباشى بلنوى من جاء بلحمه ففرح به الجنود كثيراً . وكان وصولنا نحو التاسعة صباحاً وقد بقى بيننا وبين المعسكر نهر يعرف ببحر الجور وكان فى أعلى فيضانه وقد بلغ اتساعه نحو مئتى قدم ولم أكن أظنه فى هذا العظم من الاتساع والعمق فإنه بعد إزالة السد منه صارت البواخر النيلية تسير فيه فى زمن الفيضان كما تسير فى النيل وهو ليس سوى نهر من الأنهر التى تمد بحر الغزال وهذا يمد النيل الأبيض مع ما يمده من الأنهر الأخرى كبحر السبت وبحر الزراف . وليس النيل الأبيض إلا جزءاً من النيل الأعظم الذى يجرى فى مصر .

ورأينا البكباشى بلنوى واقفاً على الجانب الغربى وقد أرسل القوارب لعبورنا وكانت مصنوعة من النسيج اللكتيم كل قارب قطعتان أو ثلاث تفصل الواحدة عن الأخرى فيسهل طيها وحملها . فأرسلت الحمير أولا ثم المؤونة ثم الجنود وكان أول سؤال وجهه إلىّ عن صحة الحمير وسلامتها فقلت مات منها ثلاثة عن الطريق

قال كنت أود أن تصل كلها سالمة لأننا فى شدة الحاجة إليها ثم قال وكيف صحتك أنت أظنك جائعاً ونادى خادمه ليهيء لى طعاماً قلت إنى لفى جوع شديد لكن شوقى إلى التدخين أشد من شوقى إلى الطعام فقدم لى سيكارة من أجود السكاير المصرية ثم أعطانى صندوق منها . ولقد ذقت مرارة العيش وشيئاً يسيراً من حلاوته ونسيت أكثره لكننى لا أنسى تلك السيكارة ولذتها .

ولما أخذت نصيباً من الراحة أخذنى وأرانى كوخاً صغيراً وقال هذا منزلك هنا فحمدت الله على نعمه وقلت قد صار لى سقف فوق رأسى وكان قد مضى أكثر من ستة أشهر إما فى العراء أو فى ظل شجرة أو خيمة . ولم نكن نحمل خيما فى سفرنا لأن الدواب لم تكن تكفى لحمل المؤونة . فدخلت منزلى وأرسلت حمارى إلى الإسطبل العامر حيث نزل ضيفاً على الحكومة .

واو

وكانت واو كما مر بنا فى مكان بنى فيه الكولونيل مرشان حصناً سماه حصن ديزيه فلما نزلناه فى أوائل يناير بنينا منازلنا حوله وحوطناها بزريبة من الخشب والشوك وبنى الجنود منازل لنسائهم خارج الزريبة ثم جاء جماعة من الأهالى وبنو منازلهم هناك فصار المكان غاصاً بالسكان . ولم يكن فيه من الضباط عند وصولنا إلا البكباشى بلنوى وأحمد أفندى كامل ثم وفد علينا بعد أيام المرحوم اليوزباشى على وهبى وكان قادماً من مصر . أما سباركس بك والبكباشى بى والبكباشى هيمس والملازم الثانى محمد أفندى على فكانوا فى بلاد النمانم وهى على حدود ولاية الكونغو .

ولم تطل إقامتنا فى واو حتى اشتدت علينا الحمى الملارية فكنا نقوم بأعمالنا وهى ملازمة لنا واتخذ كل منا عصا يتوكأ عليها فكنت إذا ارتفعت الشمس وقلت الرطوبة من الهواء أخرج من منزلى وأمر على الضباط فمن لم يكن محموماً فى ذلك اليوم أو كانت الحمى خفيفة عليه خرج لأعماله وإلا بقى فى فراشه . وكان كامل أفندى أشدنا نشاطاً فلما قل الزاد فى المحطة أخذ الحمير وسار غرباً فى طلب الذرة وكانت الدواب قليلة جداً وقد مات أكثرها فتطوع حمارى

فى هذه السفرة وعاد سليما معافى .

وأخذنا نبنى منازل جديدة أحسن من التى كنا فيها فأقمنا بضعة عشر منزلا شبيهة بمنازل تلك البلاد لكننا جعلناها مربعة لا مستديرة وجعلنا لبعضها سقفاً مسنمة . وحدث ونحن نبنى هذه المنازل أن البكباشى بلنوى قال لى حبذا لو كان عثمان صديق معنا قلت عجباً كنت أظنك غير راض عنه لما جرى بينه وبين الضباط الإنكليز فى حديقة الأزبكية قال هو من خيرة الضباط على شرط أن يكون بعيداً عن القاهرة أخرجه منها فلا تجد من يفوقه فى النشاط والعمل . لقد مضى على هذه الحادثة إحدى عشرة سنة وقد ذكرتها لأنى لقيت عثمان بك صديق بالأمس ورويتها له فضحك كثيراً . وهو (الآن) ضابط فى الجيش العثمانى ولم تكد إيطاليا تعلن الحرب على الدولة العلية حتى جاء من الأستانة وسافر إلى ساحة القتال . وكنت أود أن أذكر بعض ما أتى به من الأعمال المجيدة فى هذه الحرب لكن الحكمة تقضى بكتمانها فى الوقت الحاضر . ولقد أبلى بلاء حسناً يوم دخل جيش الحرية الأستانة فى ثورتها المشهورة.

مشكلة نسائية

ولما دخلنا بحر الغزال أعلن سباركس بك أن الخصومات التى وقعت قبل الثانى من سبتمبر سنة ١٨٩٨ وهو اليوم الذى دخلنا فيه أم درمان لا ينظر فيها بل يبقى كل قديم على قدمه أما الخصومات التى وقعت بعد هذا التاريخ فيحكم فيها حسب عادات البلاد . فجاءنا فى أحد الأيام ونحن فى واو جماعة من السود ومعهم امرأة يتنازعهما رجلان منهم كل يدعى أنها زوجته وأنه اشتراها بماله وقد طال النزاع عليها فكانت تارة عند هذا الرجل وتارة عند ذلك . وقتل أحدهم أخاها بسببها . ولم يكن البكباشى بلنوى ميالا إلى الحكم فى هذه المسألة لكن الرجلين ألحا عليه فى الفصل بينهما فقلت أتترك الحكم لى قال لك ما تريد قلت هل يكون حكمى قاطعاً لا يستأنف فيه ولا نقض قال نعم فالتفت إلى المرأة وقلت أى الرجلين تريدين قالت هذا وأشارت إلى قاتل أخيها فقلت له خذ زوجتك وامض .

وقد وقعت لنا مسألة مثل هذه وأنا سائر مع البكباشي هيمس على مقربة من المشرع فإننا لقينا على الطريق رجلا من المهاجرين الذين جاءوا معنا من الخرطوم وكان معه امرأة ورجلان يحملان جلد شاه وحزمة صغيرة من التبن فلما رأونا قال المهاجر كنا سائرين إلى المشرع نتقاضى على هذه المرأة وقد تزوجتها فى الخرطوم بسنة الله ورسوله فلما جئنا إلى هذه البلاد رآها أخوها وأخذها منى وباعها لهذا الرجل ثم أردنا عقد الزواج وكان عليه ختم المأذون فى الخرطوم والصداق عشرة غروش . وقال الأخ لم يكن مسلماً هى أختى سرقت صغيرة من بيت أبى وبيعت فى الخرطوم فلما رأيتها عرفتها وهى ماكى بعد وفاة أبى . وقال الثالث هى زوجتى وقد اشتريتها من أخيها بعدد هذه التبنات من النعاج وحل الحزمة فإذا هى عشرون تبنة . فقلنا للأخ ارجع إلى الرجل نعجاته لأنك بعته امرأة هى زوجة رجل آخر قال لا بل هى ماكى لأن زوجها الأول لم يدفع لى ثمنها فلا حق له بها وقد ماتت نعجة من هذه النعاج وأرانا جلدها . ورأينا الرجل مصيباً لكن الخصومة كانت بينه وبين مسلم تزوج امرأته وأرسلنا الجماعة إلى المشرع حيث عرضوا قضيتهم عليه فحلها على أهون سبيل .

نساء تلك البلاد

والنساء هناك من العروض التى تباع وتشترى فاو اتفق أن رجلا سبى امرأة أو سرقها وبقيت عنده سنوات ثم عثر عليها زوجها طالبه بها وبأولادها كما نطالب بالفرس ونتاجها . وإذا توفى رجل عن زوجات وبنات ورثهن أبناؤه كما يرثون أمواله الأخرى . ويقتنى الرجل من النساء بقدر ما عنده من البقر والغنم وثمن المرأة من بقرتين إلى عشرين بقرة أو ما يعادل ذلك من الضأن أو المعز حكى لى البكباشي هيمس مرة أنه نزل ضيفاً على أحد سلاطين تلك البلاد فأولم له وليمة كان فيها من الأطعمة دجاج قد سلق وأمعاؤه فيه فقال له من طبخ هذا الطعام قال إحدى زوجاتى قال كم عندك منهن قال أمهلنى قليلا ثم خرج حتى وقف على الباب وجعل يعد منازلهم فلما عاد قال هن خمس عشرة امرأة .

أما نساء تلك البلاد فكثيرات منهن حسان مستويات الخلق رشيقات القد يزرين بكثير من البيض الحسان شكلا واعتدالا لكنهن متى كبرن محيت منهن معالم تلك المحاسن واعتادهن قبح تنبو عنه الأبصار والمتزوجات منهن يتشحن بوشاحين من الجلد متقابلين وربما اتزر الفتيات بجلد ثالث يرسانه على الصدر. ومنهن من تتخذ بضع ورقات من ورق الشجر تستعيض عنها بالجلود فتكاد تكون متجردة . أما العذارى فبعضهن متجردات ويتشح البعض الآخر بالرهط وهو جلد مشقق من أعلاه إلى أسفله كانت تلبسه الإماء عند العرب ولا يزال معروفاً بهذا الإسم فى السودان .

الحاصلات

كان حصن ديزيه والمنازل التى حوله فى غابة ملتفة من الشجرة والحصن نفسه فى أرض حجرية مرتفعة بينهما وبين النهر أرض فضاء جيدالتربة كان الفرنسويون قد أصلحوها وزرعوا فيها بعض أصناف البقول وقد بقى منها قليل من الفول السودانى وشجرة من الفلفل الأحمر فعهد إلى البكباشى بلنوى وأعطانى بزراعتها بزور بعض البقول الإنكليزية وكان قد جاءنى من بيروت بزور بعض البقول التى تزرع فيها فزرعتها كلها فجاءت كثيراً وأكثر زراعة الأهالى فى تلك البلاد الذرة المعروفة فى مصر بالذرة البلدية وفى الشام بالذرة البيضاء وهى أصناف كثيرة تزرع فى السودان كله اعليها عماد الأهالى فى قوتهم وزراعتها قديمة جداً فيه وفى مصر وبلاد العرب وهى المعروفة بالذرة فى المؤلفات العربية . ومنها نوع يعرف فى السودان بالعنتوليب وفى مصر بالذرة العويجاء لعصارة قصبه حلاوة تشبه حلاوة قصب السكر . ومنها التيلبون وهى ضرب من الذرة صغير الحب يصنعون منه جعة يفضلونها عن الجعة المصنوعة من الذرة البيضاء ومن زراعتهم الذرة الصفراء المعروفة فى مصر بالذرة الشامية وفى السودان بعيش الريف والدخن واللوبيا المعروفة فى مصر باللوبيا البلدية وفى الشام باوبيا المسلأت . وضرب آخر فى اللوبيا خاص بتلك البلاد والقاقاس والبطاطا الحلوة وصنفان من القرع والباميا والتيل وهو نوع

من البامية يصنعون من أليافه حبالا .

وكان على ميل من المعسكر أرض فضاء مستوية مساحتها نحو أربعة أفدنة فأصلحناها وزرعناها ذرة لكن لم يكد حبها يخرج حتى تسلط عليها القرود والعصافير وكنا فى شدة الحاجة إلى القوت فوضعنا ستة من الجنود لحراستها وطرد القرود والعصافير عنها فصارت القرود تأتيها ليلا فقتل الجنود قرداً منها فلما رأت ما حل به وجدت أن الذرة غير صالحة لمعدها فارتحلت عنها .

ما يأكل السود من اللحوم

وجاء جماعة من السود وأخذوا القرد الذى قتلته الجنود وكان كبير الجثة جداً فحملوه إلى قرب المعسكر وسلخوه وعلقوه فى شجرة ثم أوقدوا النار تحته وشووه وأكلوه وكان وهو مسلوخ ومعلق فى الشجرة لا يختلف كثيراً فى شكله عن الآدمى . والسود فى تلك البلاد لا يكادون يعافون لحم حيوان سواء كان غريداً أو عفناً فبعض القبائل تعاف لحم الطير لكنها تأكل لحم الكلب أو القط أو الضبع وبعضها يعافى الضبع ويأكل القط والنمر وقد رأيت بعضهم يأكلوا نمراً قتله أحد الجنود فى واو . وكان فى المعسكر قط وحشى قبضنا عليه صغيراً وربى فى منازلنا . وصار آلف من القط الأهلى فرآه جماعة منهم وظنوه وحشياً فقبضوا عليه وخنقوه وأكلوه . فكان نصيب كل منهم ٧ جلدات وكان فى المعسكر نمس أليف خفنا أن يأكلوه لكنه كان أشد دهاء منهم فلم يقدروا عليه .

أما أكل لحوم البشر فليس معروفاً فى الأماكن التى دخلتها لكن لا شبه فى أن النمانم الذين على حدود الكنغو يأكلون لحوم الناس على أن هذه العادة ليست عامة فيهم . أخبرنى البكباشى هيمس أن أحد سلاطينهم عرض مرة جنوده أمامه فسأله عن صحة ما يقال عن أكلهم لحوم الناس فقال نعم بعضهم يفعل ذلك فأشار إليهم واحداً واحداً فقال البكباشى لأحدهم وأشار إلى أحد البيض الواقفين هناك أتحب أن تأكل هذا فأبدى اشمئزازا وقال كلا كأن

نفسه تعاف أكل الأبيض من الناس . ولا يستغرب أكل السود لحوم البشر ولحوم بعض الحيوانات التى تعافها النفس . وما الميل إلى أكل صنف من اللحوم دون غيره سوى عادة فينا فمنا من يستطيب لحم الخنزير مثلا ومنا من يشمئز منه سواء حرمه الدين أو حلله وما الخنزير بأنظف من النمر أو القط أو البغل ولا يفضل الدجاج من هذا القبيل على الصقور والبزاة .

وفود السلاطين والأهالى على الحكومة

وكان من النازلين فى واو رجل خفيف الروح جداً اسمه الماس فقلت له مرة : وددت او رأيت سلطاناً من سلاطينكم قال أنا سلطان قات ويحك وأين مملكتك قال كان أبى من السلاطين العظام وكان له جيش كبير فيه أكثر من ثلاثين مقاتلا هلكوا جميعاً .

ثم أخذنى إلى دار ملكه فإذا هو ثلاثة أكواخ ولم يمض على ذلك بضعة أيام حتى وفد علينا أول سلطان من سلاطينهم وهو أبن كإبن كيانقوا سلطان القولوا وكان معه نحو خمسين مقاتلا وهم يطلبون ويزمرون أمامه فنزل فى ضيافتنا ثلاثة أيام وارتحل .

وكنت قد رأيت معه بوقاً كبيراً مصنوعاً من ناب فيل فاشتريته منه بقليل من الخرز وبعض ملابس عسكرية إلخ . وكانت آخر ما بقى عندى فى واو ولم يبق عندى من الملابس الملكية الأ قيعة وقميصان وبنطلون وزوجان من الجوارب وحذاء ولا يزال البوق عندى وطوله أكثر من متر .

ثم وفد علينا بعد أيام نحو مئة رجل كانوا من جنود الباشبوزق فى أيام الحكومة القديمة لجأوا فى زمن المهدية إلى أحد سلاطين تلك البلاد واسمه تشكتشك فلماعلموا بقدومنا تركوا سيدهم وصاروا إلى واو يريدون الدخول فىخدمة الحكومة ولما صاروا على مرحلة منه أرسلوا الينا كتاباً يعلموننا بقدومهم فحار البكباشى بلنوى فى أمره لأن القوت كان قليلا جداً عندنا ولم نكن فى حاجة إلى خدمتهم لكنه لم ير بدأ من قبولهم فلما وصلوا أرسلنى إلى خارج الزريبة لاستقبالهم وخبأ

بعض الجنود فى الزريبة خوفاً من غدرهم فأدخلناهم واحداً واحداً حتى إذا وصل الرجل منهم إلى الطابية نزع منه سلاحه . وكان هؤلاء الجنود فى أشكال مختلفة بعضهم مسلح ببنادق الرمنغتون والبعض الآخر بذوات الزناد وكان عليهم قائدان أو مقدمان يعرفان شيئاً من النداء العسكرى باللغة التركية وسمع سلطان التنبورة وهى إحدى قبائل النمانم باحتلال بحر الغزال فأوفد أخاه وبعض رجاله للسلام علينا فجاءوا ومعهم قدور العسل وسلال الموز وأنياب العاج فاقتسمنا الموز بيننا ولم نكن قد أكلنا من الفاكهة بعد ترك أم درمان غير ما كان محفوظاً منها فى العلب أما العسل فكان كثيراً جداً عندنا . وكان سباركس بك قد صار بنفسه إلى بلاد النمانم كما مر لكن أخا السلطان جاء فى طريق آخر فلم يتقابلا . ولما وصل سباركس بك إلى بلاد السلطان أحسن السلطان وفادته وأنزله فى ضيافته هو ومن معه من الضباط والجنود وأهدى إلى الحكومة ثمانين نابا من العاج فأرسلها سباركس بك مع محمد أفندى على وكان يحملها مائة رجل لأنه كان يقتضى رجلان لحمل كل من الأنياب الكبيرة . ولم يكن فى واو ميزان نزنها به فقدرنا ثمنها بألف وخمسمائة جنيه وجاء مع محمد أفندى على كتاب من سباركس بك وفيه جدول بالهدايا التى اختار السلطان أن تهدى إليه فبعث به البكباشى بلنوى إلى السردار وطلب منه منه إرسال الهدية وكان معظمها أنسجة وسكر وشاى وذخيرة وكونياك وقيمتها نحو مائة جنيه .

الأسود فى واو

كان عندنا فى واو قطيع من الغنم وبضع بقرات كان يخرج بها أحد الجنود كل يوم فترعى خارج الزريبة ثم تعود للمبيت فيها فاتفق ليلة أن باب الزريبة ترك مفتوحاً فجاء ثلاثة أسود مهتدية برائحة البقر والغنم ودخلت الزريبة تريد إفتراسها وكان دخولها خلسة وسيرها بطيئا كما علمنا من آثار أقدامها ثم ما لبثت أن رأت الحارس واقفاً والنار موقدة أمامه فارتدت مذعورة وهى تعدوا عدواً فكانت آثارها وهى داخلة مختلفة عن آثارها وهى خارجة .

ثم بعد أيام رأينا أحد الجنود الموكلين بحراسة الزرع مسرعاً إلى الزريبة وكنت واقفاً مع البكباشي بلنوى فلما رآنا قال الديدبان فى الذرة يريد بالديدان الأسود فأسرع كل منا إلى بندقيته وسرنا معه فلما وصلنا إلى الزرع قال لنا الجنود الذين هناك أن ثيتلا دخل الزرع ووراءه ثلاثة أسود تطارده وكادت تفتك به لكنه نجا منها فرجعت الأسود مغضبة ودخلت أجمة أشاروا إليها ولم تكن على أكثر من مائة متر منا . وبينما نحن نتكلم رأينا رجلا مقبلا نحونا وهو يسير الهوينا وقد وضع حربته على كتفه كأن رؤيته رجال الحكومة جعلته فى مأمن على نفسه ولم يكن يدرى أن الأسود على بضع خطوات منه . وكان سائراً نحوها فلما وصل إليها زأرت زئيراً ارتجت له الغابة فوثب وثبة لا أظنه ينساها . وعلمنا من زئير الأسود مكان وجودها تماماً فسرنا نحوها خطوة خطوة لا يسمع صوت لمشينا فلما ولجنا الأجمة وجدنا العشب فيها قد بلغ أغصان الشجر فلم نقدر أن نرى شيئاً حولنا وما شعارنا إلا والأسود قد زأرت وهى على أربعة أمتار منا لكننا لم نرها بل رأينا اهتزاز العشب لما نهضت وتموجه وهى سائرة وكان الجنود وبعض المتفرجين خارج الأجمة فرأوا الأسود قد خرجت منها ودخلت أجمة أخرى دلونا عليها فدخلنا وراءها وإذا بها قد وثبت على عشر خطوات منا لكن العشب حجبها عنا فلم نر إلا ظهورها فأطلق البكباشي بلنوى الرصاص على أحدها فأخطأه أما أنا فأمسكت عن رميها . وعادت الأسود واختبأت فى أجمة ثالثة فقلت للبكباشي لا أرى فائدة من دخولنا كلينا من جهة واحدة فإن الأسود تجد مخرجاً من الجانب الآخر فما قولك او دخلنا متقابلين قال حسن اذهب إلى الجهة الأخرى . فدرت حول الأجمة ولم أكد أصل إلى جانبها الآخر حتى خرج علىّ أسد والبوتان وقفت لبوة منهما لحظة واحدة فأطلقت النار عليها لكننى خطأتها . ووجدت الأسود أنها بين نارين فأخذت تعدوا من مكان إلى آخر وأنا لا أراها بل أسمع وقع أقدامها كوقع حوافر الخيل ثم مرت أمامى والعشب يحجبها عنى ونجت منا أو بالحرى نجونا منها لأن حسرها بيننا كان خطأ منا .

عودة سبركس بلك

وعاد سباركس بلك وجماعته من بلاد النمانم وكانت الحمى قد أنهكت قواهم ولم نكن نحن فى واو أقوى منهم وكنت مقيما مع كامل أفندى فى منزل واحد والحمى ملازمة لنا . وكان عند سباركس بلك طباخ على جانب عظيم من الظرف لكنه كان شديد الميل إلى الوسكى وهى عزيزة جداً فى تلك البلاد فاستعاض عنها بنبيذ الذرة ويعرف فى السودان بالمريسة . فاتفق يوم وصولهم أنه مر أمام منزلنا فأدخل رأسه ليرى من فيه فرأى كلا منا على فراشه فقال مالكما قلنا هى الحمى قد جعلتنا كذلك . وكان رحمه الله يرى زجاجة الويسكى واو وراء حائط فلمحت عيناه زجاجة عندنا فقال « دى إيه دى » قلنا زجاجة وسكى هل لك فى جرعة منها قال لا بأس وشرب جرعة أبقت فى الزجاجة ثلثيها وانصرف . ثم ما لبث أن عاد يسأل عن صحتنا وبلع جرعة أخرى وكثر اهتمامه بنا وتردداه علينا وعلى الزجاجة فى ذلك اليوم فلما جاء العصر انقطع عنا فقلت لكامل أفندى أظن صاحبنا قد سكر ثم جاء البكباشى هيمس فى الصباح التالى وقال ماذا عملت بالطباخ قلت ماذا أصابه وظننت أنه مات قال قد سكر سكرة لم يفق منها حتى الآن والبلك يرجو منك أن لا تسقيه شيئاً فيما بعد فإنه تركه أمس بغير عشاء قلت هى آخر زجاجة عندى وقد أشفقت عليه لأنه لم يذق منذ ثلاثة أشهر غير المريسة والماء العكر .

اليوزباشى أحمد كامل

هو رفيق من رفقاء هذه الرحلة . اليوزباشى أحمد أفندى كامل . لم أدر وأنا أكتب رسالتى إلى مصر إنه كان فى أقصى أنحاء السودان يقاتل فى مقدمة جنوده هو ومن معه من الضباط حتى قتلوا جميعاً فإن الحكومة أنفذت تجريدة فى شتاء (هذا العام) للاقتصاص من بعض القبائل المتمردة بين أعالى النيل وبلاد الحبشة وقد كان أخى معها فكتب إلى ، يقول إنه سمع من الضباط

المحنكين الذين شهدوا أكثر الوقائع الحربية فى السودان أنهم لم يكابدوا فى المشاق ما كابدوه هذه المرة ثم جاءتنا الأخبار بوقوع بلوك من البيادة الراكبة فى كمين من العصاة فقتل ضباطه جميعهم مما يدل على أنهم كانوا فى مقدمة جنودهم وكان كامل أفندى واحداً منهم .

عرفت هذا الشاب قبل سفرنا فى بحر الغزال وأقمنا هناك سنة لا يكاد يفارق الواحد منا الآخر وكثيراً ما نمنا جنباً إلى جنب الأرض وطاؤنا والسماء غطاؤنا . ورأيت منه شاباً كريم الأخلاق حسن المعشر وضابطاً نشيطاً لا يكاد يعرف الكلل وقد كان له شأن يذكر بعد عودتنا من بحر الغزال فإنه أبلى بلاء حسناً فى موقعة جيروك على النيل الأزرق وقبض بيده على النخاس محمود وكان قد خرج على الحكومة ثم قادته منيته مرة أخرى إلى أعالى النيل حيث وافاه القدر المحتوم فمات الجندى الباسل رحمه الله رحمة واسعة .

النمانم

فى الجزء الجنوبى من بحر الغزال والجزء الشمالى من ولاية الكنغو جيل من الناس يعرفون عند عرب السودان بالنمانم أو النيامنم وقد رووا عنهم قبل دخول الأوربيين إلى تلك البلاد أنهم من أكلة لحوم البشر ولا شبهة الآن فى صحة هذه الرواية . ولفظة النمانم هذه أصلها « نيام نيام » بلغة الدنكا ومعناها شره أو انهم وهو الإسم الذى أطلقه الدنكاويون على هؤلاء القوم فشاع وتغلب على إسمهم الأصلى الذى يعرفون به فيما بينهم وهو الأزندى .

والنمانم على رغم أكلهم لحوم الناس أرقى كثيراً من الدنكا والشلك الجوز والبنقاوا وغيرهم من قبائل السود التى فى بحر الغزال ولابد لإيضاح ذلك من ذكر شىء عن الشعوب والقبائل التى فى السودان فإن الذى لا يعرف هذه البلاد قد يظن أن كل سكانها من جنس واحد أو كلهم سود أو زنوج . الجزء الشمالى والشرقى من السودان سكانه النوبيون (البرابرة) والبجاة وهؤلاء على الراجح من نسل الأسيويين القدماء . أما أواسطه أى من أبى حمد شمالا إلى الرنك جنوباً

فأكثرهم عرب رحلوا إليه فى أزمان مختلفة ولا تزال بعض قبائلهم معروفة بأسمائها العربية كسليم وجهينة وكنانة وغيرها . وفى بعض هذه الأنحاء شعوب من شبه السود كالفنك سكان النيل الأزرق فى أعاليه والفوز سكان دارفور فى الغرب فإذا اجتاز المسافر الأماكن التى فيها العرب وشبه السود دخل منطقة سكانها كلهم زنوج ألوانهم سود حالكة وهم قبائل كثيرة أشهرها دنكا والشلك والنوير فمتى وصل إلى الدرجة الخامسة من العرض الشمالى دخل منطقة فيها جيل من الناس يختلفون تمام الاختلاف عن السود وهذه المنطقة واقعة على جانب خط الاستواء والشعوب التى فيها مزيج من الأسيويين والسود أقل سواد من هؤلاء وأرقى كثيراً فى المدنية وأشهرهم النمانم فى الشرق والفور فى الغرب ويعرف هؤلاء عند العرب بالفلاتة وهم مسلمون متمسكون بالإسلام ومنهم معظمهم سكان الكنغو الفرنسوى ويقيم بعضهم فى السودان المصرى .

وقد كانت رحلة سباركس بك كما مر إلى بلاد النمانم حيث لقيه أحد سلاطينهم واسمه طنبورة . واصعب جدا معرفة أسماء القبائل والأمكنة والسلاطين فى بحر الغزال فكثيراً ما تدعى القبيلة باسم سلطانها أو شيخها ثم إذا مات تغير اسمها بتغيره ولا أدرى هل هذا الإسم أى طنبورة اسم السلطان أو اسم القبيلة . وقد روى سباركس بك وجماعته شيئاً كثيراً عما رأوه فى تلك البلاد فقالوا إن السلطان يعرف العربية وقد كان يدين بالإسلام فى زمن الحكومة القديمة وهو أقرب إلى التمدن من كل السلاطين الذين لقوهم فى تلك البلاد عدد رجاله أربعة آلاف مقاتل بعضهم مسلح بالبنادق والبعض الآخر بالقس والحراب . وقالوا إن الماشية قليلة جداً فى تلك البلاد لكن الزراعة والخيرات كثيرة فيها لاسيما زراعة الموز والذرة والتيلبون . أما لباسهم فهو وشاح يصنعونه من لحاء شجر يعرف عندهم بالركو ينقعونه فى الماء ويدلكونه حتى يلين فيصير كأنه نسيج من الصوف وقد يخيطون منه أثواباً .

أما الحيوانات فى تلك البلاد فكثيرة جداً وهى الأسد والنمر والجاموس والثور الوحشى على أنواعه والكركدن والزراف والنعام والبعام أى الشنبنزى . ولقى البكباشى هيمس قطيعا من القيلة على مقربة من مكان نزل الجنود فيه فانتقى فيلا كبيراً

منها وتبعه حتى صار على مقربة منه وكانت الشمس قد غربت فرماه بالرصاص فجرح لكنه لم يقع بل نجا منه . وكان معه رجل من الأهالى فعادوا إلى المعسكر فلما كان الصباح التالى رجعا إلى المكان الذى كان الفيل واقفاً فيه واقتفيا أثره حتى رأيناه فرماه البكباشى وقتله . وقد قال لى إنه لم يكد يطلق الرصاص عليه حتى رأى فيلا آخر وراءه كاد أن يلمسه بخرطومه ففر منه ثم عاد وقطع نابى الفيل الذى قتله ولحق بالجنود وكانوا قد ارتحلوا من مكانهم .

التماسيح فى أعالى النيل

كانت التماسيح فى زمن الفراعنة كثيرة جداً فى مصر فقد روى هيرودوتس أن الكلاب إذا وردت النيل دلفت الماء وهى تعدو خوفاً من التماسيح . وقد انقرضت التماسيح من مصر شمالى أصوان وقلما يرى واحداً منها بين أصوان والخرطوم أما من الخرطوم إلى منابع النيل فلا يعلم عددها إلا الله والنزول فى الماء فى بعض الأماكن لا سيما فى الأنهار الصغيرة التى تمد النيل ضرب من الجنون فقد ذكر لى أحد الضباط أنه وقف مرة على شاطئ نهر التونج وعد التماسيح التى رآها وهو واقف فى مكانه فكانت أربعة وثلاثين تمساحاً بعضها فى الماء وبعضها على شاطئ النهر . ويقال إنه قلما يقتل تمساح كبير فى أعالى النيل ولا يرى فى أمعائه مالا يقوى على هضمه من آثار الآدميين كالشعر والخرز وأساور النحاس وكثيراً ما كانت التماسيح تفترس حميرنا إذا قربت من الشاطئ لترد الماء .

واتفق مرة أن جنوداً جاءوا من مشرع الريك ومعهم حمير ويقال أرسلت إلينا من أم درمان بدل الدواب التى ماتت فلما وصلوا وقد بقى النهر بيننا وبينهم قال لى البكباشى بلمنوى خذ القوارب وات بهم فنقلت الحمير فى القوارب أما البغال فلم أتمكن من نقلها فيها لأنها كانت صغيرة ولا يسع الواحد منها بغلا واحداً فكنت أجعل لكل قارب بغلين أنزلهما فى الماء فيجرها الجنود وهم فى القارب حتى إذا وصلوا بهما إلى الجانب الآخر من النهر عادوا وأخذوا غيرهما

وهكذا حتى عبر أكثرها وبقى بغلان منها فلما وصل الجنود بهما إلى منتصف النهر رأيت كأن تياراً دفعهم وهم يجذفون بكل قواهم ثم كأنهم تغلبوا على التيار ووصلوا إلى الضفة الأخرى وخرجوا بالبغلين . وكنت لا أزال واقفاً على الجانب الآخر من النهر فرأيت بغلا منهما بغير ذنب فعبرت لأرى ماذا أصابه فإذا ذنبه مبتور وقطعة كبيرة من فخذه قد ذهبت وهو يشخب دماً فعلمت أن تمساحاً قبض عليه فى الماء وجره ولم يتركه حتى أخذ ذنبه وقطعة كبيرة من فخذه . وقد بقى هذا البغل حياً وعاد معى بعد ذلك بشهرين إلى مشرع الريك .

سفر سباركس بك إلى مصر

واشتدت الحمى علينا ولزم سباركس بك منزله فكان لا يخرج منه إلا نادراً ولم تكن الحمى تفارقه وثقلت وطأتها علىّ فلزمت فراشى . وجاءنى البكباشى هيمس عداندا فقال هل تريد شيئاً قلت سيأتينى من أم درمان شىء كثير من الخرز والنحاس فى البريد القادم فحبذا لو أعطانى سباركس بك منه خرزة من خرز الحكومة أشترى بها شيئاً من اللبن حيناً بعد آخر قال سأسأله ذلك ثم ما لبث أن عاد ومعه خمسون خرزة وقال ليس عند الحكومة إلا خمسمائة خرزة وهى لا تكفى لمشترى القوت للعساكر لكن عندى مائة خرزة فخذ نصفها خمسون خرزة شىء يسير جداً لكن لم يكن فى واو غيرها وغير الخمسمائة التى فى مخازن الحكومة هى كل ما عندها فكأنه أعطانى نصف ثروته . وعزم سباركس بك على السفر إلى مصر فأناب عنه البكباشى بانوى وجمع الجنود والضباط وودعهم وسار إلى مشرع الريك ومعه البكباشى هيمس وكامل أفندى ومحمد أفندى على وبعض الجنود فقال لى البكباشى هيمس إبق هنا بضعة أيام ثم الحق بنا واتفقنا على أن أكون فى مشرع الريك فى أول سبتمبر فأسافر فى الباخرة التى تنقل البريد منا فى أول كل شهر إلى التوفيقية على النيل الأبيض ثم انتقل هناك إلى الباخرة التى تنقله منها إلى الخرطوم وكانت قد صارت عاصمة السودان وانتقلت إليها دواوين الحكومة من أم درمان فى غيابنا واتفق بعد سفرهم أن البكباشى

بلنوى ضعفت قواه كثيراً فأشرت عليه بالسفر معى فأبى فقلت أبقى إذاً معك قال لا بل تسافر وألح على بالسفر وقال إن البكباشى هيمس يكون فى واو بعد أيام فلا أبقى وحدى زمنا طويلا فلما جاء اليوم المعين رأيته كأن الوحشة قد غلبت عليه فقال حبذا لو بقيت معى أياماً قلت أبقى أشهراً . وكان البكباشى هيمس فى مشرع الريك ينتظر وصولى ولم يعلم أنى بقيت فى واو فلما لم أصل فى اليوم المعين ظن أن مكروهاً أصابنى على الطريق فأنفذ رسولا ومعه كتاب قال لى فيه « قل لى أين أنت الآن وماذا أصابك إن الباخرة تنتظرك إلى مساء اليوم الأول من الشهر » فأخذ الرسول عصا وشق أحد طرفيها ووضع الكتاب فى الشق وسار على قدميه ثمانية أيام حتى وصل إلى واو ثم جاء البكباشى هيمس بعده ببضعة أيام فدهش لما رآنى وقال ظلمتك فى العالم الآتى .

العودة إلى مصر

وبقيت فى واو إلى موعد البريد التالى فلما حان وقت السفر أرسلت أمتعتى إلى الضفة الأخرى إلى النهر وبت هناك وسرت فى الصباح التالى ومعى عشرة جنود وعشرة حمالين وكان معنا فى واو خمسة مسجونين حكم عليهم فى مصر بالأشغال الشاقة مدى الحياة لارتكابهم جناية القتل وقد مضى على كل منهم بضع عشرة سنة فى سجون ترى وسواكن وأم درمان وكانت صناعة بعضهم البناء والبعض الآخر النجارة فأرسلتهم الحكومة إلى واو لبناء المنازل وكانوا بغير قيود فى أرجلهم لأن لا خوف من فرارهم فى تلك البلاد والفرار فيها أشد خطراً من البقاء فى ضيافة الحكومة وكان اثنان منهم سوريين أحدهما من حوران وهو شيخ كبير ذو لحية بيضاء والثلاثة الآخرين مصريين فأصيب أحد هؤلاء المسجونين بالحمى فأخذته معى إلى الخرطوم وكان اسمه عبد الرحيم وهو من كبار الأشرار وارتكب القتل مراراً منها مرة وهو فى السجن فحكم عليه بسبع سنوات أخرى أى أضيف صفر من السنين إلى مدة الحكم السابق ولعل هذا الصفر كان مكافئة له لأن المقتول كان سجيناً آخر لا يقل عنه شهرة ولما كان عبد الرحيم

هذا نحيف البنية وقد ربى فى رفاهة من العيش أركبته البغل الأبتر الذى مر ذكره ولم يكن معى غيره من البغال فكان هو يركب وأنا أسير على قدمى فسرت ثلاثة عشر يوماً وعبد الرحيم لا يفارق ظهر البغل ولعله لا يزال حتى الآن يسرح ويمرح فى ضيافة الحكومة وسرنا من واو فى أوائل أكتوبر وفصل المطر فى أواخره وكانت المياه قد غمرت البلاد فى كثير من الأماكن والعشب قد ارتفع إلى ما يزيد على قامة الإنسان فكنا تارة نخوض المياه أميالا وتارة نسير بين العشب فيعيقنا عن السير فنفرقه بأيدينا وبعد مسير ثلاثة أيام والحمى ملازمة لى خارت قوايا وانتزحت تحت شجرة لا أعى على نفسى وبقيت كذلك يوماً كاملا ثم أفقت وعدنا إلى المسير ولم نرى من الصيد فى هذه السفرة إلا نعامة وظليما فقتلت الظليم وأخذت ريشة . وبلغنا مشرع الريك وبعد مسير ثلاثة عشرة يوماً فلقيت هناك الضباط الذين جاءوا من أم درمان بدلا منا وكان بينهم البكباشى سكوت باربور وهو لا يكاد يصدق أى متى يأتيه الأمر بالسفر إلى داخل البلاد ولم يكن يعلم ما قدر له من غدر الأهالى به ولم تأت باخرة البريد فى اليوم المعين وكنت أخاف أنها إذا تأخرت عن المجىء لا أصل إلى التوفيقية قبل قيام البريد منها فيأست من وصولها وعلمت أنى سأبقى شهراً آخر فى بحر الغزال وإذا باخرة تصفر فأسرعت إلى شاطئ النهر لأراها فإذا هى باخرة اللفتننت فل فظننته قادماً من بحر الجور لأخذ المؤونة كالمعتاد فلما رآنى قال أسرع إلى الباخرة وآتى بأمتعتك فقد علمت أنك فى انتظار باخرة البريد ولما لم أرها مرت بى فى طريقها إلى المشرع جئت بباخرتى لأوصلك إلى التوفيقية قبل سفر البريد منها فنقلت أمتعتى وودعت الضباط والجنود وصعدت الباخرة وأنا أكاد أطير فرحاً وقبل مسيرنا بقليل رأينا البكباشى بلنوى قادماً من واو فقلنا له ماذا جاء بك قال قد أجبرنى البكباشى هيمس على السفر إلى مصر ثم صعد معنا إلى الباخرة وأقلعت بنا فكنا نسير ليلا ونهاراً حتى وصلنا إلى التوفيقية فإذا باخرة البريد قد أقلعت منها فواصلنا السير ولحقنا بها فى فاشوده وصعدنا إليها ثم شكرنا اللفتننت فل ثم ودعناه وعاد هو إلى بحر الغزال وسرنا نحن شمالا إلى الخرطوم فوصلناها فى أواسط شهر أكتوبر وكانت عيناى لا تفارق عبد الرحيم لأنه صار فى بلاد مأهولة ويخشى

فراره فسلمته إلى السجن وذهبت إلى المستشفى وبعد أيام سافرت إلى مصر فوصلت إليها بعد قيامى من واو بستة وأربعين يوماً .

خاتمة الرحلة

ذكرت رجوع أكثر الضباط الذين كانوا فى بحر الغزال وسأذكر ما حدث فى تلك البلاد بعد عودتنا منها وما أصاب الضباط الذين كانوا معنا مما لم أذكره فى سياق الرحلة .

مقتل البكباشى سكوت باربور

هو أحد الضباط الذين لقيتهم فى مشرع الريك فى طريقى من واو إلى الخرطوم ولم أكد أرتحل من بحر الغزال حتى سافر من مشرع الريك إلى رومبك ثم سار منها إلى بلدة يقال لها شامبى على النيل الأبيض بين مقاطعة اللادو وفاشودة وكان قد جاءها على باخرة من الخرطوم تحمل فصيلة من الجنود وثمانية وعشرون جملا وحمارين وبغلا فأنزل الجمال والدواب وسار بها عائداً إلى رومبك ومعه تسعة من الجنود المصرية وتسعة جنود سودانية وبعض المهاجرين وبعد مسير بضعة أيام وصل فى صباح العاشر من شهر يناير ١٩٠٢ — إلى نهر يعرف ببحر النعام فنزل عليه للمقيل وسرح الجمال والدواب وتفرق العساكر هنا وهناك بعضهم للعمل وبعضهم فى طلب الراحة وكانت النهر بطيحة صغيرة قد اجتمعت فيها أفراس النهر فأخذ آلة تصوير كانت معه وذهب ليصورها ثم صاد ثيتلا للجنود وعاد إلى المعسكر فوجد أن شيخ تلك الناحية واسمه إميانج متيانج قد بنى له سقيفة فجلس تحتها وجاء جماعة من الأهالى وهم من عشيرة من الدنكا تعرف بالأفار فأخذوا يتمشون فى المعسكر ذهاباً وإياباً واختلطوا بالجنود فلم يظن أحد بهم سوء لأنهم كثيراً ما كانوا يفعلون ذلك متى رأوا جنوداً نازلة بينهم وجاء إميانج ومعه أخواه ورجلان آخران ودخلوا فى السقيفة مسلمين ومع أحدهم قدح

من البن فقدمه للبكباشى وجلسوا يحادثونه ثم غافله أحدهم واختطف بندقيته وكانت بجانبه وطعنه آخر بحربته وهجم الرجال الذين بالمعسكر على الجنود وهم غافلون وقتلوهم طعناً بالحراب فلم ينج أحد من المصريين أما السودانيون فنجا منهم أربعة واحد عبر النهر سباحة وعاد إلى شامبى والثلاثة الآخرون فروا إلى رومبك وأخبروا بما رأوا فأنفذت الحكومة سريتين لقتال الآفار والاقتصاص منهم فسارت إحداهما من الروميك يقودها الميرالاى هنتر بلك والأخرى من شامبى وقائدها الميرالاى ستاك بلك وجرت عدة مناوشات بين الجنود والأفار انهزم فيها العصاة وقتل كثيرون منهم وتشتت شمل الباقين وشهد البكباشى هيمس هذه المعارك وأبلى بلاء حسنا وجرح جرحاً خفيفاً ولما وصلت الجنود إلى المكان الذى قتل فيه سكوت باربور والذين معه لم يروا إلا عظاماً مبعثرة ولم يجدوا من رفاته إلا جمجمته وقد عرفوها من أسنانه وكان بعضها محشواً بالذهب ثم عثروا على بعض ملابسه وكانت الحراب قد مزقتها تمزيقاً .

مقتل القائمقام ارمسترنج بلك

هو أحد الضباط الذين دخلوا بحر الغزال — بعدنا فلما كانت سنة أوائل ١٩٠٣ أخذ سرية من الجنود السود وجاويشاً إنكليزياً وصار قاصداً ناحية من بلاد النمانم عليها سلطان يقال له يانبيوا فبعد مسيرة بضعة عشر يوماً وقد اقترب من حدود بلاد السلطان نزل فيه أحد الأيام للمقيل ثم لما جاء العصر خرج فى طلب الصيد ومعه جنديان فرأى قطيعاً من الأفيال فانتقى فيلا منها وأخذ يقترب منها شيئاً فشيئاً ووقف الجنديان يرقبانه وإذا فيل قد هجم عليه من ورائه وهو لا يعلم فصرخ الجنديان الفيل الفيل فظن أنهما ينبهانه للفيل الذى أمامه فلم يلتفت وراءه بل أشار إليهما أن يسكتا وبقى سائراً والجنديان يناديانه ويقولون الفيل . الفيل . وكان الفيل قد دنا منه كثيراً فلم يريا بداً من إطلاق النار عليه لإيقافه أو صده عنه فلما سمع أرمسترنج بلك إطلاق النار التفت وراءه وإذا فيل هائل قد لف عليه خرطومه وقذف به فى الهواء . ولما سقط أخذ يطعنه بنابيه ويدوسه

بأرجله حتى هشمه تهشيما والجنديان لا يزال يطلقان الرصاص عليه وهو لا يرجع عنه ثم تركه وسار فى طريقه . ولما سمع الجنود الذين فى المعسكر إطلاق الرصاص ظنوا عدواً فاجأ قائدهم فهبوا لنجدته وساروا فى الجهة التى سمعوا الصوت منها فإذا الجنديان عائدان فأخبراهم بما رأيا . ولما وصلوا إلى المكان الذى كان فيه لم يعرفوه لولا ثيابه وشهادة الجنديين الذين كانا معه . وعلم ما نفى ابن السلطان ونائبه فى تلك النواحى بما أصاب قائد السرية فأخذ يدبر لها المكايد فى سيرها وعلم الجاويش أنه يريد الغدر بها فى ليلة معلومة فأوقد النيران وترك الأمتعة والدواب ليوهم الأعداء أنه غافل عنهم وانسل هو والجنود فى أوائل الليل وقفل بهم عائداً إلى التونج وجد فى السير حتى قطع فى الليلة الأولى أربعين ميلا ولم يقف حتى علم أنه قد نجا هو ومن معه .

مقتل البكباشى هيمس

وفى أوائل سنة ١٩٠٤ أنفذت الحكومة سرية أخرى لاحتلال بلاد السلطان يا نبيو وكان له ابنان أحدهما مانفى الذين مر ذكره والآخر يقال له ركيتا وهو عامل أبيه من ناحية أخرى ولما وصلت الجنود إلى بلاده فاجأها على غرة وكان البكباشى هيمس فى مقدمتها . وقد أخبرنى من شهد هذه الموقعة أنه وقف يقاتل وحده حتى سقط فى مكانه فلما وصل الجنود إليه وجدوه مصاباً بجرح فى رأسه وحوله جثث الأعداء فحملوه إلى التونج حيث توفى بعد أيام . وبعد مضى سنة سار الميرالاى بانوى بك بفصيلة من الجنود قاصداً بلاد يانبيو فجرت بينه وبين السلطان موقعة وحده قتل فيها السلطان وبعض رجاله واحتلت الحكومة بلاده .

هؤلاء هم الضباط الذين قتلوا فى تلك البلاد وكنت أود أن أختم رسالتى بما يسر القراء لكن لابد من ذكر ما أصاب سائر رفقاء هذه الرحلة . فسباركس باشا عين بعد عودتنا مديراً لسواكن ثم سافر إلى بلاد الإنكليز وتوفى فيها . وعاد الميرالاى بانوى بك والقائمقام فل بك إلى بحر الغزال وتوفيا هناك . وبقى الصاغ قولاغاسى على أفندى وهبى والملازم الأول محمد أفندى صبرى فى تلك البلاد

وتوفيا فيها وقتل اليوزباشى محمد أفندى على فى إحدى مواقع كردفان واليوزباشى أحمد أفندى كامل فى تجريدة الأنواك كما مر سابقا .

مستقبل البلاد

يتوقف مستقبل تلك البلاد وغيرها من الأنحاء الاستوائية على إبادة البعوض منها فبحر الغزال بلاد واسعة الأرجاء وافرة كثيرة المياه . هى جنة من جنان الدنيا لولا هذه الحشرة الصغيرة التى قوضت أركان الشرق وقضت على دولتى اليونان والرومان . والحرب قائمة الآن بين البشر وبين هذه الحشرات التى تنقل هذه الأمراض كالبعوض والذباب الأهلى وذباب مرض النوم والبق والبراغيث ولعل البعوض أشدها ضرراً بالإنسان وهو والمشاحانات الدينية أعظم الضربات على البلدان الشرقية . أما كثرته فى بعض الأنحاء الاستوائية فتفوق الوصف وليس من السهل إبادته منها فالمستنقعات التى يتولد فيها مساحتها ألوف من الأميال ويتعذر صرف المياه منها لأن أكثرها سهول منبسطة ولأن الأماكن التى تجرى فيها منابع النيل وسواعده فى أعاليها كانت كلها بطيحة واحدة فى سالف الدهر ولا يزال سطح الماء فيها على نسبة واحدة تقريباً .

أما هواء البلاد فمعتدل جداً فى الشتاء وهو فصل الجفاف فى الأنحاء الاستوائية ورطب جداً فى فصل الصيف وهو فصل المطر فيها ويقال بوجه الإجمال أن حرها أقل من حر البلدان التى على جانبى المدارين كصعيد مصر والنوبة وبعض أنحاء بلاد العرب كالحجاز وتهامة وغيرها من البلدان كبلواخستان وبعض أنحاء الهند وأستراليا .

وقد مر بنا ذكر الغابات وكثرتها فى تلك البلاد وما فيها من الشجر وأهمها شجر المطاط وكثرة حيواناتها ومراعيها الطيبة وخصب أرضها ففيها من موارد الرزق شىء كثير لكنها ستبقى للسود ولا يقوم للبيض فيها قائمة ما زال البعوض فيها .

الدكتور أمين المعلوف

ولد الفريق الدكتور أمين المعلوف فى الشويفات بلبنان عام ١٨٧١ وتلقى علومه فى الجامعات الأميركية فى بيروت وحصل على دبلوم كلية الطب (١٨٩٤) وفى سنة ١٨٩٨ جاء مصر والتحق بالقسم الطبى (الجيش المصرى) برتبة الملازم الأول وبقى به إلى ١٩٠٦ بعد أن ترقى لرتبة يوزباشى وقد شهد معركة أم درمان ورافق حملات الكاكا وبحر الغزال وغيرهما . وفى عام ١٩١٥ انتظم فى الحرب العظمى برتبة يوزباشى ووكيلا لكبار أطباء فرقة العمال فى مصر ثم استقال وعينه المغفور له الملك حسين كبيراً لأطباء الجيش والصحة فى الحجاز ثم استقال والتحق بالجيش العربى برتبة قائمقام ورافق الجيش المذكور عند فتح سوريا ولما استقرت الحالة عين فيها مديراً للكلية الطبية العربية ومستشاراً بوزارة الخارجية فى عهد اعتلاء المغفور له الملك فيصل عرش سوريا وقبل أن يدخل الجيش الفرنسى إلى دمشق ترك سوريا وعين فى سنة ١٩٢١ مديراً للأمور الطبية فى الجيش العراقى برتبة عقيد (قائمقام) ثم رقى إلى رتبة زعيم (أميرالاى) وأحيل إلى المعاش عام ١٩٣٣ برتبة فريق وتوفى سنة ١٩٤٣ ومنح فى خلال خدمته عدة أنواط ونياشين وكان فى جميع خدماته لم ينقطع عن الدرس والبحث والتأليف . ونشرت له عدة مقالات علمية فى المجلات المعروفة إذ ذاك وبينها المقتطف .

ومن أشهر مؤلفاته المطبوعة : معجم الحيوان والمعجم الفلكى (بالعربية والإنجليزية)

راجع عنه :

١ — رفائيل بطى : لغة العرب ٤ عام ١٩٢٧ ص ٣٩١ — ٣٩٢

٢ — الأمير مصطفى الشهابى : مجلة المجمع العلمى العربى دمشق ١٨ (١٩٤٣) ص ٢٥٨ — ٢٥٩

٤ — الدكتور مرشد خاطر : المقتطف ١٠٢ (١٩٤٣) ص ٤١٧ — ٤١٨

٥ — محمود مصطفى الدمياطى : المقتطف ١٠٢ (١٩٤٣) ص ٤٧٩ — ٤٨١

٦ — رسائل أحمد تيمور باشا إلى الأب أنستاس مارى الكرملى : ص ٨٤ طبعة كوركيس عواد وميخائيل عواد بغداد ١٩٤٧

استقينا هذه المعلومات من السيدين كوركيس عواد ببغداد وسامى الجسرى فى القاهرة فلهما الشكر

(المحرر)

المسألة السودانية

The Sudan Question

تأليف مكى عباس

الكتاب الذى نحن بصدد عرضه ، واحد من تلك السلسلة المسماه « دراسات مقارنة عن المستعمرات » . وتحرر هذه السلسلة مارجرى پرهام .

ومؤلف هذا الكتاب السيد مكى عباس الذى كان يشغل وظيفة بمصلحة المعارف ، ثم عين عضواً بالمجلس الاستشارى لشمال السودان عند إنشائه ؛ وهو الآن مدير لجنة مشروع الجزيرة بالسودان . وفى الفترة ما بين عامى ١٩٤٨ — ١٩٥١ ، منحت مؤسسة رودس المؤلف بعثة دراسية فى إنجلترا قضاها بكلية براسنوز حيث قام ببحثه الذى تمخض عنه هذا الكتاب .

والشىء الملحوظ على هذا الكتاب — هو المجهودات التى بذلتها المشرفة على تحرير هذه السلسلة والتى قد يفهم عنها عدة أشياء . . . فهى لم تكتف بمجرد الإشراف على إخراج الكتاب ونشره . . . ولكنها تولت أيضاً إضافة الكثير من الحواشى التى لم يكن هناك داع إليها . . . لأنها أفقدت الكتاب قيمته كبحث علمى لنيل درجة البكالوريوس فى الآداب . . . وأحالته إلى قطعة من الدعاية الرخيصة

* * *

والنقاط التى يبحثها الكتاب ثلاثة ؛ أولاها هل استفاد السودان من الحكم المصرى قبل الثورة المهدية أو أن الفضل فى كل تقدم أحرزه هذا القطر إنما يرجع إلى بريطانيا ؟ وثانية هذه النقاط تتساءل إن كان لمصر مطلب عادل فى السيادة على السودان أم لا ؟ وإن كان لها ؛ فهل تشاركها بريطانيا هذا الحق كإحدى دولتى الحكم الثنائى ؟ وثالثة النقاط تبحث فيما إذا كانت هناك أصول

شرعية للوحدة بين مصر والسودان . . . أو هل من الواجب أن ينفصل السودان عن مصر مراعاة للروابط القوية التي تربطه ببريطانيا ؟

هذه النقاط الثلاثة لها أبلغ الأثر فى تحديد الحلول للموقف الراهن فى السودان ولهذا السبب وحده ؛ كان من اللازم أن يكون هذا الكتاب عملا علمياً واضحاً صريحاً لا التواء فيه ولا بهتان . . . وأن يكون خالياً من الأخطاء الملموسة ، سواء أكانت مقصورة أم جاءت عفو الخاطر .

فنحن نجد المؤلف يستعرض الحكم المصرى فى السودان . . . فيظهره بمظهر لا يمت إلى الحقيقة والتاريخ بصلة ما . . . فهو يصمه بالفساد وسوء الإدارة وأمعن فى مهاجمته إمعاناً مبالغا فيه مما جعل القارئ العادى يشك فيما كتبه . ونحن نذكر هنا أن المؤرخين قد أثبتوا بأدلة قاطعة لا تقبل الشك ، أن السودان تحت الحكم المصرى السابق ، كان يمارس الحكم الذاتى على أوسع نطاق ، وأقرب الأمثلة على ذلك أنه حينما اندلعت الثورة المهدية ، كانت كل المراكز الرئيسية تقريباً فى الحكومة المحلية والمركزية يشغلها سودانيون .

ويعود المؤلف إلى مواصلة تهجمه فيقول إن الثورة المهدية قامت نتيجة ستين عاماً من الحكم المصرى ، وذلك فى الوقت الذى أضحت فيه الحقيقة التاريخية معروفة ، وهى أن الثورة المهدية ما قامت إلا نتيجة السياسة العنيفة التى كان يتبعها غردون وضباطه الأوروبيون والمرتزقة فى قمع تجارة الرقيق ؛ حينما كان حاكماً عاماً للسودان فيما بين عامى ١٨٧٧ و ١٨٧٩ — وهذه السياسة كان لها أثر بعيد فيما بعد . . . وذلك حينما انتقم الدراويش من غوردون باغتياله فى يناير ١٨٨٥ ، ونحن نرى المؤلف يمر بهذا الحادث الهام دون أى إشارة أو تعليق ، اللهم إلا من بعض كلمات تؤلم المسامع ، إذ يقول إن الانتقام لغوردون كان دافعاً قوياً للجندى البريطانى ، ومبرراً كافياً للأمة البريطانية ؛ حينما قررت بريطانيا استعادة السودان بعد ذلك بثلاثة عشر عاماً ولا بد لنا هنا من أن نذكر تلك الحادثة المؤلمة المخزية التى ارتكبها البريطانيون ، وهى تهديم قبة المهدى ، ونبش قبره ، وقذف عظامه فى النيل بعض فصل الجمجمة عن الهيكل . ثم أخيراً عمل جمجمته منفضة سجاير للملكة فكتوريا .

* * *

ولنتوقف هنا قليلا لنرى موقف المؤلف مما سماه خدمات بريطانيا للسودانيين . . . إن السيد مكى عباس يذكر ضمن ما يذكر من الخدمات التى بذلت قبل فتح السودان فى عام ١٨٩٨، المجهودات التى بذلها البريطانيون لقمع تجارة الرقيق ، متجاهلا الجهود التى بذلها الحكام المصريون فى هذا الصدد ثم أنه يتحدث عن رحلات، جرانت وسبيك إلى أعالى النيل . . . ولا يحرك ساكناً إزاء ما صنعه المصريون والأمريكيون ، وأما عما بعد عام ١٨٩٨ ؛ فهو يمحو بجره قلم ما بذلته مصر من مجهودات فى إدارة ورفاهية السودان .

وقد ظهرت فى الأعوام الأخيرة عدة كتب ورسائل اتخذت طابع الدعاية لوجهة نظر بريطانيا لأسباب ليست بخافية ؛ والذى يهمنا من ذلك هو إحدى هذه الرسائل التى اتخذ لها عنوان « السودان . . . والطريق أمامه » وهى تقرير مقدم إلى مكتب المستعمرات بجمعية الفابيان . ولقد دهشت للتشابه التام بين هذه الرسالة وبين كتاب السيد مكى عباس من حيث تجميع الحقائق وصبغة النقاش الأمر الذى لا يمكن أن يكون وليد الصدفة خاصة وأن السيد مكى عرض التطورات فى السودان بعد عام ١٩٤٦ — على نفس النهج الذى اتبع من تلك الرسالة ، الأمر الذى يدعونا إلى القول إن هذا الكتاب ، ما هو إلا امتداد وتوسع لتلك الرسالة الاستعمارية .

وهذا الحديث يجرنا إلى النقطتين الأخريين من كتاب السيد مكى ، وهما السيادة والوحدة ، الأمران اللذان لم تذكر تلك الرسالة عنهما شيئاً ، لأن هاتين النقطتين برزتا بعد طبعهما نتيجة الصراع السياسى فى السودان بين أولئك الذين يريدون له أن يظل مكبلا بقيود بريطانيا الاستعمارية ؛ وبين أولئك الذين يريدون لوطنهم أن ينال حريته عزيزاً مكرماً .

إذا . . . ما لذى يقوله المؤلف عن هاتين النقطتين ؟

كما نتوقع يبدأ المؤلف فينفى أن لمصر أى سيادة على السودان ورأيه فى ذلك أن هذه السيادة ، انتقلت إلى مصر عن طريق تركيا . . . فى حين أن تركيا تخلت تماماً عن كل هذه الحقوق فى معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ .

ليس هناك أى مجال للجدل القانونى عن مدى هذه الحقوق وامتدادها . .
لكن حينما تبرز هذه الفكرة . . . نجد تسلسلا فكرياً يقود إلى القول بأن السودان
لكن حينما تبرز هذه الفكرة . . . نجد تسلسلا فكرياً يقود إلى القول بأن
السودان أصبح كتلة سياسية لها حق السيادة التامة ؛ وقد وجد المؤلف سنداً
للقول بإنهاء السيادة المصرية منذ معاهدة لوزان ؛ ومنذ كتابات دكتور
أورورك العالم السياسى الأمريكى الذى يقول إنه من أثناء المهدية أصبح السودان
قطراً مستقلا ذا سيادة .

ورغم أنه قد تبين تماماً أن السيادة المصرية على السودان قد زالت بموجب
معاهدة لوزان . . . فأصبح السودان قطراً مستقلا ذا سيادة . . . إلا أن السيد
مكى يعجز فى الوصول بنا إلى هذه النتيجة ، بل ولا يشاطرنا هذا الرأى . . .
لا لسبب فيما يبدو إلا ليدخل بريطانيا طرفاً ثانياً فى سيادة يزعم أنها برزت إلى
الوجود فى عام ١٨٩٨ .

ويجب أن يفهم أن العلاقة بين مصر والسودان ليست العلاقة بين دولة تريد
أن تكون لها سيادة على الدولة الأخرى . وإنما العلاقة . . علاقة بين دولتين
شقيقتين اتحدت مصالحهما .

وعلى هذا النهج ، يعالج المؤلف النقطة الثالثة والأخيرة . . . فهو يحطم
فى حركة مسرحية كل الروابط التى قامت بين شقى الوادى منذ أقدم العصور .
ففى نظره مثلا يجب ألا تكون مسألة التصرف فى مياه النيل سبباً مفتعلا للوحدة
بين مصر والسودان .

أما فى الفصل الذى عقده بعنوان « مصالح مصر الأخرى فى السودان » فهو
يقول إن المصريين الذين لم يسهموا بدور إيجابى فى تكوين السودان الحديث
إنما يقصدون بالوحدة الاستغلال الأنانى غير العادل للسودان .

ولقد حاول المؤلف أن يتلمس شتى المعاذير لمحاولات البريطانيين من
فصل جنوب السودان عن شماله ؛ وحينما اضطرت الظروف السياسية فى عام
١٩٤٨ الإنجليز أن يخففوا من غلواء سياستهم فى فصل الجنوب عن الشمال . . .

اتخذ المؤلف من هذا مثلا يبرر به حسن نية بريطانيا تجاه هذه المسألة . والنقد القليل الذى حاول به المؤلف أن يوجهه ضد هذه السياسة . . . قد أصاب دون أن يشعر المشرفة على إخراج هذا الكتاب ـ بضربة قاصمة . . . وذلك لأنها قالت فى مقدمة الكتاب « إنه لم يستطع أن يوضح قوة وجهة نظر بريطانيا فى مسألة خطيرة كهذه . . . » وهى كلمات جوفاء لا أساس لها ولا غرو فهى صادرة من المشرفة على تحرير سلسلة دراسات مقارنة عن المستعمرات .

ولعل السيد مكى عباس يثق بالإنجليز ثقة عمياء جعلته يتحاشى أن يذكر لنا أسباب فشل الشركة الزراعية بالسودان . . . والتى كانت مسئولة عن إدارة مشروع رى الجزيرة ولعله أيضاً وللسبب عينه يتحاشى أن يذكر لنا السبب فى أن الصادرات والواردات بين السودان وبريطانيا فى ازدياد مضطرد . . . بينما هى بين السودان ومصر فى تناقص مستمر .

وننتقل الآن إلى الحلول التى ارتآها المؤلف لقضية السودان . . . فهو يقول « وأعتقد أن الأسس التى وضعها مستر موريسو فى مقترحاته كافية للوصول إلى التسوية المرضية » ويجدر بنا أن نذكر أن هذه الاقتراحات قد عرضت فى ١٤ أكتوبر ١٩٥١ ـ قبيل إلغاء معاهدة ١٩٣٦ واتفاقيتى السودان . وأبرز هذه المقترحات تكوين لجنة دولية من مصر وبريطانيا وأمريكا والسودان للإشراف على التطورات الدستورية وإسداء النصح للحكومة القائمة فى السودان . والهدف من ذلك هو تمكين السودانيين من الوصول إلى الحكم الذاتى سريعاً دون التقيد بفترة معينة . وبعد أن يتم ذلك يكون لهم حق تقرير علاقتهم مع مصر بالشكل الذى يرتضونه .

ولسنا هنا بصدد التعرض لهذا الحل بالمدح أو الذم ، وإنما نسجل أن المؤلف تقدم ببعض تعديلات لإرضاء طرفى الحكم الثنائى ؛ وتقريب وجهات النظر . ومما أذكره هنا أنه لم يكن بين هذه التعديلات ضماناً لحرية رأى السودانيين وأول هذه الضمانات هو جلاء الجيش البريطانى عن السودان .

ومن الإضافات التى ألحقت بالكتاب ، نشر المؤلف وثيقة سرية قدمت

فى ١٠ نوفمبر سنة ١٨٩٨ من اللورد كرومر إلى سالسبورى وزير الخارجية وقتئذ ، ومرافق معها مسودة لاتفاقية ١٨٩٨ لكى تمهر فى القاهرة فى ١٩ يناير ١٨٩٩ .

والذى نخرج به من هذه الوثيقة السرية ومن الاتفاقية ومن الحكم الثنائى هو أن بريطانيا تحاول أن تثبت لنفسها ادعاءها بالسيادة على السودان ، وتحاول وضع الجزء الجنوبى تحت الحكم البريطانى الخالص .

أما الجدل التاريخى الذى أورده المؤلف فى ختام كتابه . . . فهو وإن لم يكن كاملا إلا أنه قيم فيما يتعلق بالتطورات الحديثة فى السودان .

ونحن نأسف إذ نقول أن للكتاب صبغة صحفية أخرجته عن مجال الرسالات العلمية . . . وعندى أنه كان ممكن تفادى ذلك لو استطاع مؤلف الكتاب أن يستفيد من المصادر العديدة التى ذكرها .

محمد المعتصم سيد

المُغرب فى حُلى المغرب
لابن سعيد الأندلسى

قدم له الدكتور زكى محمد حسن — وعنى بنشره وتحقيقه الدكتور زكى محمد حسن والدكتور شوقى ضيف والدكتورة سيدة إسماعيل كاشف

من منشورات كلية الآداب . مطبعة جامعة القاهرة — ١٩٥٣

فى ٤١٩ صفحة من الحجم الكبير

ينسب هذا الكتاب إلى ابن سعيد المغربى الأندلسى . لكن الدقيق أن الذى ألفه ليس ابن سعيد وحده . وإنما ألفه بالموارثة فى مائة وخمسة عشر عاماً ستة من أدباء الأندلس . تناولوه بالتنقيح والإضافة واحداً بعد الآخر . وقد سجل ذلك فى مواضع كثيرة من المخطوطة المحفوظة بدار الكتب .

وقد كان حسناً أن يقول الدكتور زكى محمد حسن فى كلمة التصدير « أنه من حق مصر الإسلامية علينا أن نعنى بإخراج القسم الخاص بمصر من كتاب « المغرب » بوصفه مرجعاً أساسياً من مراجع تاريخها السياسى والأدبى فى العصور الوسطى » .

والثلاثة الذين تعاونوا على إخراج هذا السفر متضامنون فى تحقيق هذا الجزء والتعليق عليه . فاستقلت الدكتورة سيدة كاشف بتحقيق ما يخص تاريخ مصر فى عصر الولاة وفى العصر الأخشيدى واستقل الدكتور شوقى ضيف بتحقيق الشعر والتراجم الأدبية كما عنى بوضع قسم من بيان المراجع العربية . وقام الدكتور زكى محمد حسن بإعداد المقدمة (فى ٥٤ صفحة) درس فيها الكتاب والمؤلفين والمخطوطة . كما حقق الباب الذى يسرد تاريخ الدولة الطولونية . وعنيت الدكتورة سيدة كاشف بوضع فهارس الكتاب .

---

(١) الجزء الأول من القسم الخاص بمصر .

والمعروف أن ابن سعيد عاش خمسة وسبعين عاماً (توفى حوالى ٦٨٥ هـ — ١٢٨٦ م) خالط فيها العلماء والأدباء وعكف على الدرس والتحصيل وأفاد من نفائس المخطوطات فى ديار الإسلام . وأقبل على التأليف حتى خلف ثروة ضخمة من المؤلفات . وصل أقلها إلينا وضاع أكثرها . وقد ذكر كاتب المقدمة منها :

المغرب فى حلى المغرب — المشرق فى حلى المشرق — الرقصات والمطربات — الغصون اليانعة فى محاسن شعراء المائة السابعة — رايات المبرزين وغايات المميزين — نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب — المقتطف من أزاهر الطرف — القدح المعلى فى التاريخ المحلى — كتاب الجغرافيا فى الأقالم السبع وكتاب بسط الأرض فى طولها والعرض — الطالع السعيد فى تاريخ بنى سعيد — كنوز المطالب فى آل أبى طالب — الغرة الطالعة فى شعراء المائة السابعة — عدة المستنجز وعقلة المستوفز — النفحة المسكية فى الرحلة الملكية — حل الرسائل — ملوك الشعر — الغراميات — لذة الأحلام فى تاريخ أمم الأعجام — ريحانة الأدب فى المحاضرات — نتائج القرائح فى مختار المراثى والمدائح — ديوان — كتاب المحلى بالأشعار — المرزمة — حيا المحل وجنى النحل — تاريخ مرتب على السنين — المعرب عن سيرة ملوك أهل المغرب — الملتقط من السلك من حلى العرس الأندلسية . . .

والحق يقال أن حشد مؤلفات ذلك العلامة لم يكن أمراً يسيراً . ففى سبيل تحقيق هذا الأمر رجع السيد الكاتب إلى مئات المراجع والمخطوطات المبعثرة فى شتى المكتبات . . . وكتب المعاجم والأصول . لكى يقدم لنا ثبتاً كاملا منها .

* * *

كانت دار الكتب المصرية سنة ١٨٨٩ تضم من مخطوطة المغرب سفراً واحداً . هو الجزء الخامس عشر الخاص بالأندلس . وقوامه ١٨١ ورقة . وكان قد آل إليها من تركة مصطفى باشا فاضل . ومن واجبنا أن نكمل قصة هذه المخطوطة النفيسة فننقلها كما كتبها فى المقدمة العالم المحقق الدكتور زكى محمد حسن :

« فى سنتى ١٨٩٢ و ١٨٩٣ كانت لجنة حفظ الآثار العربية تشرف على أعمال إصلاح وترميم فى جامع المؤيد بالقاهرة . وقد عثر خلال العمل على كمية

من ورق المخطوطات فى قاعة بعيدة عن الأنظار . فأمر ديوان الأوقاف بنقلها إلى الجامع الأزهر . وتبين أن معظم هذه الأوراق من مخطوطة كتاب « المغرب » . واستطاعت دار الكتب بعد مكاتبات طويلة أن تقنع الشيخ شمس الدين محمد الانبابى شيخ الأزهر فى ذلك الحين بالموافقة على تسلم تلك الأوراق . وعددها ٨٦٥ ورقة — لضمها إلى المخطوطة المحفوظة بدار الكتب . وقد تم ذلك ولا تزال بعض أوراقها المخطوطة تحمل العبارة الآتية : « مستخرج من دشت المؤيد . ومضاف فى ١١ مايو سنة ١٨٩٣٢ — نمرة ٤٦ يومية ١٠٣ م تاريخ خصوصية — تبع ٧٥٣٣ عمومية »

وهكذا استطاعت دار الكتب المصرية أن تظفر بالجزء الأكبر من مخطوطة من أنفس المخطوطات العربية فى العالم كله » .

ويرجح أن جزءاً من هذه المخطوطة قد فقد من جامع المؤيد قبل سنة ١٨٢٧ م . لأن الشيخ حسن العطار حين طالع المخطوطة فى تلك السنة كتب يقول « أسأل الله أن يطلعنى على بقية الكتاب بمنه وكرمه » .

لهذا كله كانت مخطوطة المغرب جليلة القدر ظاهرة الأهمية . وبلغ عدد أوراقها التى استقرت فى دار الكتب ألفاً وخمسين ورقة . فى أربعة مجلدات . لكن حين فعلت ذلك ضمت كثيراً من أوراقها فى غير نظام أو ترتيب ؛ وبذل الدكتور شوقى ضيف مجهوداً كبيراً فى ترتيب المخطوطة ولاحظ الأقسام المفقودة منها .

ويضم الكتاب الأول من المغرب فى حلى المغرب . الكلام على مدينة الفسطاط (المنصة) وعلى ولالتها (التاج) من قبل الخلفاء مع تلخيص لحوادث الفتح ثم تاريخ الدولتين الطولونية والأخشيدية . وتلى هذا مجموعة من التراجم والمختارات الشعرية تؤلف السلك من حلى العروس الفسطاطية . .

ونحن نهنئ الذين تعاونوا على إخراج هذه الدرة النفيسة بالطريقة التى نشروا بها هذا السفر القيم . . التى نلخصها بأنها دراسة تحليلية دقيقة . ويؤكد ذلك الجهد الواضح الذى بذلوه فى كل صفحة من صفحات « المغرب فى حلى المغرب » .

عبد الرحمن زكى

حرب الاستقلال اليونانية ومسرحها التاريخي

وودهوس . مكتبة هتشنسون عام ١٩٥٢

The Greek War of Independence. Its historical Setting. C.M. Wood house. Hutchinson's University Library. 1952.

احتلت حركة التحرير اليونانية شطراً طويل الأجل امتد عدة سنوات فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر . وكانت نواة هذه الحركة جمعية الإخوان « Hetairia Philike » التى أسسها التجار اليونانيون فى ميناء أودسا . وكان هدفهم طرد الأتراك من أوربا وإعادة أمجاد الدولة البيزنطية ولا غرو إذا لقوا عطف روسيا عليهم وهى عدو العثمانيين التقليديين .

كان يتزعم تلك الحركة هبسلنتى الإغريقى زعيم اليونانيين المنفيين فى مولدافيا ووالاسيا من الولايات العثمانية إذ ذاك . ثم اتجه نشاط الحركة إلى شبه جزيرة المورة . وكان هدفها استقلال اليونان والتحرر من نير الحكم الأجنبى نهائياً . واستطاع الثوار أن يكبدوا العثمانيين خسائر فادحة . فلجأ السلطان إلى محمد على الوالى على مصر يستنجد به لعله يستطيع بجيشه انقاذه من الورطة .

أجاب الوالى مطلب السلطان بعد تردد طويل لانشغاله بقتال الوهابيين فى شبه الجزيرة وفى فتح السودان .

* * *

وتتصل حرب استقلال اليونان بتاريخ مصر الحربى فى القرن التاسع عشر . فقد كانت للقوات المسلحة البرية والبحرية بقيادة إبراهيم أثراً يذكر فى سير المعارك التى دامت ست سنوات والتى كلل بعضها بالنجاح المحلى . إلى أن تدخلت القوى السياسية والعسكرية المسيحية فأملت على الباب العالى مطالبها . ونجحت اليونان فى استخلاص حريتها واستقلالها .

والكتاب خلاصة طيبة استوعب فيها المؤلف مأساة اليونان فى سبيل تحررها من الطغيان العثمانى منذ احتلتها الجيوش التركية (١٤٥٣) إلى عام ١٨٢١ عند ما نشبت الثورة المنظمة ضد الحاميات . ثم بين عامى ١٨٢١ و ١٨٢٩ عند ما اندلعت نيران الثورة وامتدت إلى كل مكان فى شبه الجزيرة اليونانية — وأخيراً مقاومة الثوار للجيوش المصرية التركية .

استطاعت تلك الدويلة الصغيرة كسب عطف دول أوربا فى المجالين السياسى والعسكرى . فضلا عن الرأى العام المسيحى . وهكذا وقفت فى صفها تمدها بالدعاية والمال والسلاح والنفوذ . إلى أن ارغمت هذه القوى المتجمعة الباب العالى على الاعتراف باستقلال اليونان عقب كارثة معركة نفارينو البحرية (١٨٢٧) التى دمر فيها معظم الأسطول المصرى التركى — وهكذا أتيح لها أولا كسب معاهدة لندن (١٨٢٧) التى اعترف فيها باستقلال اليونان الذاتى .

ولكن لم تكن هذه الخاتمة لترضى اليونانيين الوطنيين . فانتهزوا الظروف والفرص وانتزعوا استقلال بلادهم التام فى عام ١٨٣١ .

كل ذلك يتناوله مستر وودهوس فى كتابه القيم وبقلم المؤرخ الصادق .

ولقد رجع المؤلف إلى المراجع الأصلية فى الموضوع . وراجع المسألة الشرقية ومنها المراجع اليونانية التى لم يطلع عليها بعد — المؤرخ المصرى — ولا سيما فيما بين الأعوام ١٨٢١ — و ١٨٢٧ لاتصالها بحقبة من تاريخ مصر الحديث .

ومثل هذه الثورات التحريرية التى كان مسرحها — الشرق الوسيط — لتستحق دراسة علمية نفسية إجتماعية لأن على ضوئها يستطيع المؤرخ تبيان الخطوط الرئيسية التى ينبغى أن تسلكها الشعوب التى تهدف إلى تحرير نفسها بالوسائل العملية المؤسسة على العلم الصحيح .

عبد الرحمن زكى

نابليون والدردنيل

Napoleon and the Dardanelles. By Vernon J. Puryear. University of California Press. 1951.

الأستاذ بوريير معروف فى الأوساط التاريخية بمؤلفاته فى التاريخ الدبلوماسى للشرق الوسيط فى خلال القرن ١٩ .

ومؤلفه الجديد — نابليون والدردنيل — بالرغم من تزويده بالوثائق التاريخية التى استمدها من المخفوظات الفرنسية . فمن الصعب أن يجد بسهولة تلك المكانة الملحوظة بين المؤلفات العلمية . ذلك لأن المؤلف قد وجد نفسه بين أكوام الوثائق العديدة مما جعلته فى حيرة عند الاختيار . ولم يوفق فى هضمها كما كنا نرجو . فضلا عن أنه لم يتصل اتصالا وثيقاً بالمحفوظات البريطانية ليفيد الفائدة كلها . كذلك نلاحظ أنه لم يستفد من المطبوعات الحديثة للدراسات الهامة التى نشرت فى الأعوام الأخيرة . ولذلك تسربت — عن غير قصد منه — أخطاء كثيرة تناثرت بين سطور الكتاب بدون أن يمحصها فيؤكدها أو يزيلها .

ولذلك جاء كتابه خالياً من التحقيق العلمى . على عكس تلك المنزلة التى اتسم بها كتابه الكبير : إنجلترا وروسيا ومسألة المضايق (١٨٤٤ — ١٨٥٦) .

كل ذلك لسبب قد يبدو لنا وهو أن المؤلف لم يسيطر تماماً على مادة موضوعه سيطرة كاملة . ولذلك يمكن وصف كتابه بأن ليس من إخراج أستاذ من أساتذة التاريخ بل بداية عمل علمى . ومع هذا نستطيع القول بأن الكتاب — قد يكون مهماً كمرشد طيب لمواد الموضوع — الموجودة فى دار محفوظات وزارات الخارجية والبحرية والحربية فى باريز أو لمحفوظات الغرفة التجارية فى مارسيليا . وبعض محفوظات وزارة الخارجية الموجودة فى دار المحفوظات البريطانية .

وقول المؤلف أنه اطلع على المحفوظات التاريخية الموجودة فى فيينا وبيرلين لا يظهر واضحاً على صفحات الكتاب .

* * *

إن مؤلفات الأستاذ بوربير السابقة لهذا الكتاب لتبين تماماً أنه ملم ومتصل اتصالا وثيقاً بالمحفوظات البريطانية فى وزارة الخارجية فى الفترة التالية . ولكن يتضح من بعض ما ورد فى هذا الكتاب أنه استقاها من مراجع ثانوية . . عن نصوص فرنسية لا يوثق كثيراً بدقة صحتها .

كما يتضح أيضاً أن الأستاذ بوربير لم يجهد نفسه للبحث عن الوثائق المتصلة بموضوع كتابه فى المحفوظات الوطنية فى باريز . ونحن نعرف أن فرصة البحث لم تكن ميسرة للمؤرخين فيما قبل عام **١٩٣٩** .

ونلاحظ أن المخطوطات الفرنسية لم تسعف الأستاذ فيما يتصل بمشكلة التمثيل السياسى فى مصر عام ١٨٠٤ . والمعروف أن الجنرال ستوارت لما أخلى الإسكندرية فى ١١ مارس عام ١٨٠٣ خلف وراءه سكرتيره العسكرى ماجور ميسيت كوكيل بريطانى . وبالرغم من تعيين شارلز لوك لملىء المنصب فى سبتمبر عام ١٨٠٣ فإنه بسبب وفاته لم يتقلد المنصب أصلا . ولذلك تعين « ميسيت » فى المنصب .

وكانت الحكومة البريطانية فى موقفها لا تعتبر مصر أكثر من ولاية فى الإمبراطورية التركية . أما إن السلطان سليم بإسناده الولاية المصرية لمحمد على فى منتصف عام ١٨٠٥ . كان بمثابة تنازل عن السيادة التركية نهائياً للوالى — فهذا خطأ فى تقدير الأستاذ بوربير للأحوال السياسية فى مصر .

وعند ما بحث الأستاذ بوربير عداء نابليون لإنجلترا نسب إلى عبقرية القائد الفذ حسن تقديره للسيادة التى تنسب للقوة البحرية . والواقع أنه فى ذلك الحين لم يكن القائد الفرنسى قد أدرك بعد قيمة السيادة البحرية . وعند ما تناول الأستاذ موضوع الهجوم البريطانى على كوبنهاجن عام ١٨٠٧ — ثم الاعتداء البريطانى على الإسكندرية عام ١٨٠٧ نجده يكرر تلك الأسباب القديمة للاعتداء . والتى عرض جوهرها الأستاذ المؤرخ محمد شفيق غربال فى كتابه المعروف —

« بداية المسألة المصرية وظهور محمد على » . فقد أوضح المؤرخ فى فصول كتابه أن الاحتلال الإنجليزى كان خطة دبرت عدتها قبل إقدام الأسطول البريطانى على دخول الدردنيل . ولم يكن مشروع احتلال الإسكندرية عملا انتقامياً أعد على عجل أو رداً على انسحاب جاء فى أثره ضياع هيبتها .

ولا شك أن أسباب مثل تلك الأخطاء وغيرها فى تقدير الأستاذ بوريير جاءت عن طريق المصادر التى رجع إليها المؤلف . ولم تكن بعض الآراء التى أوردها على أنها حقائق . سوى إشاعات لا أثر لها من الصحة . ومثل ذلك الموضوع الذى تعرض له بورييز كان يمكن جداً أن يكون عملا جليلا يتوج به حياته العلمية وليس مؤلفاً عادياً . هذا وليس يخفى أن المحفوظات التاريخية التركية التى تتصل بمادة الكتاب غير متيسرة فى الوقت الحاضر ولذلك كان الاعتماد على مصادر محدودة . وهذا أمر لا يتفق مع كتابة التاريخ الدبلوماسى .

لقد نشر فى انجلترا وغيرها فى السنوات الأخيرة — مؤلفات تاريخية متصلة ببلدان الليفانت فى خلال القرن ١٩ لم يستفد منها الأستاذ بورييز — وواضح من الفصل الذى عقده المؤلف للمراجع وما جاء فى هوامش الكتاب من مصادر وتعليقات أنه (المؤلف) لم يعن العناية اللازمة ببحوث الأستاذ شفيق غربال التى أوردها فى كتابه — كما أن المؤلف أتى بخلاصة طيبة للنظم الحاكمة فى تركيا . ولكنه أغفل ذلك المؤلف النفيس الذى تعاون على تأليفه جيب وبراون وهو :

Islamic Society ,and the West"

ونرى أن هناك مجالا فسيحا لدراسات مسهبة للمشاكل المتصلة بالدردنيل ولكن نعتقد أن تلك الدراسات لا تجىء وافية إلا إذا استخدمت المصادر الأصيلة الأخرى التى لم يعن بها بورييز — تلك المصادر التى يستطيع بجدارة أن ينتفع منها أولئك المتضلعون فى اللغتين العربية والتركية .

ومع ذلك فإن الكتاب يعتبر مؤلفاً مفيداً لهؤلاء الذين يريدون أن يوفروا على أنفسهم مراجعة المحفوظات التاريخية الفرنسية — المتصلة بموضوع الكتاب : نابليون والدردنيل.

جيمس أوخموتى وترجمة عبد الرحمن زكى

قاموس الأعلام للسودان المصرى الإنجليزى

ريتشارد هيل – مطبعة أكسفورد . عام ١٩٥١

A Biogrophical Dictionary of The Anglo - Egyption Sudan Oxford Press. 1951 .

مستر ريتشارد هيل مؤرخ ومستشرق خدم حكومة السودان سنوات ويشغل اليوم منصب مساعد مدرس التاريخ الحديث فى جامعة درهام . وقد نشر بحوثاً عدة فى تاريخ السودان . ومن أهم أعماله كتابه المفيد الذى نشره منذ سنوات وهو :

A Bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan.

من الأزمنة القديمة إلى عام ١٩٣٧ .

وفى عام ١٩٥١ نشرت مطبعة جامعة أكسفورد – قاموس الأعلام – الذى نحن بصدده اليوم .

من أصعب الأمور أن يهتدى مؤرخ العصر الحديث إلى تاريخ أو ترجمة إحدى الشخصيات المصرية أو السودانية وعلى العكس يجد المؤرخ الأجنبى كتب التراجم التى تسعفه . ومما يؤسف له أن مهمة المحافظة على أوراق المحفوظات التاريخية والأضابير المتعلقة بها ما زالت بعيدة عن متناول الأخصائيين والخبراء . فضلا عن أنها لم يلحقها التنسيق الذى ييسر مهمة الاطلاع والبحث .

والنتيجة أن ما نشر إلى اليوم من قواميس تراجم الأعلام المصريين يعد قليلا جداً فضلا عن خلوه من الدقة . ولذلك استقبلنا قاموس الأعلام بشىء كثير من الترحاب والسرور لأنه أصبح معيناً للمؤرخين . فقد تناول فيه مستر هيل ترجمة حوالى ألفين من الشخصيات المصرية والسودانية والإنجليزية والألمانية والإيطالية والفرنسية – الذين اتصلوا بالسودان فى كافة النواحى الإدارية والعلمية

والعسكرية والعمرانية . . الخ إلى عام ١٩٤٨ .

* * *

استعان المؤلف بمخطوطة ود الضيف الله التى كتبها محمد النور ود الضيف الله عام ١٨٠٥ عن مشاهير الرجال الصالحين والاتقياء فى سلطنة سنار . والمعروف أن لهذه المخطوطة طبعتان نشرتا فى القاهرة عام ١٩٣٠ — الأولى لإبراهيم صادق . والثانية لسليمان داود منديل . وقد ظهرت ترجمة جزئية من المخطوطة فى كتاب ماكميكل » — تاريخ العرب فى السودان . (١٩٢٢) . كما نشرت مؤلفات صغيرة أخرى لا نعتبرها من المراجع التى نثق بها .

وقاموسنا. هذا قاموس عام للأعلام . لكافة مشاهير الناس الذين اتصلوا وعملوا للسودان . وكان هذا القاموس حلم مستر هيل منذ سنوات بدأ فى عمله منذ زمن . حتى أخرجته له مطبعة أكسفورد . وقد ذكر فيه الكثيرين من الأغوات الترك والعلماء والأمناء والأمراء والأرباب والبكوات والباشوات والحكمدارين والفقهاء والعسكريين والإداريين والحكام والكشاف والخديويين والمفتشين والنظار والقضاة والمشايخ والولاة والمكتشفين وغيرهم .

وإننا وإن كنا نلمح أن بعض المعلومات التى جاءت فى القاموس غير مؤكدة عند المؤلف . لكننا نعذر المؤلف لأن ما نقله اتفقت عليه معظم ما ورد فى الكتب التى اعتمد عليها .

مع ذلك شكراً . كثيراً لك يا مستر هيل ! ونأمل أن تلقى التقدير الذى تستحقه من جميع المشتغلين بتاريخ مصر والسودان .

عبد الرحمن زكى

ابن خلدون وتيمورلنك

Ibn Khaldun and Tamerlane. Walter J. Fischel. University of California Press. 1952.

ألفت فى حياة الفيلسوف والمؤرخ ابن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦) كتب عديدة تناولت شتى نواحي تفكيره وذهنيته الفذة . ويقدم هذا العام — الأستاذ والتر فيشيل المستشرق الأميركى حادثاً هاماً فى حياة هذا العبقرى المغربى — ألا وهو مقابلته الفاتح الكبير تيمور خارج أسوار دمشق أثناء حصارها المشهور فى عام ١٤٠١ .

وقد كتب ابن خلدون أخبار تلك المقابلة فى تاريخه المشهور . وكان أول من نشرها حديثاً السيد العلامة محمد بن تاويت الطنجى فى كتاب « التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً الذى نشر فى عام ١٩٥١ [١]

وقد استعان السيد محمد بن تاويت عند نشره « التعريف » بمخطوطتين هامتين الأولى نسخة « أيا صوفيا . والثانية نسخة » أحمد الثالث » باستانبول . وكانت كل واحدة منهما نسخة للمؤلف ابن خلدون . لذلك كانت من أوثق ما وصل إلينا من نسخة . ولنسخة أيا صوفيا هذه فروع نذكرها :

(ا) نسخة دار الكتب المصرية (رقم ١٠٩ م تاريخ)

(ب) نسخة عند السيد محمد بن تاويت الطنجى . كتبت فى سنة ١٣٠٧هـ بخط نسخ جميل .

(حـ) نسخة مكتبة أسعد أفندى . (إحدى مكتبات السليمانية) باستانبول

(د) نسخة مكتبة الرباط (رقم D 1345) .

* * *

هذا إلى جانب نسخ أخرى غير كاملة . كنسختى الظاهرى والشنقيطى والسيد حسن حسنى باشا عبد الوهاب بتونس . والنسخة الأزهرية (٦٧٢٩ تاريخ

(١) آثار ابن خلدون . [١] لجنة التأليف والترجمة والنشر . عام ١٩٥١ . القاهرة

أباظة) ونسخة طلعت (٢١٠٦ تاريخ) . . . الخ مما ورد فى مقدمة كتاب السيد محمد بن تاويت .

أما المستر ولتر فيشيل . عند نشره الجزء الخاص بالمقابلة التاريخية . فقد رجع إلى نسختى مكتبتى أيا صوفيا وأسعد أفندى . باستانبول . والنسختان كما قلنا كاملتان .

وعلى ذلك أصبح لدينا الآن بعد نشر النص العربى والترجمة الإنجليزية — النص الكامل لكتاب «التعريف» بعد غياب قسم منه مدة من الزمن لم تخرجه آ لة الطباعة إلا بفضلهما . وهذا كسب كير للمشتغلين بالتاريخ الإسلامى .

وقد احتوى كتاب المستشرق فيشيل على الأقسام الآتية :

١ — مقدمة تنطوى على ما كتبه ابن عربشاه المؤرخ المسلم عن تيمور وابن خلدون . وعلى المصادر الرئيسية لتيمور . وابن خلدون . وكتابه العبر . وقارن المؤلف فى مقدمته المخطوطات التى استعان بها . ثم أوضح أهمية كتاب « التعريف » للباحثين وجاء فى أعقاب المقدمة ملاحظات وفيرة لا غنى عنها للباحثين (٦ صفحات).

٢ — ويشتمل القسم الثانى من الكتاب على ترجمة ما دار من الحديث فى المقابلة التاريخية . وعودة ابن خلدون إلى القاهرة وتوليه وظيفته السابقة كقاضى لقضاة القاهرة .

٣ — والقسم الثالث وهو كما نرى أهم محتويات الكتاب يضم التعليقات والحواشى وقد شغلت أكثر من ستين صفحة . اشتملت على إيضاحات هامة وغزيرة تفيد الباحث الغربى إلى تفصيلات تاريخية عن عصر تيمور وأحداث الشام فى تلك الحقبة الهامة من تاريخ مصر الإسلامية .

٤ — وختم المؤلف موضوعه القيم يثبت بالمراجع الخاصة بحقبة اصطدام التتر بالدولة المملوكية . (١٥ ص) . كثير منها باللغة الفارسية والعربية . وأتبع هذا الثبت بكشافين أحدهما للأشخاص والآخر للأماكن .

ويسرنا أن نعرف أن مستر فيشيل يعد الآن عدته لإنجاز ترجمة إنجليزية لكتاب « التعريف » . عن عدة مخطوطات . ونعتقد أن نشر « التعريف » بالمنهج الذى نشر به كتابه ابن خلدون وتيمور . يبشر بأننا سنكسب عملا علمياً آخر

عبد الرحمن زكى

سجاجيد الصلاة التركية

للدكتور محمد مصطفى مدير متحف الفن الإسلامى

من مجموعات متحف الفن الإسلامى . القاهرة . **١٩٥٣**

بالرغم عما يؤلف وينشر من كتب الفتون عامة فى اللغة العربية . فما زلنا متأخرين فى هذا المضمار . مع أن مصر مهد أهم الفنون الخالدة : الفن المصرى القديم والفن القبطى والفن الإسلامى . . وقد يرجع هذا الركود إلى عدم تقدير الناس إلى روح الجمال التى تعبر عنها الفنون المصرية ــ تلك التى تتمثل فى

روائع أعمال العمارة والنحت والتصوير والمنسوجات والصناعات المعدنية والخزفية والزجاجية إلى غيرها .

ومن بين الوسائل التى تربى هبة تقدير الجمال عند الشعوب — المتاحف المثالية التى يعنى القائمون بأمرها بهذه الناحية التربوية . فالمتاحف لم تعد اليوم مخازن أو مستودعات تعرض فيها القطع الأثرية والألطاف الجميلة فحسب . لكنها معاهد يشاهد فيها الناس تطور فنون الحضارة ومبتدعات الجنس البشرى التى صنعها فى خلال العصور فيدرك كل شعب أين موضع قدميه فى سلم الحضارة الإنسانية .

ولذلك سرنا كثيراً نشر الحلقة الأولى من سلسلة — كتب مجموعات متحف الفن الإسلامى — وهى سجاجيد الصلاة التركية للدكتور محمد مصطفى .

لقد ساهم هذا المتحف منذ زمن بإخراج مجموعة فخمة من المؤلفات العلمية للآثار التى يضمها المتحف . قام بتأليفها نخبة من العلماء الإخصائيين المعروفين فضلا عن الكتب النفيسة التى ألفها فى الفن الإسلامى الدكتور الأستاذ زكى محمد حسن . المدير السابق للدار . وهذه الكتب القيمة لم يفد منها إلا العلماء والباحثين فى الفنون الإسلامية . ولذلك جاء نطاق نفعها محدوداً .

ولذلك كان ابتهاجنا كثيراً عند ما قرأنا الكتاب الأول من سلسلة كتب متحف الفن الإسلامى . تناول فيه المؤلف الحديث عن مجموعة من نوع معين من السجاجيد الإسلامية . وضح بالصور والرسوم وكتب بأسلوب طريف سلسى ليكون فى متناول القراء سواء أكانوا من العلماء والباحثين او من الزوار والهواة ، وبذلك يحقق المتحف ما يهدف إليه من نشر الثقافة الإثرية بين الناس .

وقد قدم المؤلف لكتابه بكلمة عن صناعة السجاد فى آسيا الصغرى والعناصر الزخرفية السائدة فى أنواع السجاجيد المصنوعة بهذه البلاد . ومراكز نسج سجاجيد الصلاة التركية والمواد المستعملة فى نسجها . والتاريخ الذى بدأت فيه صناعة سجاجيد الصلاة التركية . . . الخ .

وطبيعى أن كتاباً مثل هذا لا يخلو من الرسوم اليدوية لأنواع العناصر الزخرفية . ولوحات للسجاجيد المشهورة التى تناولها المؤلف ببحثه ودراسته من وصف وتحليل ومقارنة . كما ختم المؤلف كتابه بكشاف جمع فيه الكلمات

والمصطلحات الفنية التى استعملها فى متن الكتاب .

إن هذه بداية يشكر عليها حقاً الدكتور محمد مصطفى ونأمل أن ينشر فى القريب – الحلقة الثانية – عن المشكاوات النفيسة فى مجموعة المتحف . وإننا لمنتظرون إن شاء الله .

عبد الرحمن زكى

مراجع عن التصوير فى الإسلام

للأستاذ ك . كريزويل

A Bibliography of Painting in Islam. By Prof. K.A.C. Creswell. Publications de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire. Le Caire. 1953.

بالرغم عن كثرة كتب المراجع والأصول فى البلدان الأجنبية . فهى ضئيلة جداً عندنا . ولذلك يجد الباحثون صعوبة عند ما يريدون تتبع ما كتب فى موضوع من موضوعات الآثار والفنون الإسلامية مثلا . من كتب وبحوث ومقالات ومحاضرات .

صحيح أن الآثار الإسلامية لم يبدأ فى كتابتها من الناحية العلمية إلا منذ السنوات المائة الأخيرة . ومع ذلك فقد تناولها العلماء الأوربيون واهتموا بها وبحثوا فروعها عن طريق الحفريات التى نشاهد نتائجها واضحة فى المتاحف والجمعيات العلمية ونشرياتها المتعددة .

وقد أقدم المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بنشر سلسلة كتب فى الفن الإسلامى تبحث فى مراجع فروع هذا الفن القديم . وكانت الحلقة الأولى للأستاذ العالم المعروف كريسويل مدير معهد الآثار الإسلامية فى جامعة القاهرة سابقاً . وتضم هذه الحلقة مراجع التصوير فى الأسلام وسيتبعها بحلقات أخرى ويحتوى

هذا المرجع على ١٠٠٨ مصدر راجعها المؤلف باستثناء ثمانية مصادر لم يستطع الوصول إليها .

وقد اتبع الأستاذ كريسويل ترتيباً رآه خير مرشد للباحث . فبدأ بالأبحاث المتعلقة بشرعية التصوير فى الإسلام . ثم الأبحاث العامة فى الفنون الإيرانية والهندية . . . الخ . ثم الفنون الهندية الفارسية أو المغولى . ثم مصادر التصوير الجدارى . مما كتب عن قصير عمرة وقصر الحير الغربى وسامرا . وينشابور وكنيسة بالاتينا وقصر الحمراء . . . الخ .

إننا كما قلنا فى مزيد الحاجة إلى تهيئة وسائل البحث وذلك بنشر رسائل خاصة فيما يؤلف ويكتب وينشر فى الموضوعات العلمية والتاريخية والفنية والأدبية والاقتصادية كما يفعل غيرنا . وحبذا لو عنيت هيئة خاصة بذلك العمل يساهم فيها كل قادر على العمل لتوفر الوقت والجهد على المشتغلين بالمباحث الخاصة بحضارتنا .

عبد الرحمن زكى